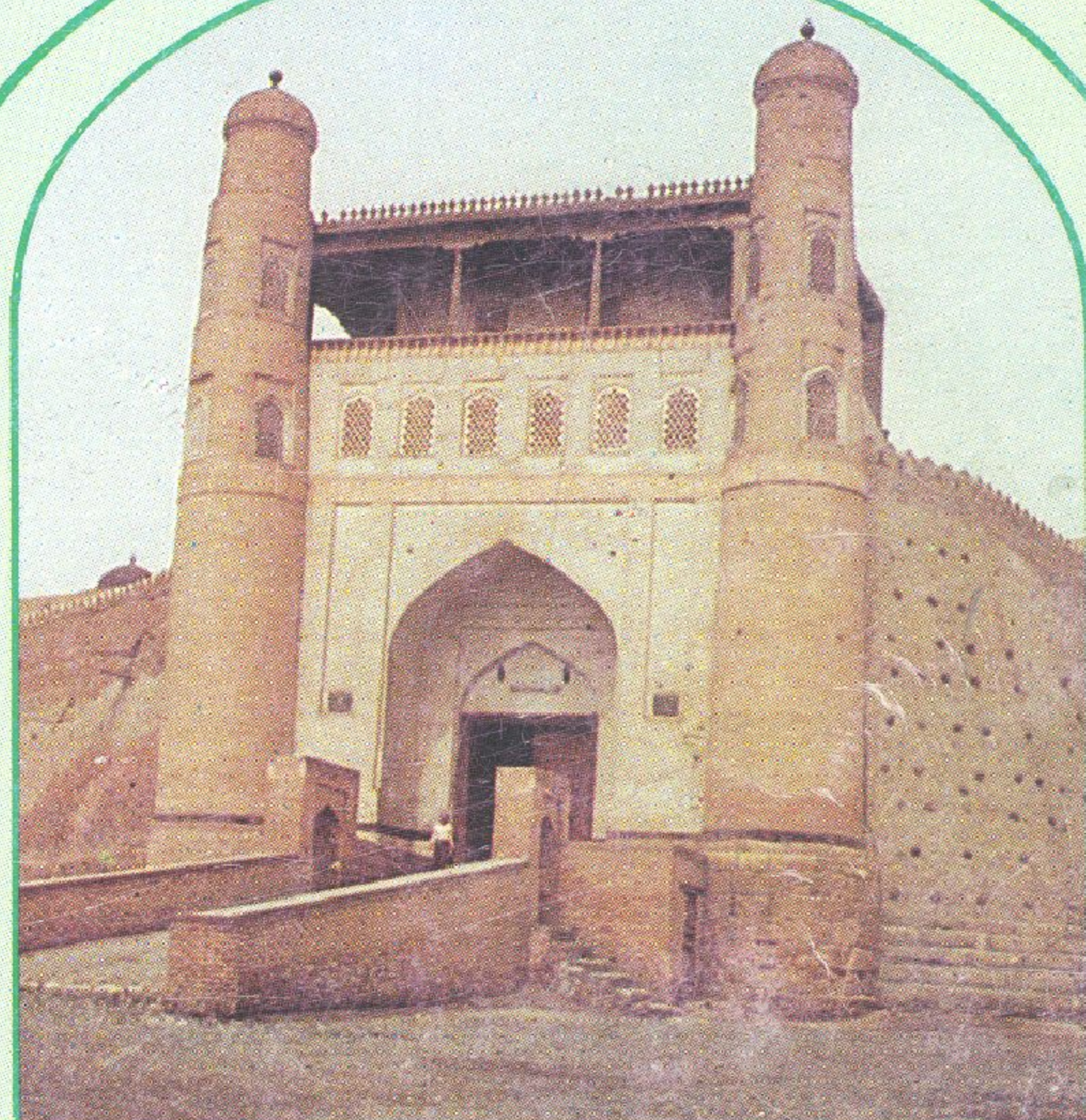
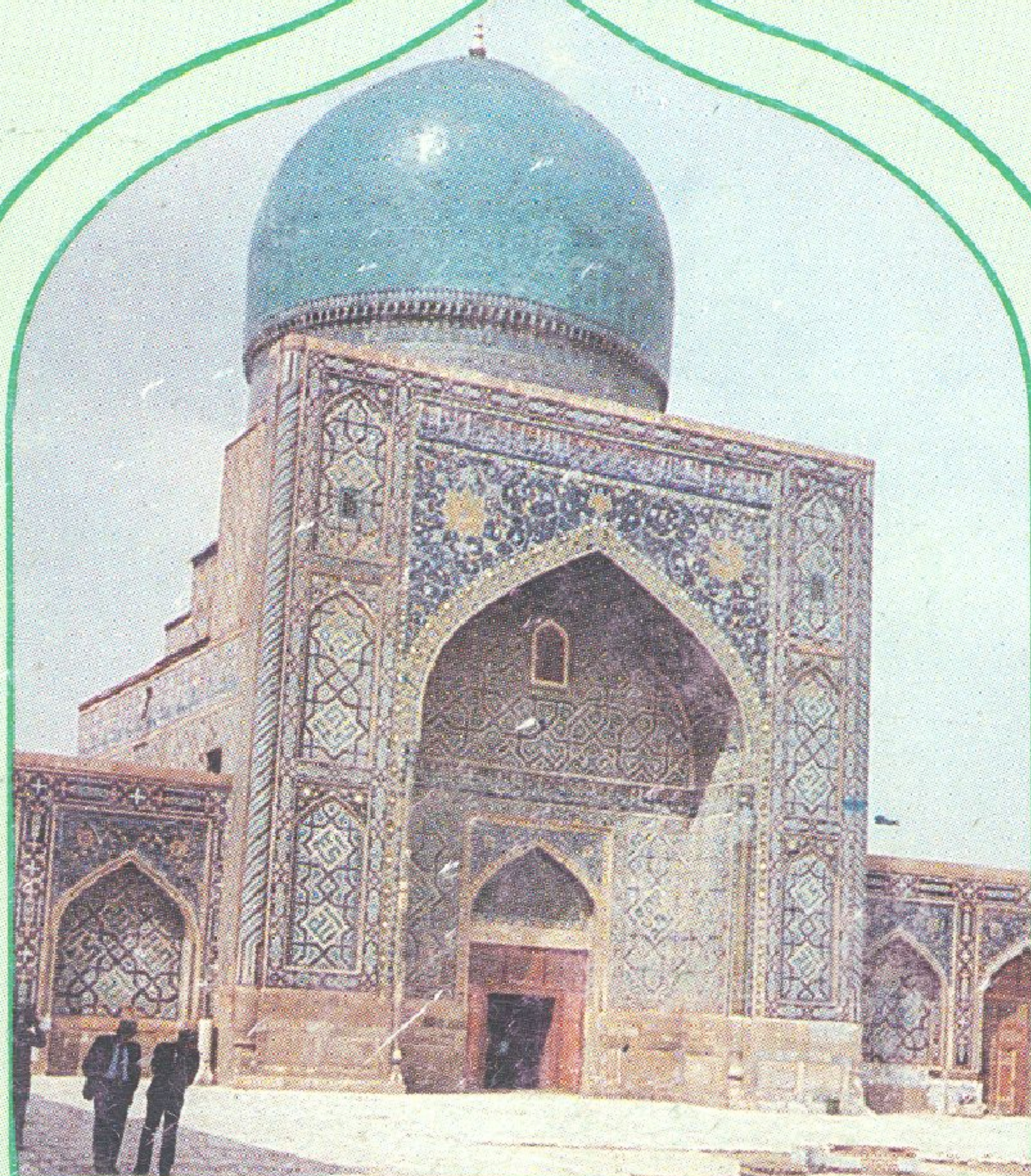


في بلاد المسلمين المنسيين

بخاري وما وراء النهر



محمد بن ناصر العبودي



الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

في بلاد الساميين بخارى وما وراء النهر

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى

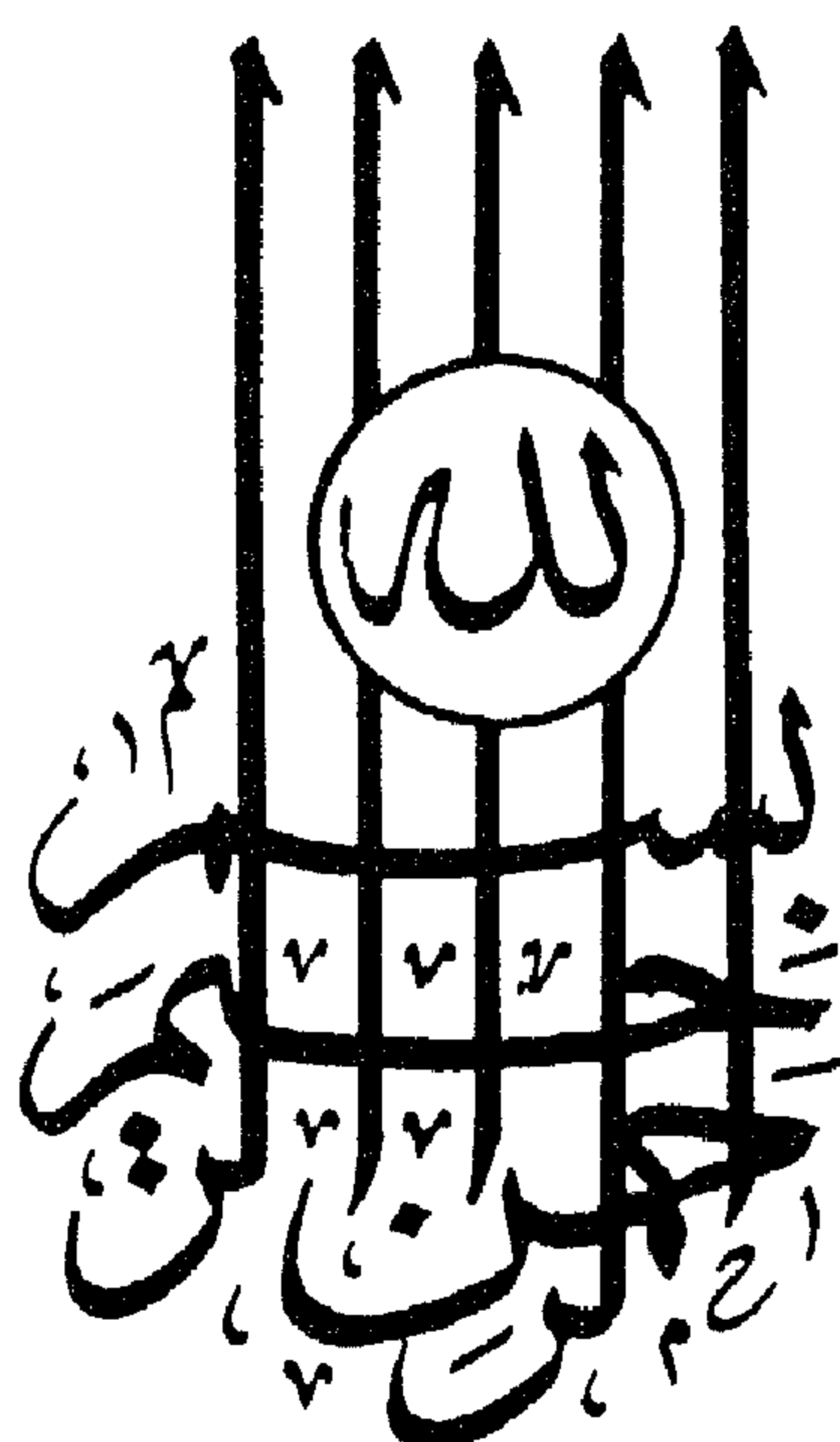
١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم فسخ وزارة الاعلام

م/٢٢١٨

التاريخ: ١٠/٤/١٤١١هـ



تقديم

للأستاذ بابكر درويش مدير مكتب

رابطة العالم الإسلامي في أديس ابابا

إنه دعوة إلى المزيد من الإهتمام بأحوال المسلمين الموجودين في الكتلة الشيوعية. لاسيما في هذه الأيام التي تتهاوى فيها صروح الشيوعية صرحاً بعد صرح ، وحصناً بعد حصن.

وإنه أول محاولة ميدانية تستشف أوضاعهم.

مسلمو الاتحاد السوفيتي عالم مجهول .. وكل ما كتب عنهم حدده الإطار الماركسي.

فالمسلمون في داخل الستار الحديدي يغطون ثلث مساحة الاتحاد السوفيتي.. ويتحدثون أكثر من خمسين لغة محلية ويشكلون ٤٣ قومية متعددة الأصول، والطائرة السوفيتية في مطار عمان كانت أول مصدر ناطق أعطت الكاتب واقعاً ملموساً للحياة في الاتحاد السوفيتي.

شيء صعب أن يرسم الإنسان صورة حقيقية لأوضاع المسلمين في الاتحاد السوفيتي ليس فقط بسبب القهر وأجواء الإرهاب التي كان يعيشها الناس داخل هذا السجن الكبير والتي عاشها المسلمون على وجه الخصوص منذ عصر القياصرة وحتى عصر الانفتاح الحالي.. بل هي بقدر كبير تتركز في الإمتداد الشاسع لأرض الاتحاد السوفيتي الذي يحتل سدس اليابس من الكرة الأرضية واقعاً وأكثر من سدسها بشكل نظري.. وهذه مسألة تحدث عنها علماء الجغرافيا كثيراً.. ومن هذه المساحة — الواقعية والنظرية — يحتل

المسلمون ثلثها ويشكلون حوالي خمس السكان.. ويجعلون بالتالي من الإتحاد السوفيتي الدولة الإسلامية الخامسة من حيث تعداد السكان..!

وتأتي الصعوبة أيضاً من أن المسلمين في الإتحاد السوفيتي يصعب الإتصال حتى مع بعضهم البعض.. وهم يتكلمون خمس عشرة لغة تركية وعدة لغات فارسية وثلاثين لغة قفقاسية إضافة إلى الصينية والمنغولية وشكل غريب من العربية. واللغة المشتركة الوحيدة هي الروسية رغم إنخفاض شعبيتها.

كذلك فإن الأصول الثقافية والاجتماعية للمسلمين السوفيت مختلفة: ينحدر التاجيك مثلاً من شعب حضري.. أما القازاق فقد كانوا بدوا رحلاً حتى عهد ليس ببعيد عن الذاكرة.. وما زال الباميريون يعيشون منعزلين في وديانهم الجبلية أما التتار فقدموا إلى الفولقا في عصور قديمة وما زالوا هناك.. وينحدر القفقاسيون من السلالات الأصلية التي سكنت القفقاس منذ القدم ويشكل المسلمون في مجموعهم حوالي ٤٣ قومية!!

وحتى الذين ابعدوا حديثاً إلى سيبيريا.. فهم يعيشون في مسطح ضخم يجمع الواناً متعددة من التضاريس تضم السهول والجبال والهضاب وتزيد مساحتها على المليونين ونصف المليون كيلو متر مربع وهي أكبر صحراء جليدية في العالم، وتشكل وحدها في المساحة أكبر من أي قطر عربي..! والمعلوم ان سيبيريا خضعت للإسلام منذ عام ٩٧٨هـ.

وأخيراً.. فإن كل المصادر التي اصدرتها الأكاديميات السوفيتية حول المسلمين الذين يشكلون خمس جمهوريات من جمهوريات الإتحاد السوفيتي لا يعتمد عليها... فكل شيء فيها يحدده الإطار الماركسي..

وفي خلاصة هذه المقدمة يمكننا أن نقول: إنَّ أصبح ما يمكن أن يقال عن مسلمي الإتحاد السوفيتي أنهم لم يكونوا دوماً قادرين على الجهرية علناً.. ومع هذه الظروف بقي الإسلام.. وهو أمر مثير للعجب كما تقول

كاتبة انجليزية متخصصة في شؤون المسلمين بالإتحاد السوفيتي.

ورغم كل الذي ذكرناه.. استطاع الأديب الرحالة الشيخ محمد بن ناصر العبودي الذي كتب أكثر من ستين كتاباً في أدب الرحلات وقد طاف معظم أنحاء العالم وعلى وجه الخصوص جزره ومجاهله.. استطاع أن يرسم بقلمه الرشيق صورة حية ودقيقة لهذا الواقع الغريب.. بل استطاع أن يقدم للقارئ وهو في مطار عمان بالأردن قيل أن ينطلق إلى داخل حدود الإتحاد السوفيتي أن يعطي من خلال وصفه للطائرة ووضعها الداخلي من قدرات بشرية وامكانيات مادية إنعكاساً حقيقياً لجغرافية الإتحاد السوفيتي بكل معطياتها التضاريسية وواقعها الاجتماعي وكنوتورها السياسي وخارطتها الاقتصادية.

ومن أجل هذا حرصنا على قراءة كل شيء وصفه كاتب المذكرات.. حتى مواعيد الإقلاع والهبوط للطائرات.. وخشونة ملمس المناشف في الطائرة.. وحركة المضيفات في داخلها.. فالمشهود به أن كل من سافر إلى منطقة من مناطق العالم المعروفة أو المجهولة وبيده كتاب من كتب الرحلات التي خطها الأديب الشيخ العبودي استغنى عن أي شيء غيره..!

مكة المكرمة : بابكر درويش

تصدير

الحمد لله رب العالمين الذي إذا أراد شيئاً كان، ولو ظن الإنسان أنه ليس بالإمكان والصلاة والسلام على نبي الهدى المصطفى المجتبي محمد عليه السلام وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الأبرار المتقين.

أما بعد، فإن كلمة (بخارى) وما وراء النهر كانت تقرع سمعي منذ نعومة أذاني عند ما كنت مبتدأ في قراءة كتب الثقافة العربية الأصيلة وكانت حببت إليّ قراءة كتب التاريخ والرجال فكنت اسمع كثيراً بأن إماماً من أئمة الحديث الكبار رحل إلى بخارى وما وراء النهر فسمع بسمرقند وترمد وبلاد الشاش مثلاً.

بل لقد قرأت سير العلماء الأعلام وأئمة الاسلام الذين انجبتهم تلك البلاد وكيف كان باعهم طويلاً وصبرهم جميلاً على ما لاقوه من العناء والتعب في الرحلة لطلب العلم والسهر على التحصيل ثم إفادة الطلاب عندما يتم التحصيل ويعجز البدن عن الرحيل، فكانت تلك البلاد في ذهني كما هي في الواقع في ذلك الحين مراكز للعلوم الإسلامية وجامعات حافلة بكبار الأساتذة في سائر العلوم والجهابذة — خاصة في علوم الحديث والأثر. وحتى الأدباء المنطيق والشعراء المفايق الذين أغنوا العربية بأشعارهم وآثارهم كان لها منهم النصيب الكبير بل الخطير، وناهيك بما نقله عنهم الشعالي وحده في يتيمة الدهر وفي غيرها من كتبه، فكنت اشتاق إلى رؤيتها حتى في الأحلام، ولقد تحققت هذه الرغبة في المنام.

ولكنها كانت خيوطاً من خيوط الأوهام بين ضباب الرغبة الداخلية والحقيقة المنامية إن صح ان لرؤى المنام حقيقة في الأحلام.

استمر ازدهار تلك الديار على مدى الأدهار حتى جاء التتار ففعلوا بأهلها الأفاعيل ولم يتركوا في مدنها ظل مقيل حتى قال ابن الأثير قولته فيما سمعه من أفعالهم: ياليت أُمي لم تلدني قبل الإطلاع على أحوالهم.

ثم تراكمت عليها النكبات حتى نبغ تيمور لنك في سمرقند وتوجه إلى الشام فسفك الدماء واستباح الأموال واختلف الناس فيه وفي حقيقة معتقده ما بين ماذح له من أهله، وبين مستنكر من غيرهم لقبيح فعله إلى أن أخنى الدهر على تلك الديار فكادت تعقم عن ميلاد الأذكار، أو هي لم تفعل ذلك ولكن المسلمين في حواضرهم وبخاصة في البلدان العربية قد تقاصرت همهم وتدانت عزائمهم فأصبحوا لا يحبون الابتكار ولا يتابعون الأفكار إلى أن أصبحت تلك البلاد قد استولى عليها الأعداء الألداء من الروس قياصرتهم الكبار ثم فراعنة الشيوعيين الأشرار فحمل ذكرها ونيسي أمرها.

وان كان الصحيح أن المسلمين أنفسهم قد نسوا أمجادهم في بلادهم حتى كادوا لا يعرفون عن أنفسهم إلا ما كتبه أعداؤهم، بل خشينا أن يكونوا قد نسوا الله فأنساهم أنفسهم وان لم يكونوا كذلك كلهم فإن هذه هي حال بعضهم.

واستمر نسيان المسلمين في بلاد بخارى وما وراء النهر فكان أعداء الإسلام بل الأديان طغاة الشيوعية واساتذة الدعوات الإلحادية يفعلون بهم ما يشاؤون وما شاؤهم أن يقطعوا الصلة ما بينهم وبين أخوة لهم في الإسلام في ديار الإسلام فحرموا عليهم الحج ثم سمحوا لعدد نزر من الرسميين المنتفعين بأن يكونوا تحلة القسم مع أن وجودهم سواء هو والعدم فعدهم محدود فيما فوق العشرة بقليل ونشاطهم مشهود للشيوعيين بما يحيطونهم به من العيون وأذكر أنني قابلت في مكتبي في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عندما كنت أميناً عاماً لها الوفد الذي اسموه وفد الحجاج السوفييت وكان عدده ثلاثة عشر رجلاً فسألت رئيسهم عن عدد الحجاج من مسلمي الاتحاد السوفيتي فقال: ثلاثة عشر وكلهم حاضر معنا الآن.

فسألته عن أحوال المسلمين هناك فأطنب في ذكر ما يتمتعون به من حرية في أمور دينهم وعمارة مساجدهم بل حتى في إخراج زكاة أموالهم وقد أتى على ذكر الزكاة حينما سألته عن يعمر المساجد التي ذكر أنها تقام فقال إنها من زكاة أموال المسلمين.

وقد نسي أو تناسى أن العالم كله يعرف أن الدخول هناك محدودة لا يكاد يفضل منها شيء عن طعام الرجل وعياله وشرابهم بحيث لا تكاد توجد أموال تجب فيها الزكاة يحول عليها الحول وهي عند صاحبها زائدة عن حاجته وحاجة عياله إلا ما كان من ذلك قليلاً جداً عند عدد قليل من الناس يكون ذلك مما ادخره من قوته وما انتزعه من ضروريات حياته وليس هذا بالمهم وإنما المهم أننى سألته عن عدد المسلمين في الإتحاد السوفيتي؟ فأجاب بأنهم ثلاثون مليوناً.

وهذا هو الإحصاء الرسمي الحكومي آنذاك وهو إحصاء لا يذكر إلا المناطق التي كل سكانها من المسلمين لأنه يحصى الناس على أساس بلدانهم وليس على حسب أديانهم لأنه لا يعترف بالدين أي دين.

وإلا فإن الصحيح الذي يكاد يجمع عليه المنصفون المتابعون لأحوال المسلمين في ذلك الحين قبل أكثر من عشر سنين بقليل يذكر أن عدد المسلمين يزيد على الستين من الملايين.

ولم يكن كلامه مما يستطاع السكوت عليه لاسيما وقد استمع إليه عدد من ممثلي المسلمين في أنحاء العالم ممن كانوا في مكنتى ذلك الحين.

فقلت له وأنا أعرف أن في الوفد الذي لا يزيد أعضاؤه على ثلاثة عشر من هم آذان وعيون يبلغون ما يسمعون أو يستنتجون، كيف يكون ثلاثون مليوناً من المسلمين أحراراً في دينهم وفي أداء عباداتهم ولا يحج منهم الا ثلاثة عشر رجلاً ونحن نرى مسلمين في أقطار فقيرة لا يبلغ عددهم المليون الواحد يحج منهم الفان؟

فسكت ولم يجر جواباً، لأنه كان يعلم في حقيقة أمره أنه لم يقل صواباً.

ثم تتالت السنون، وتوالت معها عناية المملكة العربية السعودية بالإخوة المسلمين في أنحاء العالم تلك العناية التي تمثلت في إرسال الوفود إليهم

لمعرفة أحوالهم ومساعدتهم على أمور دينهم بعمارة مساجدهم واستمرار الدراسة في مدارسهم الإسلامية وإرسال من يرشدهم إلى ما ينفعهم في دينهم ومن يعلم صغارهم ويفيد كبارهم مع تقديم المنح الدراسية لعدد من أبنائهم إلى غير ذلك من المساعدات.

وكان لي بفضل الله تعالى نصيب كبير إن لم أقل نصيب أكبر من هذا الحظ العظيم الذي شمل زيارة المسلمين في سائر أقطار المعمورة.

فكان من آخرها حتى كتابة هذه السطور زيارة المسلمين في الاتحاد السوفيتي.

وقد تمت الزيارة بدعوة رسمية تلقتها رابطة العالم الإسلامي من مدير العلاقات الخارجية للإدارات الدينية في الاتحاد السوفيتي ورئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان الدكتور شمس الدين بن ضياء الدين بابا خان وإن شئنا التلغظ باللفظ الرسمي لاسمه كما تقضي بذلك قواعد اللغة الروسية قلنا شمس الدين بن ضياء الدين بابا خانوف لأن (أوف) تعني (ابن) مثلما تعني كلمة (اوغلو) في اللغة التركية.

هذا ما كان في الأوراق الرسمية وأما ما وراء السطور فإن الرجل كان قد قال لي كما قال غيره من رؤساء الإدارات الدينية هناك الذين قابلتهم أثناء الحج: إن اخوتكم المسلمين في الاتحاد السوفيتي ينتظرون بشوق قدوم وفد رسمي من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة وسيكون وفد الرابطة الذي نرجو أن يكون برئاسة أول وفد رسمي من المملكة العربية السعودية يأتي لغرض زيارة المسلمين.

ولقد فهمت أن السلطات الرسمية السوفيتية، وإن شئنا العبارة الدقيقة في الحقيقة، قلنا إنها السلطات الروسية تلك السلطات تسر بوصول وفد رسمي من رابطة العالم الإسلامي لكي تستعمل ذلك لغرض الدعاية الإسلامية الداخلية عند المسلمين كما أنها ترحب بأي اتصال على أي

مستوى مابينها وبين المملكة العربية السعودية على رجاء أن يكون مقدمة لاتصال أوثق تجنى منه مكاسب تحقق من وراءها مطالب لم يتيسر لها أن تحققها حتى الآن ومن ذلك إعادة العلاقات السياسية بين المملكة العربية السعودية وروسيا التي كانت قائمة من قبل وأوقفت ولم تقطع رسميا بين البلدين بمعنى أنه لم يعلن أحد البلدين قطع تلك العلاقات.

ومع ذلك فإن رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة هي منظمة شعبية عالمية والادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي هي في تمويلها واغراضها منظمات شعبية وإن كانت تعمل داخل نطاق محدود الأركان من إرادة الإدارة السوفيتية الا أننا من جانبنا رأينا أن الغاية النبيلة تبرر الوسيلة المشروعة وأنه إذا كان رجال الإدارة في الاتحاد السوفيتي قد يستغلون زيارتنا لأغراض سياسية فإننا سوف نوظفها لأغراض إسلامية نبيلة. وهكذا كان.

فقد تألف وفد رابطة العالم الاسلامي لزيارة الاتحاد السوفيتي من ستة أشخاص هم :

رئيساً	محمد بن ناصر العبودي الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي
	(كاتب هذه السطور)
عضواً	الدكتور سعيد محمد باديب
عضواً	الأستاذ سالم بن عبد الله السالم الأمين العام المساعد للدعوة الإسلامية
عضواً	الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن بار
عضواً	الأستاذ عبدالرحمن بن رشيد بن عوين
أمين سر الوفد	الأستاذ رحمة الله بن عناية الله

وغادر الوفد إلى عمان عاصمة الأردن من اجل الحصول على سمات الدخول إلى الاتحاد السوفيتي من سفارته هناك حيث لا توجد له سفارة في بلادنا وكذلك من اجل الحصول على سمات الدخول إلى بولندا التي سنزورها بعد الاتحاد السوفيتي.

ووصلنا موسكو في يوم الثلاثاء السادس من رجب عام ١٤٠٦ هـ
المصادف للخامس عشر من ابريل ١٩٨٦ م.

وتجولنا في عدة مناطق من جمهورياته وفي مدن عديدة منها فكتبت عن
ذلك يوميات كنت قد اعتدت كتابتها عندما أزور بلاداً من بلدان المسلمين
لا تتوافر عنها المعلومات الكافية في بلادنا العربية وهي عادة أخذت بها
نفسي منذ أكثر من عشرين سنة فكانت ثمرتها تسعة وأربعين كتاباً من
كتب الرحلات وهذا الكتاب هو الموفي للخمسين أرجو أن ينال من القبول
مانالته الكتب التي قدمتها قبله أو أكثر من ذلك لكونه يتحدث عن بلاد
مجهولة بل بلاد منسية من بلدان المسلمين وهي بخارى وما وراء النهر الذي
يراد به نهر جيحون وهو المسمى الآن بنهر آموداريا الذي يكون الحدود ما بين
بلاد بخارى وبلاد الأفغان.

أما بقية الجمهوريات والمدن التي يقطنها المسلمون داخل الاتحاد
السوفيتي وهي خارجة عن تلك البلاد فإن لها حديثاً آخر بل أحاديث آخر
في كتاب عنوانه «زيارة للمسلمين في الاتحاد السوفيتي» وفي غيره.

لقد كنا طلبنا في السابق أن تشمل زيارتنا مدناً أكبر وعدداً أكثر من
الاماكن في بلاد بخارى وما وراء النهر. ومن ذلك مدينة بخارى بلدة
الإمام البخارى وترمز بلدة الإمام الترمذي وخوارزم التي هي خيوه في
الوقت الحاضر. وبلاد فرغانة التي كانت منتهى أرض الإسلام جهة الشمال
الشرقي كما كانت (غانة) هي منتهى أرض الإسلام فيما يقابل ذلك في
الجنوب الغربي.

ولقد تيسرت لي زيارة غانة فيما زرته من أقطار القارة الإفريقية،
وكتبت عنها فيما كتبت عن تلك الأقطار.

مع التنويه الذي هو من التحدث بنعمة الله علينا نحن المسلمين أن
الإسلام لم تقف حدوده عند هذين الحدين الواردين في عبارات بديع الزمان

الهمذاني في القرن الرابع الهجري بل تعدته إلى مملكة (سيبير) الإسلامية في سيبيريا التي قضى عليها الروس في عام ١٥٨٠م وإلى ما وراء غانة المذكورة جهة الجنوب من القارة الافريقية ومن أهم ذلك غينيا كونكري المسلمة فضلاً عن (سيراليون) التي تقع عنها ايضاً إلى الجنوب وهي بلد صارت وطننا إسلامياً لكون الأكثر من أهلها قد أصبحوا من المسلمين والله الحمد.

مع التنبيه إلى أن غانة القديمة ليست واقعة — جغرافياً — في اراضي جمهورية غانة الحديثة التي عاصمتها (اكرا) وكان اسمها قبل الاستقلال (ساحل الذهب) فقد سماها زعماء الاستقلال فيها وهم الدكتور قوامي نكروما ومن معه (غانة) تيمناً بمملكة غانة القديمة التي كانت قائمة مزدهرة وقت ان كانت القارة الأوروبية تتقاسمها إمارات لاتحسن الادارة.

وكانوا يردون بذلك على مزاعم بعض الأوروبيين الذين يجردون الافريقين من أي ماضٍ حضاري حتى فيما غبر من السنين.

وتقع عاصمة (غانة) القديمة على ضفتي نهر السنغال الذي كان اسلافنا العرب يسمونه «نيل غانة».

ولم نتمكن إلا من زيارة (طشقند) التي هي بلاد الشاش في كتبنا الجغرافية القديمة وسمرقند بلاد الأحداث العظيمة بل بلاد النبغاء من المحدثين والشعراء البلغاء وأماكن قريبة من هاتين المدينتين مثل بلدة خرتنك التي دفن فيها الإمام البخاري رحمه الله. ولكنني وجدت الحديث عن ذلك قد ألف كتاباً صغيراً ربما أخرجه عن صغره ثثرة في طبيعة كاتبه أو فصول في كتابه فصول عن أمور قد يعتبرها بعض القراء من نافلة القول. أو مما لا يستحق التحدث عنه. وإن كان غيرهم من جمهرة القراء لا يوافقون على ذلك. وهي طبيعة لا ينفك عنها الكاتب وإن حاول ذلك — والطبع يغلب اتطبع — كما قال أسلافنا الأقدمون.

وارجو معذرة القارئ الكريم عما يلاحظه من كون الكتاب ليس دراسة شاملة مستفيضة عن أحوال تلك البلاد (بخارى وما وراء النهر) التي هي بلاد واسعة واقعة تحت نظام شيوعي إلحادي

ولكوننا في زيارة رسمية مرسومة السير، محددة الوقت بل حتى المعلومات التي نحصل عليها بالاطلاع الشخصي أيضاً محدودة النوع.

لذلك اجتهدنا في الاستخبار عما لم نشاهده وقسناه على ما شاهدناه فجاء الكتاب في رأيي كتاباً حاوياً لمعلومات جديدة قد تكون مفيدة لأنها معلومات ميدانية تشمل نواحي عديدة من نواحي الحياة ولو كان لنا من الوقت والقدرة على التصرف في الأمر لرأيت في هذا الكتاب ما لم تره في غيره فهو اذاً جهد المقل، والبضاعة المزجاة، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، والله المستعان وعليه التكلان^(١).

محمد ناصر العبودي

مكة المكرمة

(١) كتب هذا الكتاب قبل تطبيق سياسة إعادة البناء (البروستريكا) والمصارحة (جلاسنوست) التي نادى بها الرئيس جورباتشوف ثم طبقها في الاتحاد السوفيتي أثمر تغييراً واضحاً إلى الأحسن بالنسبة للمسلمين وغيرهم وقد ذكرت أثر ذلك على المسلمين في كتب لي كتبها في عام ١٤١٠هـ (انظر الدراسة في آخر هذا الكتاب).

وقد شغلنا ونحن ستة مقاعد الدرجة الاولى وبقي اثنان شغل أحدهما رجل روسي والآخر شغله أخ عراقي كبير القدر لذلك كان الكلام كله في هذه الدرجة الأولى المتجهة إلى موسكو عربياً ولا تسمع فيه غير العربية شيئاً لأن الشخص الروسي الموجود فيها لم يتكلم مع احد.

وكانت هذه أول مرة ارى فيها ركاباً مميزين بالدرجة في الطائرات السوفيتية ومن اهل البلاد ثم رأيت القطار الجيد من قطاراتهم فيما بين (لينين قراد) وموسكو فيه اربع درجات وقد ذكرت ذلك في كتاب «زيارة المسلمين في الاتحاد السوفيتي».

الروس والسوفييت :

حديثنا في هذا الكتاب عن منطقة واقعة في الاتحاد السوفيتي وقد اختلفت طرائق المتحدثين عنها في بلادنا فن الكتاب من يسميها بلاد الروس ويسمى أهلها بالروس ومنهم من يسميها بلاد السوفييت وعلى ذلك يسمى أهلها بالسوفييت أو السوفيتية وبعض الناس لا يفرقون بين التسميتين وقد يستعملون واحدة منها آناً وأخرى آناً آخر في كلام لهم واحد مع ان الفرق بينهما كبير في المعنى وإن لم يكن كذلك حقيقة.

فالبلاد الروسية تعني بلاد الجنس الروسي اي الشعب الذي ينتمي إلى العنصر الروسي وهو شعب تقع بلاده الأصيلة في الشمال الغربي من المنطقة التي نتحدث عنها وهي كذلك واقعة في الدولة نفسها: دولة الاتحاد السوفيتي.

وكانت بلاد الشعب الروسي منطقة محدودة بالنسبة إلى ما عليه الإتحاد السوفيتي في الوقت الحاضر. وكانت تخضع لنفوذ المسلمين البلغار بين الذين أسماهم الروس بالتتار لكون بعضهم جاؤا مع حفيد جنكيز خان ولحقهم هذه التسمية حتى الآن وعاصمة بلادهم في الوقت الحاضر هي

(قازان) ويسمون بلادهم بجمهورية (تتارستان) وكان أوائلهم موجودين في المنطقة قبل جنكيز خان وهولاكو بقرون.

ولكنهم لا ينحسرون في هذه الجمهورية بل هم موجودون في مناطق متعددة من الاتحاد السوفيتي كان لهم أكثر نهر (الفولجا) الذي يسمونه بلغتهم نهر (ايدل) — بالبدال وهو في كتبنا العربية القديمة التي لانقرا أكثرها مع الأسف نهر (إيتل) — بالتاء — ولو كنا نقرأها لأسميناه بايتل ولم نسمه بنهر الفولجا.

وعلى أية حال فإن الكلام عن هذا الشعب البلغاري العظيم الذي اختار الدين الاسلامي ديناً طوعية من دون حرب أو غزو وبقي متشبهاً بسلامه حتى الآن رغم المحن والكوارث التي حلت به ليس هذا محله.

والمقصود هنا هو بيان المصطلح الذي سنسير عليه عند ذكر بلاد الاتحاد السوفيتي.

وكانت روسيا التي هي بلاد الروس خلال حكم القيصرية قبل قيام الثورة الشيوعية تجهر بصراحة وعلى رؤس الملائ بأنها دولة قيصرية تسيطر على بلاد شاسعة واسعة من بلدان أقوام أخرى ومنها شعوب تقطن بلاداً مترامية الأطراف مثل بلاد بخارى وماوراء النهر وتخضعها لحكمها بالقوة.

وعند ما قامت الدولة الشيوعية أرادت التقرب من الشعوب التي كان يحكمها القيصرية فأظهرت لهم ان الشعب الروسي نفسه كان مقهوراً مغلوباً على أمره من القيصرية وأنهم إنما ثاروا عليهم من أجل الشعوب التي تقيم في القيصيرية الروسية كلها.

ولكي يبرهنوا على ذلك من ناحية الشكل قسموا البلاد إلى جمهوريات صغيرة نوعاً ما حسب قوميات السكان أولغاتهم أسموا بعضها بجمهوريات مستقلة داخل الاتحاد السوفيتي أو جمهوريات اتحادية.

وأسموا بعضها جمهوريات متمتعة بالحكم الذاتي داخل احدى الجمهوريات المذكورة التي أسموها اتحادية ونعتوها بالمستقلة.

وما هي بجمهوريات مستقلة ولكنها أقاليم محكومة من قبل الشيوعيين كما كانت قد استعمرت من قبل القياصرة من الروسين.

وخلعوا عليها كما خلعوا على بلادهم كلها اسما عاما هو الاتحاد السوفيتي الذي يعني بالترجمة الحرفية الاتحاد الشورى فالسوفييت معناها الحرفي الاستشاريون والجمهوروية السوفيتية من هذه الجمهوريات هي جمهوروية سوفيتية أي شوروية بمعنى أن الأمر فيها هو شورى بين أهلها وهو شورى فيما بينها وبين الجمهوريات الأخرى داخل الاتحاد السوفيتي.

هذا هو المدلول اللفظي للكلمة وإن كان في الحقيقة من باب نسمية الشئ بنقيضه، إلا إذا كانوا يريدون بالشورى الشورى بين الحاكمين الشيوعيين بغض النظر عن المحكومين من سائر الناس الذين يمثلون الاكثرية فإن هذا قد يكون له نصيب من الحقيقة.

حكم الأقلية :

لا أدل على بطلان كلمة الشورى التي يدل عليها لفظ (سوفييت) من كون الشيوعيين حسب احصاءاتهم الرسمية أي الاحصاءات التي تصدر عن الشيوعيين أنفسهم هم أقلية قليلة ان لم نقل ضئيلة نسبياً ومع ذلك يحكمون، بل يتحكمون بالأغلبية الساحقة من سكان البلاد من غير الشيوعيين.

فقد كان الشيوعيون يعلنون أن عدد أعضاء الحزب الشيوعي يبلغ خمسة عشر مليوناً من مجموع سكان الاتحاد السوفيتي الذي كان يبلغ ٢٥٠ مليوناً وعندما ارتفع عدد السكان في البلاد حتى بلغ في آخر احصاء مائتين واثنين وسبعين مليوناً أعلن الحزب الشيوعي — أبان انعقاد المؤتمر السابع والعشرين له الذي انعقد قبل أشهر وهو آخر مؤتمر له انعقد حتى الآن أن

عدد اعضائه بلغ تسعة عشر مليوناً ومائة ألف شخص.

فاذا نسبنا هذا العدد وحتى لو أوصلناه — مبالغة — إلى عشرين مليوناً تكون نسبة الشيوعيين إلى سكان البلاد حوالي ٧٪.

فأي شورى في أن تحكم هذه الأقلية الضيئلة الكثرة الكاثرة من الشعب؟

وكيف ترضى الأكثرية عن ذلك لو أن الحكم كان في حقيقته حكماً شورياً أو بالمعنى الحديث المفهوم ديمقراطياً.

وهذا امر واضح في ميدان المقارنة بالأكثرية والأقلية. ولكن حتى داخل الأقلية الشيوعية هذه فإن الأمر فيها هو أبعد ما يكون عن الشورى فاللجنة المركزية هي التي تقرر كل شئ في الحزب ومن عداها من الاشخاص واللجان لا يستطيعون ان يقرروا شيئاً في أي موضوع مهم كما هو معروف للجميع.

ولو نظرنا إلى هذه الاقلية الشيوعية ووزناها بميزان القياس والمنطق لقلنا إن أكثر من النصف فيها ليسوا شيوعيين عقائدين بمعنى أنهم أنضموا للحزب الشيوعي من اجل الحصول على المناصب ومن اجل الوصول إلى الامتيازات التي لا يصل إليها إلا من انضم إلى الحزب الشيوعي وعلى هذا يكون عدد الشيوعيين الملتزمين أقل من ذلك بكثير وهو ينزل بأقليتهم هذه إلى أقل من الأقلية أو يزيد لها قلة على قلة حتى الوظائف المهمة لا يشغلها الا أعضاء الحزب.

وعلى اية حال فاننا نأخذ الأمر على ظاهره ونقول: إن عدد أعضاء الحزب الشيوعي هو كما اعلنوه تسعة عشر مليوناً ونيف فأين هو من مجموع عدد السكان الذي يبلغ مائتين واثنين وسبعين مليوناً من النفوس؟

واما الشورى التي تدل عليها كلمة (السوفيت) فإنها لم تطبق مطلقاً. ولم يحدث ان استفتى الشعب استفتاء في أية مسألة هامة فضلاً عن أن يستفتى في كيفية نظام الحكم او في المسائل الاساسية في الدولة ولا بد أن يكون المراد بالاستفتاء هو الاستفتاء الحر النزيه.

ونعود إلى العنوان الذي قصدنا منه التعريف الذي سرنا عليه وهو أن نقول البلاد السوفيتية أو الشعب السوفيتي أو الأمر السوفيتي لأن ذلك يدخل تحته جميع الشعوب التي تقطن في دولة الاتحاد السوفيتي على حد اصطلاحهم وهو اصطلاح فيه كثير من الحقيقة الواقعة التي تتمثل في أن الشعوب التي تقطن الاتحاد السوفيتي هي متعددة الأصول ومتباينة العناصر واللغات بل حتى الألوان.

ولتوضيح الأمر نقول: إنك لو قلت لأحد الأشخاص من سكان جنوب الاتحاد السوفيتي أو وسطه: ياروسي لاستنكر ذلك وإذا كان مسلماً فإنه يستفظعه لأن معنى ذلك كمعنى من يقول له يا كافر ثم ان الجميع من الشعوب التي تقطن الاتحاد السوفيتي هي تكره سيطرة العنصر الروسي التامة عليهم في الوقت الحاضر حتى المسيحيون من غير العنصر الروسي يكرهون ذلك، ولكن الجميع مجبرون حتى على عدم الشكوى لأن الحكم الشيوعي للاتحاد السوفيتي هو صارم بل عات والعقاب أشد صرامة وعتوا.

ولذلك يقبل سائر الشعوب التي تقطن الاتحاد السوفيتي أن يقال لهم سوفيت رغم كونهم يكرهون ذلك و يعرفون أنه ذو معنى فارغ من حقيقة الشورى غير أنه أهون وقعا في نفوسهم من نعتهم بأنهم من الروس.

ذلك لأن هذا يخالف الحقيقة ولأنهم يكرهون سيطرة الروس ولهذا سوف نسير على تسمية البلاد بالسوفيتية الا اذا كان الأمر يتعلق بالاخوة المسلمين خاصة فاننا ننسبهم إلى نسبتهم الحقيقية.

وخير تسمية للاخوة المسلمين في المنطقة التي سنتحدث عنها في هذا الكتاب هي (البخاريون) فقد عرفناهم في بلادنا بهذه التسمية وان كان بعضهم يرى ان كلمة (تركستانيين) اصدق منها فانها اوسع منها بكثير فهي تشمل سكان تركستان الشرقية التي يحكمها الصينيون في الوقت الحاضر وسبق أن زرتها وكتبت عنها كتاب (في مهد الترك).

نعود إلى الكلام على الطائرة السوفيتية فنقول :

إن الدرجة الأولى في هذه الطائرة السوفيتية هي أقل من مستوى درجة (رجال الأعمال) التي توجد في الطائرات العالمية والخدمة فيها اقل من ذلك بكثير.

ولم يكن في جيوب المقاعد في الطائرة شيء من الايضاح عن نوع الطائرة أو من الأوراق المتعلقة بالسلامة في حالة الطوارئ كما يكون في شركات الطيران في العالم الحر من المنشورات فاننا لم نجد الانشرة صغيرة باللغة الروسية لاندري محتواها ثم وزعت المضيئة علينا نشرة اسمها (اخبار موسكو) وفيها طبعة عربية تضمنت أخباراً سياسية مختصرة وتعليقات على بعض الامور التي حصلت في موسكو.

وقد توجهت الطائرة إلى مطار لارنكا في قبرص واعلنوا ان الطيران إليه سيستغرق ساعة وخمس دقائق اخبرني بذلك الأخ العراقي لأن اعلان المضيئة كان بالروسية ثم بالالمانية وهو يعرف الالمانية لأنه درس هناك.

أما الانكليزية فلم يبدأ الاعلان بها الا بعد مغادرة مطار لارنكا إلى موسكو حيث تغير ملاحو الطائرة.

وكانت المضيئة وهي روسية أصيلة يبين ذلك من استدارة في وجهها وحمرة في لونها وغلظ في تقاسيم خلقها قد قدمت الشراب في أكواب صغيرة قبل الإقلاع وكان فيه خمر لم يقرها من ركاب الطائرة احد إلا الراكب الروسي الوحيد في الأولى وفيها ماء معدني قليل وعصير ليمون قليل ايضاً.

ثم كانت الضيافة بعد الاقلاع فنجانا من الشاي أو القهوة وقليلًا من (البسكويت) وحنة من الحلوى (الشيكولاته) عندما عفتها أصرت المضيفة على أن آخذها قائلة: إنها (قود قود) أي جيدة فأخذتها.

في مطار لارنكا :

بعد زهاء ساعة من الطيران كانت الطائرة تحوم فوق ساحل البحر في قبرص وقد يقال: إن التعبير عن الساحل أو الشاطئ في قبرص لاعمى له لأن الجزيرة صغيرة بحيث أن الطائرة إذا كانت محلقة في الجو فإنها ترى سواحلها كلها وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت قادماً من جنيف إلى بيروت في عام ١٣٩٢هـ أي منذ أربع عشرة سنة وعندما مررنا فوق قبرص أعلن الطيار ذلك للركاب وكان الوقت ظهراً فبانت الجزيرة تحتنا وكأنها البساط الممدود فوق مياه البحر.

وذلك كله قبل أن تنقسم قبرص إلى يونانية وتركية فيزيدها ذلك صغراً إلى صغروا لم يغير من منظرها من الطائرة.

وقد ظهر لنا الشاطئ من الطائرة صخريا لاجمال فيه وحتى الخضرة البرية فيه ليست شاملة رغم كون الفصل الآن هو فصل الربيع.

والزراعة هنا شاملة حتى غير الأراضي المستوية.

ثم هبطت الطائرة في الساعة الرابعة الا خمس دقائق بتوقيت عمان التي اقلعنا منها وهو مساو لتوقيت المملكة لأن هذا هو الوقت الصيفي عندهم وبقينا في قاعة العابرين في المطار وهي حافلة بالركاب لأن مطار لارنكا هو المطار الرئيسي لقبرص التي تعتبر نفسها جزيرة سياحية وتسهل لذلك ما استطاعت.

وقد تجولت في الحوانيت الموجودة فيها والتي تعلن أن بضائعها معفاة من الرسوم ولكننا وجدنا أسعارها أغلى منها في أسواق المملكة.

وذلك حين اشترينا فيها شرائط للمصورات.

من لارنكا إلى موسكو :

قامت الطائرة من مطار (لارنكا) قاصدة موسكو في الساعة الخامسة والنصف عصراً وعلنت مضيئة جديدة فيها ان المسافة إلى موسكو هي الفان وتسعمائة كيلو متر ستقطعها الطائرة في ثلاث ساعات ونصف.

وكان الإعلان هذه المرة بالروسية بعدها الانكليزية.

أما الضيافة فكانت صحناً صغيراً من السلطة وآخر فيه بعض الخضرات المطبوخة وقليل من البطارخ وهو الكافيار الروسي الشهير الذي هو بيض سمك خاص يوجد في بحر قزوين وصحن آخر فيه لحم بقري غير طازج وقليل من الأرز ثم الجبن والفاكهة التي اخذوها من قبرص.

واما الشراب فإنه الماء المعدني وعصير الليمون وليس عندهم عصير برتقال كما أخبرونا.

وكانت الطائرة قد ارتفعت حتى لم نعد نميز وجه الأرض تميزاً واضحاً الا أننا مررنا بجبال تجل همامتها الثلوج.

ودخلت حمام الطائرة الذي هو خاص للدرجة الأولى فوجدته في مستوى الحمام في بيت الفلاح الجيد او الحضري الفقير فالحوض من المعدن غير اللامع والمرحاض خشن نوعاً ما والورق قاسي اللمس، وهناك فوطه معلقة، بجانب الحوض يمسح فيها الركاب أيديهم بصورة جماعية اي كل من دخل الحمام مسح يده فيها، وليست هناك مناديل ورقية منفردة كما يكون عليه الأمر في الطائرات العالمية التي تكون فيها تلك المناديل حتى في حمامات الدرجة السياحية.

كما أن المضيئة لم تقدم لركاب الدرجة الأولى المناديل المعطرة الحارة التي صارت تقدم لركاب الدرجة الأولى وفي بعض البلدان مثل البرازيل

تقدم حتى لركاب الدرجة السياحية ثم قدمت المضيضة هدية ركاب الدرجة الأولى وهي تحفة من الفخار في حجم البيضة ولم تكن قدمت شيئاً فيما بين عمان وقبرص.

ثم أعلنت المضيضة أن درجة الحرارة في موسكو الآن هي صفر مئوي وأعدت ذلك لأجل أن يأخذ الركاب أهبتهم للبرد.

كما أعلنت أن الوصول إلى موسكو سيكون في التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين بتوقيت موسكو الصيفي الذي بدأ في شهر ابريل الحالي وهو يتقدم ساعة واحدة عن توقيت المملكة الذي هو التوقيت الصيفي في الأردن.

في مطار موسكو :

كان قد خيم ظلام دامس على الأرض لسبب حلول الظلام وبسبب آخر وهو كثافة السحب فقد أعلنت المضيضة ان الجو في موسكو غائم وماطر.

ولذلك لم نتبين قبل الوصول إل المنطقة من معالمها شيئاً ماعدا انواراً يظهر أنها تجمعات سكنية او قرى وهى لا تدل بمجموعها على الرفاه أو السخاء في الإنارة وهى خارج المدينة.

ثم هبطت الطائرة في المطار واسمه مطار شرميتوفو الثاني وذلك في الساعة الثامنة والدقيقة الثانية والثلاثين بتوقيت الأردن و يوافق التاسعة والدقيقة الثانية والثلاثين بالتوقيت الصيفي لمدينة موسكو بعد طيران استمر ثلاث ساعات وبضع دقائق.

وأعلنت المضيضة أيضاً بعد النزول أن درجة الحرارة في موسكو هي صفر مئوي وهي درجة متدنية بالنسبة لما اعتدنا عليه في الأردن التي كان الجو فيها ربيعياً معتدلاً وبالنسبة إلى المملكة التي كان الجو فيها حاراً.

ولم يكن يبين من المطار في هذه الساعة من الليل الا مايبعده عن
الفخامة وماقد يتنافى مع ما في ذهن القادم الذي يعرف انه قادم إلى
عاصمة دولة عظمى ويظن أن مطارها يكون في مستوى الدولة من العظمة
والقوة فحتى الأنوار تبدو متواضعة في أي إتجاه وجه الناظر نظره إليه.

ومن المريح ان الطائفة قد ألقيت باب دهليز متحرك او لنقل كمّا
متحركاً فاعفانا ذلك من التعرض لهذه الدرجة الشديدة من البرودة.

وعند باب الدهليز مماليي المطار وجدنا عدداً من المستقبلين المرحبين منهم
الدكتور شمس الدين ضياء الدين بابا خانوف مدير الادارة الدينية لآسيا
الوسطى وقزاقستان ورئيس مكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية
والشيخ طلعت تاج الدين مدير الادارة الدينية للقسم الأوروبي وسيبيريا
والحاج عبدالغني عبدالله نائب رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى
وفازا قستان والحاج محمد صادق محمد يوسف نائب مدير معهد الامام
السبخارى والحاج عبدالعزيز فتاح نائب رئيس مكتب العلاقات الخارجية
للادارات الدينية الإسلامية والسيد شامل قادر غول المستشار الأول في
مكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية ورجل روسي يعرف العربية
كان أكثر مايتحرك من جسمه عيناه فهو صامت. قدمه لنا الدكتور شمس
الدين على أنه السيد فلان أناتولي دوب كوف مدير قسم العلاقات الخارجية
في مجلس الأديان التابع لمجلس الوزراء السوفيتي.

وقد انتقلنا إلى داخل المطار عبر سلم معتاد يكون في العادة في امثال
هذا المطار كهربائياً متحركاً.

ثم قادنا إلى قاعة كبار الزوار في المطار وهى كبيرة تتناسب مع حجم
هذا المطار الدولي وجدنا فيها غيرنا وكنا نتحدث العربية مع مستقبلينا الذين
كلهم يفهم العربية. فنقلونا إلى غرفة خاصة من غرف كبار الزوار.

وعند مدخل الغرفة كان هناك عدد من الاخوة المسلمين العاملين في

الادارات الدينية فجلسنا معهم جلسة طيبة بينما كان الموظفون يسعون في تخليص الجوازات والأمتعة وهي كثيرة تضمنت غير الأمتعة الشخصية طروداً بلغ عددها ثمانية وعشرين طرداً دفعنا لحملها على الطائرة السوفيتية في عمان أربعة آلاف دولار أمريكي بمثابة الأمتعة الزائدة وتتضمن مصاحف مذهبة فاخرة الطباعة طبعت في المدينة المنورة وسجاجيد للصلاة وساعات للهدايا وتمراً من تمر المدينة المنورة للاهداء منه ايضاً. وكذلك عبااءات عربية خفيفة (مشالغ) مقصبة.

وجاءت مضيضة أرضية بالقهوة ثم الشاي.



الاستراحة في مطار موسكو عقب الوصول مباشرة

ولم نشعر بالبرد في المطار لأنه مدفاً وكان المطر ينزل والبرق يلمع وقال لنا إخواننا من باب المجاملة لقد اتيتم بالربيع معكم: فقلنا لهم: أين الربيع ودرجة الحرارة هي صفر؟ فأجابوا إنها كانت قبل ذلك أدنى من الصفر ولكن ذلك ليس بالمهم وإنما المهم أن المطر الذي يأتي مع البرق والرعد هو مبشر بقدوم الربيع لأن المطر في الشتاء ينزل ثلجاً في أكثر الأحيان وإذا نزل مطراً فإنه لا يكون معه برق ورعد الا إذا دخل فصل الربيع أو قرب حلوله.

في مدينة موسكو :

بعد قضاء فترة في قاعة كبار الزوار جاء من أخبرنا بأن كل شئ قد انتهى وان أمتعتنا الكثيرة قد جرى شحنها إلى الفندق غادرنا القاعة نازلين على سلم آخر مرتفع وليس آلياً أيضاً.

وجدنا السيارات أمامنا وقد خصصوا لي سيارة رسمية سوداء اللون طويلة تخصص عادة لرؤساء الجمهوريات عندهم وتقدم للضيوف الكبار من الوزراء ومن في حكمهم في العادة كما أخبرني اخواني به.

كما خصصوا للاحوة أعضاء الوفد سيارة معتادة لكل اثنين منهم ومعهم واحد من المرافقين وركب معى الشيخان شمس الدين بابا خانوف وطلعت تاج الدين.

ويبعد المطار عن الفندق الذي نقصده مسافة ثلاثين كيلو متراً وهو مطار واحد من ثلاثة مطارات في موسكو بعضها مخصص للطيران الداخلى وهذا الذي هبطنا فيه هو المطار الدولي.

وصل موكب السيارات إلى شوارع موسكو بسرعة لأن العمارة تكاد تلحق بالمطار وليس بينها وبينه كبير فراغ.

ورأيت في الشوارع أعداداً من السيارات لم أكن أظن وجودها في هذه الساعة من الليل وان كانت قليلة بل أقل من القليلة في مقياس العواصم الكبرى غير أنها في دولة شيوعية لا تتيح لشعبها التمتع بالكماليات بل كثير من الضروريات في سبيل أن توفر ذلك لما يكسبها القوة والمتعة أو لمجرد أن نظامها الشيوعي لا يسمح بذلك هي كثيرة لاسيما إذا قارنتها في ذهني بالسيارات التي تكون عادة قليلة في مدن الصين الشيوعية.

ومررنا بمناقع من ماء المطر في بعض الشوارع ومنها واحد تجنبه الموكب ليتفاداه وكان المطر لازال ينزل رذاذاً متقطعاً.

أنزلونا في فندق (سوفيتيكايا) ومعناها السوفيتي فكايا هي كياء النسبة في العربية ويقع في شارع (لينين قراد) على بعد كيلو متر واحد من الساحة الحمراء الشهيرة.

وهو اشبه بالقصر العظيم من قصور الأمراء القدماء إذ هو عالي الأسقف واسع الممرات رحب الأبهاء كبير الغرف وقد ظننت انه كان قصراً من قصور النبلاء في القديم غير أنني عرفت بعد ذلك انه كان قد بني قبل الشيوعية بزمان ليكون فندقاً فخماً ينزل فيه الوجهاء والأثرياء وأصبح بعد الثورة أحسن فندق في موسكو واخبروني ان (ستالين) طاغية روسيا السابق كان ينزل فيه ضيوفه. وأنزلوني في جناح تألف من غرفة للنوم وغرفة للطعام تفصله عنها قاعة للجلوس وفيه حمامان وعدد من الخزائن.

ولما قلت لهم : ان هذا الجناح هو أكبر مما احتاجه وكان في ذهني مالم أقله لهم عن ضيق المساكن في موسكو قال لي الاخوة في الادارات الدينية: أنت رئيس الوفد ولن تقيم فيه أكثر من ليلة واحد.

كما انزلوا الاخوة كل واحد في غرفة واسعة.

ووجدتهم وضعوا على مائدة الأكل بعض المأكولات الخفيفة التي لم تكن بحاجة إليها لأننا كنا قد تعشنا في الطائفة فيها اللبن المخيض المنزوع الزبدة وزجاجة من شراب البرتقال وماء معدنى وفاكهة أهم مافيه التفاح الذي تنتجه بلادهم وبرتقال مستورد وجبن وخبز. وقالوا: وضعنا هذا لأن المطعم قد أغلق. وكنا وصلنا الفندق في الحادية عشرة.

وقد ودعنا الاخوة المستقبلون على موعد اللقاء غداً في التاسعة من أجل تناول الفطور والبحث في برنامج الزيارة وسيكون ذلك — كما قالوا — في مكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية.

وقد تجولت في هذا الجناح بعد خروجهم فاسترعى انتباهي ان التلفاز الذي فيه وهو كبير الحجم كان خالياً من أي برنامج وذلك بعد الساعة

الثانية عشرة بقليل كما كان فيه جهاز للاستقال (راديو) كبير من الذي كنا نعرفه قبل ربع قرن ونسيناه.

وفي احد الحمامين الموجودين فيها مرآة على الباب في الداخل إذا اغلقت الباب انعكست صورتك على المرآة المعتادة الموجودة فوق مغسلة الأيدي فرأيت فيها قفاك بسهولة وأما الأثاث فان كل شئ فيه ينطق بالقدم والمحافضة على التقاليد ولكنه لاينطق بالذوق المترف الذي يتسم به الأثاث القديم في فرنسا مثلاً.

وشئ آخر وهو عدم الإسراف او لنقل الاقتصاد في كل شئ فمثلاً يوجد في الغرفة سريران ولكن كل واحد منها ضيق اي لاعراض له كافيا وما أذكر أنني رأيت مثله في الضيق في فندق من فنادق الدرجة الثانية في بلدان الحرية الاقتصادية ولقد اشفقت من ضيقه بي وعجبت من وجوده هكذا مع أن القوم تغلب الضخامة والعرض على اجسامهم بالنسبة إلى جسمي.

وأما الغطاء فإنه بطانية صوفية غليظة قد وضعوها في غلاف من القماش الأبيض النظيف وجعلوا فيما يلي جسم النائم منه فتحة يطل منها وسط البطانية يدخل منها النائم رجله حتى يثبت عليه غطاؤه الذي هو ضيق أيضاً وثقليل بحيث اذا لم يفعل ذلك فإنه يتزلق عنه مع ضيق السرير وإذا حدث ذلك في شتاء هذه البلاد الباردة كان الضرر مؤكداً وأما أرض الغرفة فإنها مفروشة بشيء رديء من السجاد الموحد (الموكيت) فوق أرض خشبية كاملة وقد وضعوا في غرفة الجلوس وفيما بين السريرين سجادة صغيرة.

وتقع الغرفة في الطابق الثاني وفيه كما في كل طابق امرأة جالسة مسئولة عنه عندما احضرنا لها ورقة النزول من موظفة الاستقبال في الفندق طبعها بختم عندها واعطتنا المفتاح.

وهي لاتعرف الانكليزية بل لاتعرف منها شيئاً وهذا أمر شائع بل هو القاعدة عندهم ان يكون الموظفون في هذه الفنادق التي ينزلها الاجانب

لا يعرفون الانكليزية كما تكرر ذلك فيما بعد.

وقد وضعت المرأة وهى الوحيدة من العاملات في الفندق اللاتي رأيتهن في هذه الليلة في سن الشباب اما الأخريات فكلهن من الشخات الثقيلات وضعت هذه المرأة أرقام الغرف في لوحة صغيرة على مكتبها فإذا جاءها النزيل أشارت إلى هذه اللوحة طالبة بالاشارة ايضاً أن يضع أصبعه على رقم غرفته فتعطيه مفتاحها.

يوم الأربعاء ٧ رجب ١٤٠٦ هـ ١٦ ابريل ١٩٨٦ م

صحوت مبكراً ورأيت الأفق مسفراً قبل ان تطلع الشمس بوقت طويل وذلك شأن البلدان الشمالية في الربيع والصيف.

وأزحت ستارة النافذة في الساعة والنصف على جو غائم فكان المشهد لأرصفة الشارع غير البهيجة، ولطائفة من الناس يسرون مسرعين إلى اعمالهم يحملهم على السرعة شدة البرد وأحمال الثياب التي يرتدونها ويريدون التخلص منها عندما يدخلون الأبنية ولم استطع أن أتبين وجوههم لأن كل واحد منهم يضع على رأسه غطاء كثيفا ويلف حول رقبته (لفاعاً) وهو المنديل الصوفي غير العريض الذي يلف حول العنق للوقاية من البرد.

وأمام النافذة ميدان صغير تقف فيه عدة سيارات مطلية بألوان متعددة ليس منها اللون الأحمر الذي هو اللون المفضل للشيوعية بل بعضها صفراء وخضراء وكلها صغيرة تشبه الفيات الايطالية.

بل هي الفيات في الأصل صنعها الروس في بلادهم.

وأما الاسفلت في هذا الميدان وفي الشارع فانه معتاد بمعنى أنه غير جيد ولا رديء والأرصفة عريضة وفيها الأشجار المتصلة غير أنها كلها هامة فلا ترى فيها ورقة خضراء بل هى لم تستيقظ بعد سبات الشتاء العميق الطويل.

وقد قال لي الأخوة من اهل طشقند هذا الصباح ان هذه الأشجار سوف تورق بعد أسبوعين وهذا بالضبط ما كان قد قاله إخوان لهم في أرض شقيقة لهم تركستان الشرقية عندما كنت فيها في منتصف أبريل قبل سنتين اى في مثل هذا الوقت بالضبط وكنت رأيت الأشجار التي في عاصمتها (اورمسي) كلها هامة كهذه كأنها لا ترجو نشوراً: إن هذه الأشجار سوف تورق بعد اسبوعين اي في آخر أيام ابريل. وحدث ذلك بالضبط وان كانت عاقته عن الاسراع في الاخضرار عاصفة ثلجية هبت على المدينة ونحن فيها من تلقاء سيبيريا.

ومن بين الأشياء الملفتة للنظر من النافذة منظر جندي حاد النظرات منتظم الخطوات لايفتأ يتردد في الشارع أمام باب الفندق ولا يقف أو يكف عن الحركة مطلقاً.

مقر مكتب العلاقات الخارجية :

والمراد به هنا مقر العلاقات الخارجية للادارات الدينية الأربع في الاتحاد السوفيتي وليس مقر العلاقات الخارجية للدولة.

والادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي تمول نفسها من تبرعات المسلمين، ولا تساعد الحكومة السوفيتية بل العكس هو الصحيح فهي تساعد المجلس السوفيتي للسلام والصدقة بما يفيض لديها من نقود لا بد من ان تودعها في حسابها في المصارف وكل ذلك من تبرعات المسلمين وصدقائهم حتى نفقات استقبال الضيوف الأجانب مثلنا كلها تكون بنفقة المسلمين.

عندما نزلنا إلى قاعة الاستقبال الواسعة في الفندق استرعى انتباهي في هذا الصباح ما كنت لاحظته بالأمس وهو ان الفراشات اللائي يعملن في الفندق هي من الروسيات الثقيلات الأجسام حتى لاحظت أن واحدة منهن

مسنة كانت لاتكاد تحمل نفسها ولا تستطيع ان تقف وقوفا منتظما وهى
تجاهد في أن تؤدي عملها في التنظيف.

ذهب الموكب إلى مكتب العلاقات الخارجية فاستقبلنا فيه الدكتور
شمس الدين بابا خانوف وكانت مائدة الإفطار جاهزة وقد ملئت بمالد
وطاب من الأكل وكان فيه نوعان من البطارخ وهو الكافيار الروسي الشهير
الأسود اللون الذي يبيضه سمك موجود في بحر قزوين ونوع آخر أحمر من
بيض سمك السلمون وفيها من المآكل الباردة المقدمات للمائدة لسان البقر
وسمك صغار كالسردين ثم ماشئت بعده من إفطار جيد مرجعه الى انه من
مال المنظمات الاسلامية التي تجمعها الإدارات الدينية الأربع حيث يوجد
في هذا المكتب ممثل لكل ادارة من الادارات الدينية الأربع، ورئاسة هذا
المكتب دورية بين الإدارات الدينية المذكورة.



طعام الإفطار في مكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية في موسكو

وحتى القاعة التي جرى فيها الإفطار قد زخرفت وزينت باشكال
هندسية اسلامية عريقة مستوحاة من النقش والزخرفة العريقة في البلدان
الإسلامية في تركستان الغربية التي لاتكاد تسمع من يذكر لك عن اسمها

هذا شيئاً فهم اما ان يسموها وسط آسيا السوفيتية أو يسمونها بأسماء الجمهوريات التي قسموهم اليها حسب أعراق القوم ولغاتهم.

وحتى الذين هم من اصول واحدة ولغاتهم ترجع إلى لغة واحدة كالتركستانيين الذين هم من الا تراك جاؤا إلى تلك البلاد في منطقة بخارى وما والاها شمالاً وغرباً واختلطوا بأبناء عمومة لهم كانوا قدموا إليها قبلهم فان الحاكمين قسموهم إلى أقسام من أجل تفتيت روح الوحدة لديهم ولابقاء الانقسام بل ترسيخه وتعميقه في نفوسهم.

وفي هذه القاعة ركن من الفسيفساء الجميلة المعروفة في منطقة بخارى وسجاد فاخر كتبت عليه آيات قرانية كريمة ونسج من أجل تعليقه هنا. وحتى سقف القاعة زين بالنقوش المعروفة عند المسلمين في تلك البلاد اي منطقة بخارى من أيام مجدها وعزها ويقع المقر المذكور في وسط مدينة موسكو وقد بني في زمن الغزو الفرنسي لروسيا الذي قام به نابليون وقد استأجروه من الدولة.

وخلال تناول الطعام وكانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف جرى النقاش في برنامج الزيارة فوجدنا القوم قد وضعوه قبل وصولنا وقالوا لنا بأدب: إن هذا هو ما وضعناه ويمكنكم أن تراجعوه اذا أردتم.

وقد حمدنا لهم كونهم أجلوا البقاء في العاصمة موسكو إلى آخر الزيارة كلها لأن ذلك سوف يعفينا من البقاء في هذا الجو الشديد البرد وقرروا السفر إلى طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان بعد قليل.

ووجدناهم قد حملوا امتعتنا الثقيلة معنا الآ شيئاً قليلاً كنا خصصناه للمسلمين في بولندا من المصاحف والهدايا الأخرى.

وقد أبدينا لهم تخوفنا من أن تطلب الشركة نقوداً باهظة على حمله فأجابوا ان ذلك غير مشكل لأن كل شيء مرتب ومهيأ لتحمله الادارات

الدينية حتى تذاكر سفر الوفد في جولته داخل الاتحاد السوفيتي.

ثم غادر الموكب مكتب العلاقات الخارجية قاصداً مطاراً آخر من مطارات موسكو داخلياً غير المطار الدولي الذي هبطنا فيه البارحة واسمه (مطار داما يتوفو) وهو مخصص للرحلات الداخلية واخترق شوارع من مدينة موسكو تغلب عليها السعة والاقتصاد في المظهر وتسير فيها عربات الترمواي بكثرة كما تسير فيها سيارات رسمية سود وأخرى خاصة لسائر الناس مختلفة الألوان وهي أكثر من السيارات التي رأيته في مدن الصين الشيوعية ولكنها أقل من السيارات التي تسير في شوارع مدينة بريده مركز منطقة القصيم في المملكة بمعنى أنك إذا رأيت شارعاً من شوارع موسكو طوله نصف ميل مثلاً فإن عدد السيارات فيه تقل بكثير عن عدد السيارات التي توجد في شارع مماثل له في الطول في مدينة بريده في مثل هذا الوقت.

ولا شك في أن السبب في ذلك هو الحرية الاقتصادية غير المحدودة التي تتمتع بها بلادنا والحرية المفقودة هنا.

إلا أن الذي يجيب على تساؤلات المرء عن العدد الضخم من الملايين الذين تكتظ بهم موسكو وتبلغ ثمانية ملايين كيف يتنقلون داخلها. هو أنهم يحرصون على أن يكون مكان عمل المرء قرب منزله لأن المساكن في المدن مملوكة للدولة ثم إن هناك وسائل النقل العامة من قطارات كهربائية تسير تحت الأرض وسيارات كهربائية (تروللي باص) تسير فوقها والحافلات الكثيرة التي تجوب الشوارع.

ومع أن مطار موسكو الدولي ليس من الفخامة بالمكانة المنتظرة لمطار دولي في دولة عظمى بل هي أعظم دولة في الدنيا بعد الولايات الأمريكية أو هي معها كذلك وليست بعدها فإن هذا المطار دونه في مرافقه وأبنيته بكثير بل إنه لا يكاد يختلف في ذلك عن مطارات الدول المتخلفة فالأثاث فيه من المقاعد هو خشبي عتيق والأرض خشنة غير مفروشة أي أرض قاعة الترحيل فيه وحتى الآلات والمعدات فيه كأثاث المكاتب هي قديمة أيضاً.

وأما الركاب فيه فإنهم الأوروبيون الأصلاء لم يختلف عن الأوروبيين منهم الا القليل الذين هم من اصل اوزيكي او بخاري كما نعر عنه في بلادنا.

ذلك بأن المسافرين في هذا المكان هم من السياح الأوروبيين الذين يذهبون بكثرة لزيارة مواطن المسلمين في الاتحاد السوفيتي لأنها التي يجدون فيها مايشد انتباههم وما يختلف عما الفوه في بلادهم ومع السياح بعض الروس والاكرانيين والروس البيض من السوفيت الذين يعيشون في القسم الأوربي من البلاد ويعملون في مناطق المسلمين في وظائف مختلفة.

وأما نحن فإننا كلنا نلبس الثياب العربية الكاملة وذلك لكون زيارتنا رسمية .

المرافقون :

وأذكر أن عدد المرافقين لنا في طول الرحلة وكان يزيد على العشرة منهم خمسة من العاملين في وسائل الاعلام مابين تلفزة وصحافة واذاعة كما أخبرونا وكلهم من الروس غير المسلمين.

ومعنا أيضاً جماعة من الاخوة المسلمين العاملين في الادارات الدينية في البلاد على رأسهم الشيخ المفتي طلعت تاج الدين رئيس الادارة الدينية للقسمة الأوروبي وسيبريا وهو من البلغار الذين أسماهم بالتتار ولا يعرفون الآن الا بهذا الاسم والجزء الأساسي من بلادهم في الاتحاد السوفيتي يسمى (تتارستان) اي : بلاد التتار عاصمته مدينة قازان.

وكانت صحبته مفيدة لنا في طول الرحلة داخل الاتحاد السوفيتي لما يتمتع به من رحابة صدر واطلاع على شئون المسلمين وعدم الضيق بأسئلتنا الفضولية واستفساراتنا الكثيرة كما كان معنا في الرحلة إلى بخارى وبلاد ماوراء النهر الشيخ الدكتور/ شمس الدين ضياء الدين بابا خانوف وتوقف عن مرافقتنا عند ماغادرنا مدينة سمرقند.

ومعنا أيضاً ممن أكملوا الرحلة الشيخ محمد صادق بن محمد يوسف وقد
نفعنا كثيراً في الترجمة من الازبكية إلى العربية وبالعكس كلما احتجنا
إلى ذلك وهو نائب مدير معهد الامام البخاري في طشقند ويعرف العربية
جيداً والشيخ عبدالعزيز فتاح وهو نائب رئيس العلاقات الخارجية للادارات
الدينية أي نائب الدكتور شمس الدين بابا خانوف أيضاً ولكنه لا يعرف
العربية والشيخ عبدالغنى عبدالله نائب رئيس الادارة الدينية في وسط آسيا
وقازاقستان وقد تخلف عنا في هذه الرحلة لكونه لم يجد مكاناً في الطائرة
وغيرهم.

من موسكو إلى طشقند :

حان موعد الصعود إلى الطائرة بسرعة اذ كان الاخوة واثقين من ان
الطائرة ستنتظرنا لكوننا ضيوفاً رسميين ولذلك جئنا قبل موعد إقلاعها بوقت
قصير.

وعند اجتياز تفتيش الحقائب اليدوية من أجل الأمن وكان يقوم به
كله نساء من الروسيات عليهن ضابطة كبيرة جرت مراجعة بين مرافقينا
وبينها فأبّت الا فتح حقائبنا للتفتيش غير أنهم راجعوا ضابطاً كبيراً استمر
وهو يحاول اقناعها فترة حتى سمحت بعدم التفتيش وأمرت المفتشات لديها
بعدم فتح الحقائب مع العلم بأن هناك جهازاً للكشف الكهربائي ولكنهم لم
يكتفوا به.

ولاحظنا ان السفر من جمهورية إلى أخرى داخل الاتحاد السوفيتي لا بد
فيه من حمل الجوازات او بطاقات تحقيق الشخصية وكأنه السفر من بلد
صديق إلى صديق آخر لا من جزء من بلاد إلى جزء آخر منها، وذلك كله
من أجل المحافظة على الأمن، وضبط الأمور داخل البلاد وهو الأمر الذي
يسير بصرامة تامة في الاتحاد السوفيتي كما هو معروف.

وعندنا وصلنا الطائرة كان الركاب قد صعدوا إليها كلهم وهي ضخمة

كأنها القلعة وهى جاثمة على الأرض وتنفوق ضخامة البوينج ٧٤٧ (الجامبو) وكنا نرتدي الملابس الرسمية وقد حجزوا مقاعدنا في وسط الطائرة والبابان المفتوحان أحدهما في الأمام والآخر في الخلف لذلك فتحوا لنا بابا خاصا في وسط الطائرة فيه سلم صغير ينزل إلى الأرض كهربائياً.

فصعدنا إلى الطائرة حيث كنا في المنطقة المخصصة لنا في الطائرة التي ليس فيها درجة أولى بل كلها درجة واحدة ولا أقول سياحية فهى لا تصل إلى الدرجة السياحية في الطائرات الحديثة من حيث التنجيد والخدمة وإن كان ذلك لا يصل إلى درجة الرداءة مثلاً وجلس في الطائرة عن يميني الشيخ طلعت تاج الدين وعن يساري الدكتور شمس الدين بابا خانوف وتوزع الرفاق على مقاعد ومعهـم المرافقون الذين جلهم يعرف العربية ويتحدث بها معنا.

الطائرة من طراز ليوشن ٨٦ وتحمل ثلثمائة وخمسين راكباً والذي استرعى انتباهي فيها ارتفاع سقف القاعة الرئيسية التي فيها المقاعد فيها حتى يساوى ارتفاع قصر من قصور النبلاء القدماء مع ما يكلفه ذلك من نفقة في الوقود نتيجة لزيادة احتسكاك الطائرة بالهواء ومقاومته لانسيابها الا بزيادة في المحركات واستهلاك الوقود فلو قلت ان ارتفاعها يصل إلى تسعة أمتار أو ثمانية كما رأيناه من الداخل لما أبعدت عن الحقيقة.

وقد شغلت جميع مقاعدها البالغ عددها ثلثمائة وخمسين بالركاب مع أنها ليست الرحلة الأولى إلى طشقند ولن تكون الأخيرة في هذا اليوم.

وذلك لبعد المنطقة وصعوبة الانتقال إليها بالقطار أو بالسيارات وإن كانت القطارات موجودة فإنها تستغرق يومين وثلاث ليال إضافة إلى رخص أجور السفر بالطائرات داخل الاتحاد السوفيتي بالنسبة إلى مستوى الرواتب ولذلك يقبل عليها الناس بخلاف ما رأيت الحال عليه في الصين الشعبية حيث الدخول متدنية وأجور الطائرات عالية بالنسبة إلى مستوى الرواتب فيها

وان لم تكن أغلى منها في البلدان المتمتعة بالحرية الاقتصادية.

اين أنتم أيها المقلدون؟

اول ما لفت نظري في الطائرة علامة منع التدخين فيها كلها ولما استغربت ذلك وسألت الاخوة المرافقين وهم من المشايخ عن ذلك اجابوا بأن التدخين ممنوع في جميع الطائرات السوفيتية في الرحلات الداخلية ولايسمح بالتدخين بأية حال من الأحوال على الطائرات التي تسافر من مكان إلى آخر داخل البلاد حتى في الرحلات التي تستغرق ست ساعات من اقصى الجنوب الشرقي إلى اقصى الشمال الغربي للبلاد، هذه واحدة.

والثانية ان الطائرة عند ما استقرت في الجو جاءت المضيفات بأكواب صغيرة من اللدائن تشبه الأكواب الفخارية في بعضها ماء وفي بعضها عصير من عصير العنب شككت فيه فسألت الشيخين اللذين بجانبني عما إذا كان خالياً من الكحول فضحكا وقالوا ان الخمرة محرمة أيضاً في جميع الرحلات الداخلية ولايسمح بتناولها حتى ولو احضرها الراكب بنفسه.

واذا حدث وتجاسر أحد على حملها إلى الطائرة وشرها فيها فإنه يعاقب وقد يحرم من ركوب الطائرات فترة من الوقت.

هذا مع العلم بأن الرحلة طويلة تبلغ مسافتها الفين وتسعمائة وثلاثين كيلو مترا وتستغرق من الوقت ثلاث ساعات واربعين دقيقة كما اعلنت المضييفة ذلك بالروسية وفسره لنا الاخوان المرافقون مع العلم بأن الاعلان هو بالروسية وحدها وليس معها مثلاً لغة المنطقة التي تتجه إليها الطائرة وهي الأذربكية وفي الركاب من المواطنين من هم من أهلها. ولا بالانكليزية التي يفهمها اكثر السياح الذين يشغلون حيزاً لا بأس به من مقاعد الطائرة.

وبعد الا تظن بل تتيقن انه لو منع التدخين والخمر على طائرات بعض الدول التي يقطنها المسلمون ولاستطيع ان تقول انها دول إسلامية فإن

الأصوات سوف ترتفع بالاحتجاج والنكير، بل ربما ترمي من قرر المنع بأنه من المتزمتين الذين حملهم الهوس الديني على اتخاذ هذا القرار؟

مع العلم بأنه قرار في مصلحة الجميع لأن التدخين مضر من الناحية الصحية حتى لمن يكونون قرب المدخن وأما الخمر فيكفي فيه أنه محرم في الإسلام وإن تحريمه معروف من الدين بالضرورة. ولا شك في أنهم إذا سمعوا هذا أو عرفوه فإنهم سيخففون من رمي من يقرر منع ذلك في الطائرات بالتشدد الديني إن لم يقولوا بالهوس الديني مع أن الذين حرموها هنا هم قوم ملحدون لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولكنهم حرموها في الطائرات بدافع المصلحة العامة للوطن والمواطنين.

وذلك جزء من محاربة السوفيت لتناول الخمر لما لاحظوه من ضررها البالغ على الإنسان وجلب الأمراض، وتعطيل المصالح والنقص في أداء الأعمال.

وقد يأتي الكلام في اجراءاتهم الأخرى التي حاولوا بها محاربة تفشي الإكثار من شرب الخمر والادمان عليها في بلادهم وهي إجراءات عديدة.

ومثل ذلك محاولة الحد بل منع شرب الدخان في المحلات العامة ومنها القطارات والدوائر الحكومية والمحلات العامة. وبهذه المناسبة سألت الشيخ طلعت تاج الدين عن التدخين إذا مارسه رجل الدين هنا فقال: إن أهل العلم أو رجال الدين لا يستساغ منهم التدخين وإذا عرف أن إماما من أئمة المساجد أو مفتيا من المفتين شرب الدخان علنا كان ذلك مما ينقص من قدره.

كان قيام الطائرة في الساعة الثانية عشرة والنصف بالتوقيت الصيفي لموسكو وهو يتقدم ساعة واحدة عن توقيت المملكة العربية السعودية كما يتقدم ثلاث ساعات عن توقيت طشقند التي سنسافر إليها وعلى هذا يكون فرق التوقيت ما بين بلادنا وطشقند أربع ساعات.

وقد امتلأت جميع مقاعدها بالركاب حتى ان احد المشايخ كان من المقرر أن يسافر معنا وهو الشيخ عبدالغني عبدالله نائب رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان لم يجد مقعداً في الطائرة وتخلف عنا للسفر مع الرحلة التالية بعد هذه.

من الملفت للنظر في هذه الطائرة السوفيتية الضخمة التي تعادل طائرة الجامبو العملاقة بوينج ٧٤٧ من حيث عدد الركاب انها عالية السقف جداً.

ولذلك يشعر من يكون راكباً فيها وكأنه يجلس بالفعل في قاعة ضخمة للاجتماعات إضافة إلى وجود طابق سفلي صغير فيها.

لقد ركبت بين الشيخين الفاضلين الدكتور شمس الدين بابا خانوف والشيخ طلعت تاج الدين مما أتاح لي الحصول على ثروة ضخمة من المعلومات التي أثارها استفساراتي من الأخوين العالمين وان كانت بعض الأسئلة مخرجة جداً لهما بحكم وجودهما في بلاد ذات نظام طبيعته القهر والكبت أو لنقل اذا أردنا التلطيف في العبارة ان طبيعته هي عدم قبول الاختلاف في النظر مع الحكومة حتى في الناحية النظرية وهي مجرد الكلام فلا يسيغ ان ينتقد مواطن من مواطني الاتحاد السوفيتي سياسة حكومته امام رجل أجنبي ولذلك لا يحدث ذلك الا اذا كان سراً وبعد أن يشعر المواطن السوفيتي أن ذلك الأجنبي ممن يحتفظون بالسفر في بيان مشاعر المواطن السوفيت سواء في خلال إقامته في الاتحاد السوفيتي او بعد مغادرته.

مع انني لم أكن أطلب من الأخوين أن ينتقدا حكومتها عندي وإن كانت الاجابة في بعض الاحيان تتحاشى ذلك وقد تتحاشى معها الخوض في الحقيقة منعا لذلك.

بعد أربعين دقيقة من الطيران جاء المضيفات وبعضهن واضح من مظهرهن أنهن من بنات المسلمين فلسن بدوات المظهر الروسي المتميز وهى

يحملن اقداحاً صغيرة من اللدائن (البلاستيك) في بعضها ماء معدني وفي الأخرى عصير عنب.

عندما سألت الشيخين عما اذا كان هذا العصير لا يخشى ان يكون فيه كحول قالوا: إنه لا مجال لذلك لأن الحكومة قد حرمت تناول المسكرات في الطائرات كما تقدم.

ثم أعلنوا من مكبر الطائرة انه سيقدمون الغداء للركاب وهو أمر يستحق التنويه في هذه الرحلة لطولها ولأن أغلب الرحلات الداخلية في الطائرات السوفيتية لا يقدم فيها طعام اصلاً ثم جئن بالأكل في صحن من اللدائن فوقه صحن رئيسي فيه فخذ دجاجة وقطعة من الخبز وآخر فيه جبن اصفر وخبز اسمر وبعد ذلك شاي والختام كان كوباً صغيراً من الشراب الذي يخبرونك فيه من الماء المعدني أو عصير عنب.

وقد دخلت حمام الطائرة فوجدته لا يبعد كثيراً عن حمام الدرجة الأولى في الطائرة السوفيتية التي قدمنا عليها من عمان إلى موسكو والمظهر العام فيه البعد عن الترف أو الكماليات حتى الأحواض من المعدن غير اللامع وليس هناك مناديل من الورق تمسح بها الايدي او الوجوه.

أوف تعنى ابن :

كثيراً ما يعجب الغريب عند ما تفرع سمعه الاسماء هنا في هذه البلاد سواء كانت روسية خالصة مثل اسم رئيس الاتحاد السوفيتي الحالي ميخائيل جورباتشوف وقبله خروتشوف ومالينكوف لأول وهلة أو حتى اسماء إسلامية فإنهم يضيفون إليها في الآخر لفظة (اف) مثل اسم جاري الدكتور شمس الدين ضياء الدين بابا خانوف واسم احد المرافقين وهو الأخ عبدالعزیز فتاحوف ومساعد الطائرة التي نركبها الآن ذكروا ان اسمه نازاروف.

ولقد سألت عن ذلك في أول وصولي إلى موسكو فأخبروني ان معنى (أوف) هذه هو ابن فشلاً رئيس الاتحاد السوفيتي او لنقل كما يقولون في وظيفته (الامين العام) للحزب الشيوعي السوفيتي، وهو أهم من رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء واسمه جورباتشوف معناه ابن (غرباتش) ولقد تبادرت إلى ذهني الكلمة العامية المصرية التي تسمى السوط (كرباج) فقلت: اهو ابن كرباتشوف وهل يصل سلطان الكرباج او السوط في الاتحاد السوفيتي حتى الى أسماء الزعماء؟

واسم الدكتور شمس الدين ضياء الدين باباخانوف اي ابن بابا خان وهكذا.

وعلى ذكر اسم مساعد الطيار ذكروا أن قائد هذه الطائرة الضخمة ومساعده كلاهما من أبناء المسلمين الأذربكيين أحدهما وهو القائد اسمه (نازاروف) أي ابن نازار وربما كانت هي (نزار) العربية الصميمة وقائده (ذاكروف) وهي (ذاكر) العربية الفصيحة من الذكر وان كان بعضهم ببدل ذالها زايا في النطق فتصبح على لسانه: (زاكروف) فهذا موجود حتى في عامية بعض الأقطار العربية.

في مطار طشقند :

قبل الوصول بقليل اعلنت المضيقة ان درجة الحرارة في طشقند ثمان وعشرون درجة مئوية وقالت وهي تعلن ذلك للركاب: فرحباً بكم في طشقند المشمسة.

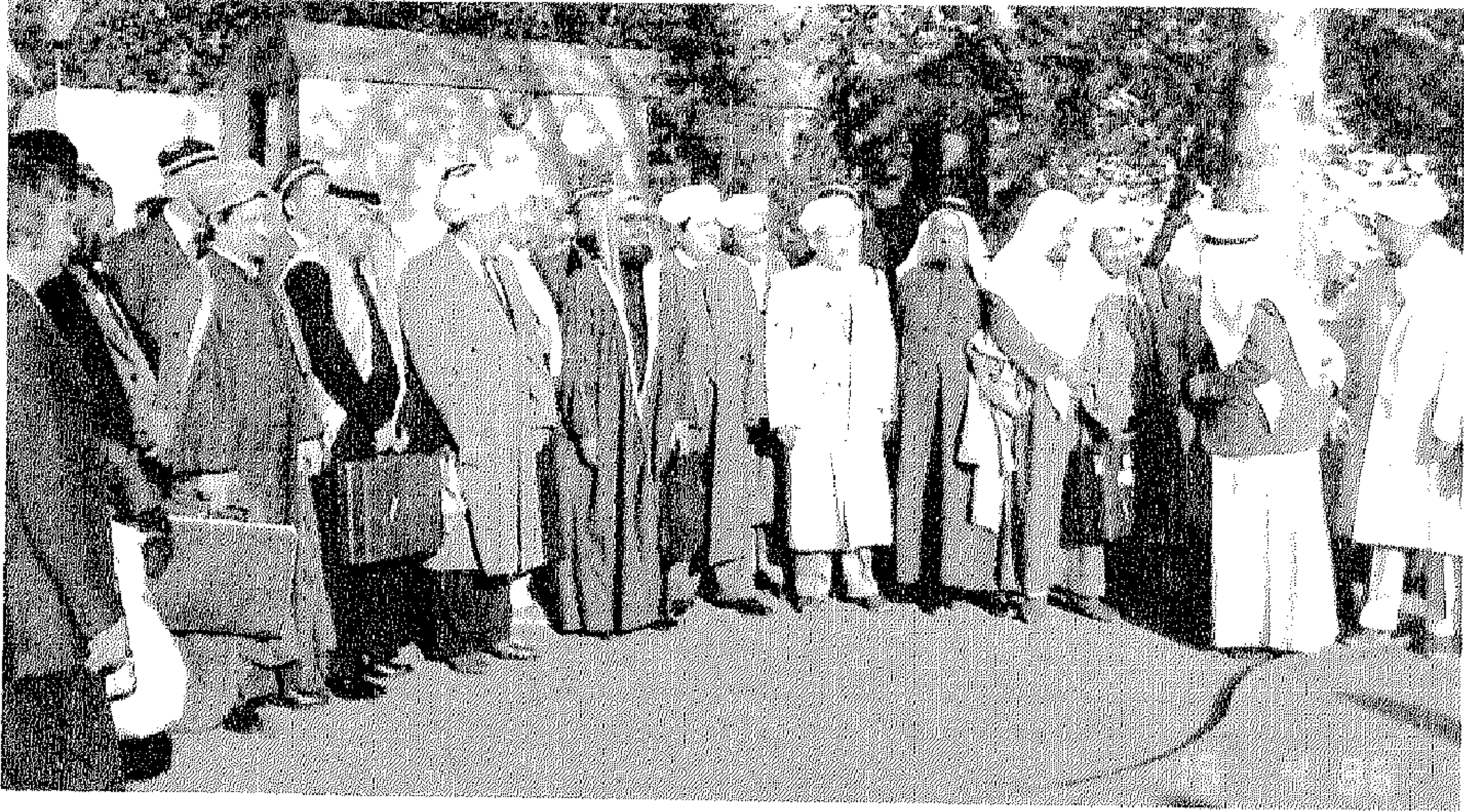
لاشك في أن للتنويه في درجة الحرارة المعتدلة هذه وبالتنويه بالشمس المشرقة في طشقند ما يبرره بالنسبة لهؤلاء الركاب الذين قدموا من موسكو حيث الجو مظلم ودرجة الحرارة صفر مئوي.

كما نوهت المضيقة بحالة الجو هنا فإنها نوهت أيضا بعراقة المنطقة التاريخية فقالت إنه يمكنكم من طشقند أن تواصلوا سفركم إلى بخارى

وسمرقند ان شتم.

ان لعبارتها هذه اهمية خاصة بالنسبة لي ربما كان ذلك اكثر من الركاب الآخرين الذين اكتظت بهم هذه الطائرة العملاقة ذلك بأن بخارى وسمرقند كانتا من مراكز الثقافة الإسلامية في العصور القديمة ولقد قرع سمعي اسم كل واحدة منها ووقع نظري أيضاً عليه في الكتب الآف المرات كما كنت قد قرأت الوقائع التي كانتا مسرحاً لها. وتراجم الرجال العظام الذين كانوا قد عاشوا فيها في زمن ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. في تلك الربوع وهذا ما أضاف شعوراً غريباً في نفسي عند النزول في طشقند إلى الشعور العام الذي هو مزيج من الفرح والأسف والأسف هو لكون هذه المنطقة التي كانت منطقة عامرة بالحضارة الإسلامية قد أجذبت منها بل ان الحضارة الإسلامية قد أسوء إليها حتى أصبحت في عرف بعض المثقفين من أبنائها تدل على التخلف والجمود العقلي محتجين بما كانت وصلت إليه أذهان بعض المسلمين من فهم خاطئ للإسلام حتى أصبحوا يظهرونه بمظهر المقدس للأولياء المتعلق بالقبور والمشاهد.

حطت الطائرة في مطار طشقند في الثالثة الا خمس دقائق بعد الظهر بتوقيت موسكو الصيفي و يوافق السابعة الا خمس دقائق بتوقيت طشقند.



استقبال الوفد في مطار طشقند عند الوصول من موسكو

وقد لزم الركاب مقاعدهم حتى نزلنا نحن الضيوف ومرافقينا من السلم الخاص في وسط الطائرة. ووجدنا في الاستقبال عدداً من الاخوة العاملين في الادارات الدينية منهم الشيخ يوسف شاكر النائب الثاني لرئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان.

وعند مدخل بناء المطار كان صفان من الاخوة أئمة المساجد في طشقند وربما في غيرها وبعض المدرسين في معهد الامام البخارى وكلهم يعرف العربية وبعضهم تخرج في البلدان العربية فكاد سلام وكانت بعد ذلك جلسة في قاعة كبار الزوار في المطار كان الحديث كله يدور خلالها بالعربية وكأنا الآن في احد البلدان العربية.

وكانت جلسة مفيدة لم يكدرها الا كون القوم يحجمون عن الاجابة على بعض الأسئلة التي كنا نطرحها عفوا عن بعض الأمور المتعلقة بالدين هنا مثل عدد المساجد في طشقند وعما إذا كانت لا تزال توجد مساجد لم تعدها الدولة إلى المسلمين بعد أن كانت قد صادرتها منهم في اول العهد الشيوعي فكنا نكتفي بالاجابة المتيسرة وكان الأخوة المستقبلون يرحبون مبتهجين بقدوم اخوانهم بل زملائهم من طلبة العلم.

بعد الوصول إلى مطار طشقند (مبنى الطار)



وكان رجال التلفزة والصحافة يسجلون كل الحركات والسكنات بالصورة والصوت وقد انضم إلى المرافقين لنا عدد من أهل المهنة المحليين من أهل البلاد.

وتناولنا الاشربة الباردة والساخنة ومنها القهوة والشاي بينما كان بعض الاخوة المرافقين يهيئون لانزال امتعتنا الكبيرة من الطائرة وحملها في سيارة شحن صغيرة وذلك لكثرتها لأنها تحتوى على مصاحف وكتب وهدايا لم يتعرض لها المسئولون عن الجمرك في موسكو.

في مدينة طشقند :

وجدناهم أعدوا موكبا من السيارات للوفد في أوله سيارة رئيس الوفد وهى سوداء رسمية طويلة كالتى ركبت فيها في موسكو وهى التى يركبها الوفود من درجة رئيس وزارة او وزير وتتبعها سيارات أخرى لبقية الأخوة أعضاء الوفد وللمرافقين الآخرين.

سار الموكب وسط جوربيعي شعرنا بأنه حار لأن قدومنا كان من موسكو الشالجة.

ولم أكد أجد فرقاً بين الجو هنا وبين الجوفى مدينة الرياض عندما تركتها قبل اسبوع وهذا خلاف ما كنا توقعناه إذ خشينا من البرد هنا غير أن خشيتنا منه لم تكن في محلها.

فقد كان فصل الربيع قد حل قبل قدومنا بأيام ولذلك رأينا أشجار الطريق التى اخترقها الموكب كلها خضرة بل نضرة حتى الزهور رأيناها في الشوارع واليادين متفتحة كأنما كانت تشارك مستقبلينا من الاخوة المسلمين الكرام واخوانهم الذين سمعوا بقدومنا فرحهم بهذه المناسبة.

بل انها تبدو أنها تشاركنا نحن أعضاء الوفد فرحنا وسرورنا بوصولنا إلى بلاد المسلمين العريقة في الإسلام هذه.

وكانت هناك ربح ربعة تداعب أوراق الأشجار فتطير هذه نشوى
كأنما تشارك في الاستقبال.

ولم يطل بنا السير حتى وصلنا فندقاً ضخماً اسمه (فندق ازبكستان)
وهو مؤلف من ١٦ طابقاً توقف الموكب عنده بعد أن سار خمسة كيلات من
المطار.

وكان ما لفت انظارنا في مداخل هذا الفندق الضخم افواجا من
السائحين الأجانب الذين فيهم طائفة من الغربيين من اوروبا وامريكا
وطائفة من الشرقيين من اليابان بل أن امرأة منهم سألتني عن بلادنا وقد
أعجبها لباسنا العربي الكامل الذي كنا متمسكين به حتى العبادة
فاخبرناها أننا من المملكة العربية السعودية فقالت: انها من فنزويلا في
امريكا الجنوبية. ولما اخبرتها انني أعرف فنزويلا حق المعرفة وقد زرتها
ثلاث مرات وكتبت كتاباً خاصاً بمشاهداتي فيها تملكها العجب وبخاصة
عند ما تذكرت أنها الآن في نهاية البعد عنها إلى جهة الشرق.

لقد كان زينا العربي الكامل ملفتا للأنظار حقا حتى لأنظار اهل
الفندق الذين يفترض أنهم كانوا قد تعودوا على رؤية الضيوف الأجانب



أمام فندق ازبكستان في طشقند

من بلاد كثيرة مختلفة الأزياء وبخاصة من البلدان العربية غير ان معظم اهل البلدان العربية يكونون قد ارتدوا الزي العالمي المسمى بالافرنجي عندما يزورون هذه المنطقة وقد صار هذا الزي المألوف في أكثر أنحاء العالم حتى داخل الاتحاد السوفيتي في المناطق الإسلامية الداخلية يكون هو لباس الموظفين والمثقفين.

وقد حرصنا على الالتزام به لأنه إحدى الوسائل التي بأيدينا لإلفات نظر إخواننا المسلمين في هذه البلاد إلى وجودنا لأنه ليس بإمكاننا أن نخطبهم مباشرة بذلك إذ اتصالاً بنا مقصورة بالمرافقين ومن نصادفهم في الأماكن العامة الذين لم يتعودوا على الإسراع إلى ضيوف البلاد وسؤالهم عن جهتهم ومقصدهم لأن الاتصال بالأجانب يكون مقتصرًا في العرف والعادة هنا على الموظفين الرسميين ومن في حكمهم من المأذون لهم وعددهم يكون قليلاً في المعتاد.

وكان عجب السياح الأجانب من ملابسنا مثل عجب المواطنين أو أكثر من ذلك فيما يظهرونه لنا لأنهم قد اعتادوا على حرية الاتصال بالأجانب ومخاطبتهم في بلادهم فكانوا يسألون عن بلادنا ويستأذنون في التصوير من آلات التصوير التي يحملونها وتكون جاهزة عندهم كما تكون لدى السياح في العادة.

وبعضهم كان يخشى ان تفوته المناسبة فيسرع بالتقاط الصور قبل الاستئذان.

أما المواطنون فلا أذكر أن واحداً منهم اتجه إلينا وسألنا عن بلادنا وعن أي شيء يتعلق بنا كما اننا لا نتذكر أن واحداً التقط لنا صورة واحدة وان كانوا ينظرون إلينا من طرف خفي ويتعجبون من دون ان يجروا على التقدم إلى هؤلاء الضيوف الأجانب وسؤالهم مباشرة عن انفسهم.

انزلونا في غرف الفندق الذي هو فندق سياحي حيث يكون في العادة ذا غرف صغيرة فكان نصيبي غرفة صغيرة امامها غرفة جلوس صغيرة أيضاً.

ووجدتهم وضعوا على المائدة فيها ما كان يضعه اخوتهم في تركستان الشرقية التي زرتها قبل سنتين وكتبت عنها كتاب (في مهد الترك) وهي المكسرات والاشربة ماعدا الشاي فإنه كان لازماً في تركستان الشرقية للضيوف اما في تركستان الغربية هذه التي حولوا اسمها العام إلى (آسيا الوسطى السوفيتية) وقسموها إلى عدد من الجمهوريات الآسيوية فإنهم وضعوا على المائدة زيباً جيداً مما اشتهرت بلادهم بانتاجه ومعه لوز وماء معدني وزجاجات من البيبسي كولا التي تصنع في هذه البلاد وفاكهة اقتصرت على الفاكهة المتوفرة التي تنتجها هذه البلاد وهي التفاح الذي هو أقل جودة من التفاح الأحمر اللبناني وان كان يشبهه في اللون ومع التفاح كمثرى جيدة.

أما الخدمة في هذا الفندق فإنها رديئة اذ خصصوا لكل طبقة من طبقاته الكثيرة عدداً من الروسيات الغليظات حسا ومعنى واكثرهن في منتصف العمر أو هي على حد قول الشاعر:

وان أتوك وقالوا: إنها نصف فإن اطيّب نصفها الذي ذهباً

الا انني اعتقد انه حتى النصف الذاهب من أمثال هؤلاء الروسيات الثقيلات الأجسام وربما الأرواح أيضاً. فانهن لا يعرفن من الانكليزية حرفاً حتى نستطيع ان نحكم عليهن من كلامهن وتصرفاتهن بأنهن ثقيلات الأرواح أو خفيفات.

وإنما الكلام معهن بالاشارة في نطاق ماتحتاجه الغرف كما كان الكلام كذلك مع العاملات في فندق (سوفيتكا) في موسكو.

ولقد حاولت أن اجد مفتاحاً أفتح به زجاجات الشراب فلم استطع إفهام الروسية المسئلة عن ذلك حتى جاء احد الأخوة المرافقين الذين يعرفون اللغة الروسية فسألها عن ذلك وهو من الاخوة المسلمين من أهل البلاد ولكنه لم يعتد ولم يجرؤ على ان ينتقد وجودها هنا بدلاً من امرأة أو رجل

من المسلمين من أهل البلاد نستأنس بوجوده ونحييه بتحية الاسلام وربما يشعر وجودهم بأننا في بلاد إسلامية.

ولاشك في أن اختيار العائلات من الروسيات الغليظات اللآتى لا يعرفن الانكليزية فضلاً عن اللغات الأوروبية الأخرى أمر له معناه فهو يقطع الطريق أمام الحصول على اية معلومات أو إنشاء اية علاقات غير مرغوب فيها من قبل الدولة ما بين النزير السائح وبين المواطنين السوفييت.

وغرفتي في الطابق السابع تطل على ميدان جيد متوسط السعة في وسطه حديقة غناء قد أزهرت من اشجار مختلفة الألوان والأشكال في منظر بهيج.

عشاء طشقند :

بعد استراحة قصيرة في الغرفة حان موعد العشاء الذي كانوا قد حددوه الساعة التاسعة وهو بعد غروب الشمس مباشرة اذ تغرب الآن في التاسعة الا ثلثا. وذكروا لنا أنها كانت لا تغرب في رمضان الماضي الا في العاشرة فكان افطارهم يتأخر لهذا السبب.

ولاشك في ان من اسبابه موقع بلادهم الموغل في جهة الشمال بالنسبة إلى بلادنا العربية غير الشمالية.

ونزلت في التاسعة إلى المطعم وكان مزدحماً جداً بالرواد الذين كلهم من السياح سكان الفندق فسألني رجل يظهر انه روسي قائلاً: مسلمان؟ قلت: نعم.

فاشار إلى جهة معينة من المطعم كانت فيها مائدة منصوبة طويلة تتسع لحوالي اربعين شخصاً وقد وضعت عليها مقدمات الطعام بسخاء كنت قد اعتدت على رؤيته أثناء زيارتي لتركستان الشرقية.

إلا أن الشئ الظاهر هنا الذي لم يكن هناك هو وجود البطارخ أي (الكافيار) وهو بيض السمك الشهير الذي هو بيض نوع من السمك موجود في بحر قزوين دون غيره من بحار الدنيا وهو المشهور بالكافيار الروسي مع انه ليس من بلاد الروس الأصلية ولا بقريب منها وإنما يراد بذلك الاتحاد السوفيتي.

وهذا (الكافيار) الأسود اللون كما هو معروف وهناك نوع من بيض السمك أيضاً أحمر اللون وقد اعتدنا بعد ذلك على رؤيته في جميع الموائد في هذه البلاد السوفيتية ويأكلون (البطارخ) بالزبد يضعونه عليه ويضعون الجميع على قطعة الخبز وهناك انواع من اللبن مابين رائب وحليب وانواع من الجبن واللحم ايضاً في المقدمة أنواع وهو بارد بمقادير قليلة اضافة إلى النقل الذي هو المكسرات.

وقد حضر مأدبة العشاء عدد كبير من الاخوة الذين يتكلمون العربية من العاملين في الحقول الدينية و يبلغ عددهم عليها ثمانية واربعين شخصاً على رأسهم الدكتور/ شمس الدين بن ضياء الدين بابا خانوف.

ثم كانت اول ليلة في طشقند عامرة بسماع الاذاعات العربية التي كانت واضحة على الموجات القصيرة ومنها اذاعات المملكة وإذاعة الكويت.

وكنا قد اطلعنا اثناء العشاء على برنامج الزيارة فوجدنا انه لايلبي رغباتنا اذ يدع بعض المدن الهامة لنا مثل بخارى دون زيارة ولم يقدموا لذلك سبباً واضحاً اما مدينة (ترمذ) التي ينسب إليها الإمام الترمذي صاحب السنن فانهم قالوا انها تقع مباشرة على الحدود مع افغانستان وانتم تعلمون الوضع هناك لذلك لا تيسر زيارتها فاقتنعنا من ذلك.

يوم الخميس ١٤٠٦/٨/٨ هـ — ١٩٨٦/٤/١٧ م

صباح طشقند :

كان هذا اليوم شامسا كيوم أمس ومع ذلك لم استطع التقاط صورة للميدان والحديقة التي تطل عليها غرفتي في الفندق وذلك لوجود تزيينات اسمنتية تتمر بالنافذتين وترتفع مع ارتفاع الفندق وهي لذلك تمنع وضوح الصورة.

وقد تناولنا طعام الفطور مع الإخوة الكرام الذين تبين أنهم كانوا يسكنون هنا في الفندق نفسه حتى الذين هم من اهل طشقند.

وكان المطعم مزدحماً كالعادة الا أن مائدتنا كانت منفردة في ركن منه والعجيب في أمر الخدمة فيه إذ كانت بطيئة غير ميسرة فقد يطلب الآكل شيئاً فيبطي العمال في احضاره بطأ شديداً قد يعتقد أنه مقصود وليس الأمر كذلك ولكن العمال هم يعتقدون أو هكذا يوحي الشيوعيون اليهم بأنهم أهل السلطة في البلاد لذلك لايبالون كثيراً برضا الزبائن عن الخدمة مع ان المسؤولين كانوا يجتهدون في ارضائنا ولذلك كنا نجد أكثر الأكل على المائدة جاهزاً قبل وصولنا ولايبقى الا مالا مكان له فيها، الا بعد إبعاد الأطباق التي تسبقه أو ما يؤكل أو يشرب حاراً.

إلى مجلس السوفيت الأعلى :

وكانت أولى فقرات العمل هذا اليوم الاجتماع في مجلس السوفيت الأعلى لجمهورية ازبكستان مع رئيس الجمهورية ويسمونه رئيس مجلس السوفيت الأعلى في الجمهورية فنصبه فيها أعلى من منصب رئيس الوزراء وهو الذي يعين الوزراء في حكومة الجمهورية وهذا بطبيعة الحال من الناحية النظرية والا فإن الأمر كله بيد المسؤولين الشيوعيين الذين يحركون هؤلاء الوزراء وغيرهم.

وهذا الرجل كغيره من المسئولين ينتخب انتخاباً غير حر فالحزب الشيوعي وحده هو الذي يقدم مرشحيه من الشيوعيين ويطلب من الناس أن يختاروا منهم من يريدون مع انهم كلهم من لون واحد وهو اللون الشيوعي ومن اتجاه سياسي واحد هو الاتجاه الذي يرضى عنه الحزب الشيوعي الروسي او لنقل على وجه الدقة المسئولون الشيوعيون من الروس لكنهم يظهرون للناس انهم اشتراكيون وان هؤلاء الشيوعيين المحليين هم مثل الشيوعيين في موسكو هم القوة نفسها التي للشيوعيين الروس في تصريف شئون الدولة.

سألت الاخوة المرافقين عن هذا الرجل أهو مسلم وأنا أريد بذلك معرفة كونه من اهل البلاد الأصلاء ام من الروس؟ فلم يستطيعوا أن يقولوا إنه مسلم حتى الذين من عاداتهم عدم التحفظ في التعبير لم يقولوا انه مسلم. فقلت لهم: أهو من أبناء المسلمين؟ فقالوا: نعم.

والسبب في ذلك أن الموظف الكبير في الإدارة السوفيتية لا يستطيع أن يقول: إنه مسلم ولو بمجرد القول لأنه لو فعل ذلك كان قد فعل ما يتناقض مع دستور البلاد ومع مبادئ الحزب الشيوعي الذي ينتمي اليه والذي من أهم مافيهِ مبدأ الاتحاد وانكار وجود الخالق سبحانه وتعالى ولذلك صار الدين يتناقض مع هذه المبادئ.

وهذا يوجب فصله من الحزب وإبعاده عن منصبه في الدولة، ان لم يكن سبباً كافياً في الحاق الأذى به وعقابه على مخالفة دستور الحزب الذي يكون قد اعلن الولاء له وعدم المساس بمبادئه.

وعلى سبيل المثال لايجز النظام ولا العرف الشيوعي لأعضاء الحزب ولا الذين يشغلون مراكز مهمة في البلاد ان يشهد الشخص منهم صلاة في اي مسجد أو أن يشترك في أداء أية شعيرة من الشعائر الدينية واذا حدث ذلك فإنه يفصل ويعاقب كما تقدم.

ومع ذلك يقول لنا العارفون بالأمر من اخواننا إن أبناء المسلمين الذين يوجدون في السلطة في هذه الاوقات وتحت الحكم الشيوعي هم على فريقين فريق يكون شيوعياً ملحداً معتقداً بالشيوعية متحمساً لها كما يتحمس أي شيوعي آخر لذلك يكون معادياً للإسلام وفريق يتظاهر بذلك ولكنه في قرارة نفسه لايعادي الإسلام غير انه لا يستطيع الا ان يتظاهر بأنه ملحد وبأنه بعيد من الدين واهله.

وسار المركب من فندق أوزبكستان قاصداً مجلس السوفييت للاجتماع برئاسة المجلس فاخترق شوارع واسعة من شوارع المدينة كلها حديثة ذات أشجار منسقة على جوانبها وتقع على أكثرها أبنية سكنية متعددة الطوابق (عمارات) قد بنتها الدولة تؤجرها للمواطنين.



شارع لينين أهم الشوارع الرئيسية الحديثة في طشقند

وأكثرها ليس بذي طابع قديم بل هو معتاد حتى في البلدان الرأسمالية ولاطعم له بخاصة في عين الذي يكون مثلنا يريد ان يرى الأبنية ذات الطابع الإسلامي العريق.

ولكنهم اخبرونا ان اكثر هذه الشوارع والابنية التي اقيمت عليها هي حديثة قد اقيمت بعد الزلزال الشديد الذي اصاب المدينة في عام ١٩٦٧م وقضى على كثير من البيوت القديمة فيها مما جعل الدولة تهدمها وتشق في اماكنها شوارع حديثة واسعة، تقيم عليها أبنية سكنية تؤجرها شققاً سكنية على اهل هذه البيوت وغيرهم بموجب الخطة التي تسير عليها في تحديد أمتار معينة في السكن لكل شخص وفق حدود تتراوح ما بين الأمتار الثمانية والاثنى عشر للفرد الواحد.

فعلى سبيل المثال للشخص الاعزب سواء أكان رجلاً أم امرأة الحق في ان يحصل على غرفة يسكن فيها في هذه المساكن الحكومية تكون سعتها من ٨ امتار إلى ١٢ متراً مربعاً لايزيد على ذلك والمتوسط هو عشرة أمتار مربعة وذلك يعني غرفة طولها ثلاثة امتار وثلاث في عرض ثلاثة أمتار فقط.

اما إذا كان الشخص متزوجاً وله طفلان مثلاً فإن له الحق في استئجار أمتار تبلغ اربعين متراً مربعاً ولايحسب في هذه المساحة الا الغرف فقط اما الممرات والحمامات والمطابخ فانها لا تحسب ولكنهم اعتادوا على عدم وجود القاعات التي نسميها الصالات في بلادنا في شققهم المعتادة بل يكتفون بممرات بين الغرف فيكون للأسرة المؤلفة من اربعة أشخاص الحق في استئجار شقة حكومية مؤلفة مثلاً من غرفتين كل غرفة مساحتها اربعة أمتار مربعة في خمسة أمتار وذلك بأجرة رخيصة جداً بل رمزية وحتى الماء والكهرباء، يكاد لرخصه يكون مجاناً. وصيانة المنزل ما كان منها داخل الغرف يكلف به النزير وما كان خارجها تكلف به الدولة.

في مجلس السوفيت الأعلى للجمهورية :

كان الموعد السابعة والنصف صباحاً فوجدنا المجلس في مبنى حديث كالأبنية المعتادة اي ليس ذا طابع خاص وليس فيه من الفخامة الآفناء مكشوف واسع أمامه حديقة حديثة الإنشاء يخترقها ممر مبلط وهو ايضاً مقر مجلس الوزراء للجمهورية.

وعند المدخل الخارجي استقبلنا احد الموظفين الذي انحنى بأدب وتقدمنا إلى الداخل حتى وصلنا قاعة متوسطة السعة وجدنا عند بابها رئيس مجلس السوفيت الأعلى لجمهورية ازبكستان رئيس الجمهورية وهو من أبناء المسلمين واسمه بولاد حبيب الله وهو تركستاني الطلعة ان لم نقل بلغتنا (بخاري) السحنة لأنني لم اجد أصدق وصفاً لهؤلاء الأخوة المسلمين في تركستان الشرقية التي في الصين وتركستان الغربية التي هي هذه من وصفهم بالبخاريين وان كان هذا ليس صحيحاً من حيث المعنى لأن بخارى هي في الحقيقة مدينة واحدة عرفت بها منطقة واحدة هي جزء صغير من بلادهم الواسعة بل الشاسعة (تركستان) التي تعني بلاد الترك وهي بلاد ذات وحدة إنسانية عنصرية وماضٍ ثقافي عريق هو الماضي الاسلامي العظيم.

ولكن تكالبت المحن عليها وتقاسمها الطغاة الأقوياء فصارت للذب الروسي والتنين الصيني.



بولاد حبيب الله رئيس مجلس السوفيت لجمهورية اوزبكستان يصافح المؤلف في مقر المجلس

والأدهى من ذلك ان هؤلاء الطغاة الظالمين المستعمرين بل المنتهين للبلاد والمسيطرين على العباد قد سعوا جاهدين في محو هويتهم الاسلامية وماضيهم الثقافي العريق حين يفهمونهم ان ذلك الماضي كله إنما كان تأخراً من التأخر بل كان سبة يجب عليهم التخلص منها.

رحب بنا الرئيس (بولاد حبيب الله) ترحيباً حاراً واجلسنا حول مائدة بيضاوية الشكل كانوا قد رتبوا أماكننا بها ترتيباً بحيث كان مجلسي مقابلاً لمجلسه وعن اليمين واليسار مجلس أعضاء الفريقين.

وقد حضر معنا كبار المرافقين منهم الشيخ شمس الدين بابا خانوف رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان واثنان من نوابه والشيخ طلعت تاج الدين رئيس الادارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي وسيبيريا وغيرهم كما حضر عدد من جانب رئيس المجلس وكذلك حضرها الصحفيون والمصورون المرافقون للوفد وغيرهم.

عند ما تكلم الرئيس (بولاد حبيب الله) تبين ان كلامه كمظهره فيه مما يميز الشعب التركستاني أشياء الا الروح الإسلامية التي هي ميزة هذا الشعب العظيم وأهم مظهر من مظاهر وحدته فقد خلا منها حديثه.

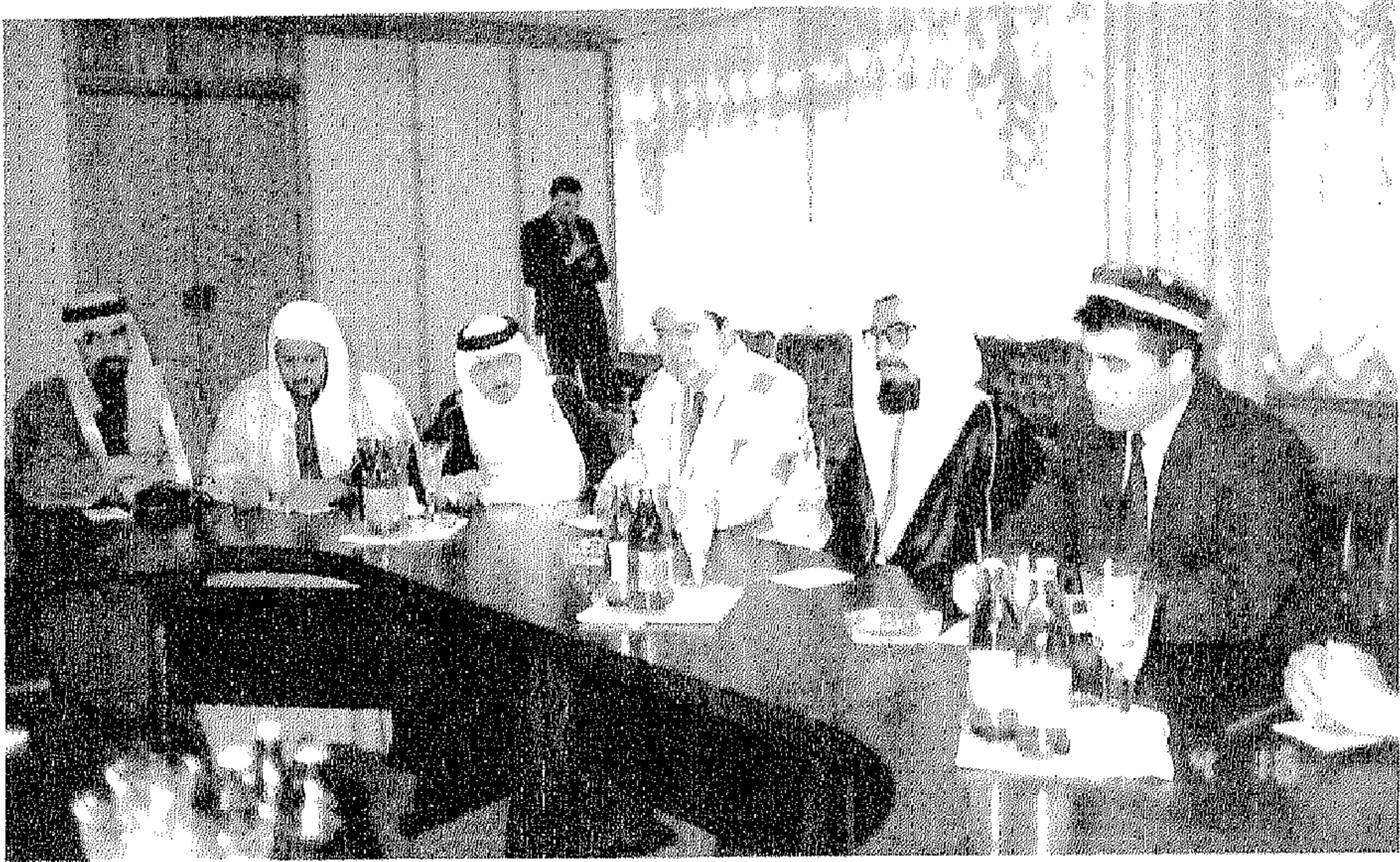
فقد القى كلمة مطولة تدور في مجملها حول ما كانت عليه حال هذه البلاد من الناحية المادية قبل الثورة الشيوعية وما أصبحت عليه الآن.

قال من بين ما قاله:

لقد حقق شعب اوزبكستان تقدماً وتطوراً حضارياً في ميادين الثقافة والاجتماع والصناعة بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧م فقبل الثورة كان نسبة المتعلمين في البلاد ٤٪ من سكان اوزبكستان والآن اصبح اكثر الشعب الاوزبكي متعلماً وتوجد حالياً في اوزبكستان ٤٣ مؤسسة علمية عليا واكثر من عشرة آلاف مدرسة و ٢٠٠ معهد بحوث والتعليم مجاني في جميع مراحل الدراسة كما ان الخدمات الطبية مجانية وهناك مئات المستشفيات.

وقال: ان الصناعة في اوزبكستان متطورة وها كثير من المصانع المتنوعة منها صناعة الطائرات والالكترونيات والمحركات والجرافات، وصناعة الغزل والنسيج وغير ذلك من جميع انواع الصناعات الحديثة.

واضاف يقول ان اوزبكستان تشتهر بالعديد من المحاصيل الزراعية من الفواكه والخضروات والقمح وتنتج البلاد خمسة ملايين طن من القطن وتحتل المرتبة الأولى في الاتحاد السوفيتي.



جانب من مائدة الاجتماع في مجلس السوفيت الأعلى في طشقند (من اليسار لليمين: الأستاذ سالم السلام عبدالرحمن بن عوين فالدكتور سعيد محمد باذيب فالدكتور شمس الدين بابا خانوف فالمؤلف).

الحالة الدينية :

ثم تحدث الرئيس بولاد عن الحرية الدينية فقال: ان القانون الاساسي للاتحاد السوفيتي والدستور الخاص لجمهورية اوزبكستان السوفياتية المستمد منه يضمن حرية الاعتقاد والفكر والوجدان والفرد له الحرية في اختيار الدين الذي يرغبه، كما ان له الحرية في عدم الاعتقاد والدين منفصل عن الدولة والمدرسة في اوزبكستان والاتحاد السوفيتي ولكل مواطن الحرية في ان يمارس شعائر دينه.

ويقدر عدد المساجد في الاتحاد السوفيتي بـ ٣٠٠٠ مسجد ويوجد منها ٨٢ مسجداً في اوزبكستان.

مجلس السوفيت الأعلى :

وكذلك تكلم السيد بولاد عن مجلس السوفيت الأعلى لاوزبكستان وأن المجلس يضم ٥١٠ نائباً ينتخبهم الشعب من خلال فئاته المختلفة كل خمسة أعوام ويعمل النواب على تحسين مستوى الشعب وتحقيق متطلباته في الازدهار والتقدم من خلال اللجان التي يشكلونها وقال: والشعب الاوزبكي مضياف ولا يوجد هناك شعب مضياف مثله. وسوف يرى الوفد تطور ورفاهية الشعب الأوزبكي أثناء زيارته لهم في مناطقهم.

وقد رددت عليه بكلمة مبسطة تضمنت شكره على الترحيب، وحسن الاستقبال وعلى المعلومات التي قدمها عن هذه البلاد العزيزة لدينا (ازبكستان).

واخبرته بسرور المسؤولين في رابطة العالم الإسلامي عندما تلقت الدعوة من الإدارات الدينية في الاتحاد السوفيتي وقد سارعنا بتلبية هذه الدعوة شاكرين لأنها تتيح لنا الاجتماع بالاخوة المسلمين في هذه البلاد العريقة وبحث سبل التعاون الشقافي ما بين رابطة العالم الإسلامي وبين الإخوة المسلمين ممثلين في الادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي.

ثم اوضحت مهمة رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة وانها منظمة إسلامية شعبية عالمية وليست ادارة حكومية من ادارات الحكومة السعودية وإنما توفر لها المملكة العربية السعودية المقر وتساعدنا على أداء مهمتها كما تساعد بقية الهيئات الإسلامية في العالم.

وهذا نص لبعض مآلفته :

إننا نتفق معكم على حسن ضيافة الشعب الأوزبكي لضيوفه، وقد شعرنا لحسن استقباله بأننا بين أشقائنا واخواننا الاعزاء بالرغم من بعد

المسافة بيننا وذلك لأن الأخوة الإسلامية التي عقد عراها رب العزة هي أقوى من صلات النسب.

ورابطة العالم الإسلامي هي هيئة إسلامية شعبية عالمية وهي ليست جهازاً حكومياً ولكن حكومة المملكة العربية السعودية تقدم لها بعض المساعدات المالية التي تمكنها من اداء خدماتها للمسلمين في أنحاء العالم.

وعندما تلقينا الدعوة من الدكتور شمس الدين بابا خان رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان سررنا لأن الرابطة مقرها في مكة المكرمة التي هي قلب العالم الإسلامي واليها يتجه المسلمون في صلواتهم وكذلك يتجه المسلمون إلى مكة المكرمة ورابطة العالم الإسلامي برجاء توحيد ثقافتهم الإسلامية وتوثيق صلاتهم الحضارية.

وفي سبيل توثيق الصلات مع المسلمين في العالم فقد قام المسؤولون فيها بزيارات كثيرة لأنحاء العالم وعلى سبيل المثال فقد قمت بزيارات عديدة إلى كثير من الجماعات الإسلامية في العالم مثل نيوزيلندا ومملكة تونغا في المحيط الهادئ وترينداد في البحر الكاريبي.

وزياراتنا للجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي وبالأخص اوزبكستان هي واجب نؤديه في سبيل توثيق الصلات الثقافية مع اخوتنا المسلمين، زيادة على ذلك نشعر بان علينا دينا يجب أن نؤديه نحو اخواننا المسلمين في هذه البلاد، فنحن المسلمين مدينون لعلماء هذه البلاد الاجلاء مثل الامام البخارى والترمذي وغيرهما من أئمة الحديث والتفسير.

ونعرف أن علماء المسلمين من هذه البلاد في القديم قدموا إسهاماً كبيراً للثقافة الإسلامية وكثير من المسلمين في العالم الإسلامي يتسألون حالياً فيقولون: ماذا قدم أبناء واحفاد أولئك المسلمين للثقافة الإسلامية؟ ولاشك في ان المسلمين على حق في تساءلهم، لأن المسلمين أخوة وقد قال الله تعالى: «انما المؤمنون إخوة» ومن واجب الإخوة التعارف والتعاون.

وفي مجالس الرابطة ممثلون للشعوب والجماعات الإسلامية ويمثل سماحة الدكتور/ شمس الدين باباخان مسلمي الاتحاد السوفيتي في المجلس الأعلى العالمي للمساجد ويتوجه المسلمون في أنحاء العالم إلى الرابطة للاستفسار عن أحوال المسلمين في الاتحاد السوفيتي، ونحن نجيبهم بأننا سنزورهم ونعرف أوضاعهم ثم نجيبكم.

ثم قلت: إن رابطة العالم الإسلامي ليست هيئة سياسية ولذا فإن الاختلافات السياسية في نظم الحكم لا تعيق الرابطة عن أداء أعمالها وأخونا الدكتور شمس الدين باباخان يعرف ذلك من خلال مشاركته في أعمال المجلس الأعلى العالمي للمساجد.

وليس من أهداف الرابطة التدخل في السياسة أو النظام الداخلي لأي دولة كما أننا نستطيع أن نقول بصفتنا مواطنين سعوديين بأن سياسة حكومة المملكة العربية السعودية هي عدم التدخل في النظام أو الأمور الداخلية للدول.

وتسعى رابطة العالم الإسلامي لإحياء الروابط الثقافية الإسلامية بين الشعوب والجماعات المسلمة.

وكان علماء العرب القدماء يأتون إلى بلادكم لزيادة التحصيل العلمي بالرغم من صعوبات الطريق واختلاف الجو. والآن تتم زيارتنا هذه بكل يسر وسهولة وقد سررنا بما ذكرتموه من انتشار التعليم والصناعة والزراعة في بلادكم ونتمنى ان نرى انتشار الثقافة الإسلامية من جديد في بلادكم وان يعيد الشباب المسلم الحاضر أمجاد أجداده وآبائه في الثقافة والحضارة الإسلامية.

ثم قلت إننا ونحن نصل إلى هذه البلاد العريقة في الإسلام كان ينتابنا شعور عظيم عميق من الإمتنان لوصولنا إلى موطن العلماء الاعلام من أئمة الإسلام الذين نبغوا في العلوم المختلفة، فمثلاً في علم الدين هذا الإمام

البخاري الذي ألف اصح الكتب بعد كتاب الله تعالى والإمام الترمذي صاحب السنن والإمام الحافظ الدارمي والبيهقي والشاشي الى عدد عديد لا يحصون كثرة من أئمة الحديث الذين حفظ الله بهم الشريعة الإسلامية وأغنى بهم الثقافة العربية وخلفوا من الآثار العلمية ما يتجدد الانتفاع به على مر القرون وفي العلوم الأخرى نجد ابن سينا والفارابي والبيروني وأبوابكر الخوارزمي.

إننا كسائر المسلمين مدينون للعلماء الذين أنجبهم هذه البلاد ولذلك فإنه من الواجب علينا أن نرد الدين ولو عن طريق التعاون على ما نستطيع عمله في سبيل الانتفاع بآثارهم العلمية والاشتراك مع أنجالهم الذين خلفوهم في هذا الميدان.

بل ان هذه البلاد التركستانية كان لها في الماضي فضل حمل الراية الإسلامية راية الجهاد في سبيل الله ونشر الدين الإسلامي في بلاد خارج بلادهم ويكفي ان نذكر ان أبناء عمومته من الأتراك العثمانيين قد باشروا الفتوحات الإسلامية منذ ان ارتحلوا عن هذه البلاد حتى وصلت فتوحاتهم تحت راية الإسلام إلى أوروبا ففتحوا القسطنطينية التي صارت منذ ان فتحوها وما زالت والله الحمد دار إسلام يذكر فيها اسم الله بعد ان كانت مركزا للثقافة المعادية للإسلام.

وقلت ان ذلك الماضي المشرق لهذه البلاد التركستانية يجعلنا نحن المهتمين بماضي المسلمين ومستقبلهم نؤمل ان يعيد التاريخ نفسه في هذه البلاد وان تعود مرة ثانية منبعاً للثقافة الإسلامية ومقصداً لمن يريدون التزود منها بل إننا نطمح في أن يحمل أبناؤها راية الإسلام خفاقة كما حملها أسلافهم العظام.

هذا وقد تعمدت ان أركز على هذه الناحية الإسلامية المهمة في الحديث مع هذا الرجل الذي هو بحكم منصبه الشيوعي يعتبر معاديا للإسلام وذلك من أجل تذكيره بذلك عسى ان ينتفع به، ولعلمي ان كثيراً من

الوفود الرسمية وحتى الوفود التي تفد اليهم من بعض البلدان الإسلامية لأغراض سياسية أو اقتصادية لا تفيض في بحث هذا الموضوع فضلاً عن ان تركز عليه.

وقد بدالي أن الرجل قد تأثر بما قلته وبما سمعه بهذه الاستفاضة للمرة الأولى من ضيوف أجنب ولذلك بدا ممتنا مما ذكرته او هذا هو ماظهر لنا والله اعلم بحاله.

وقد علق على كلامي رئيس الجمهورية السيد/ بولاد بقوله: إننا نحترم علماءنا المسلمين السابقين الذين خدموا الثقافة والحضارة الإنسانية ونحن نفتخر ونعتزهم وبتاريخهم وقد اسمينا كثيرا من الشوارع والبيادين بأسماء علمائنا القدماء.

ونحن لانتدخل في سياسة الآخرين ولانسمح للآخرين بالتدخل في شئوننا ولكن نعمل على توطيد السلام العالمي والمؤتمر الأخير للحزب الشيوعي السابع والعشرين أكد على رغبة الاتحاد السوفيتي في حفظ السلام والعمل لأجله.

ثم اردف يقول: ان زيارتكم هذه زيارة هامة في تاريخنا وتأخذ صفة ثقافية وسياسية، وقد زرت تركيا والمغرب ونيوزيلندا ولمست اهتمام المسلمين ببلادنا وسررت كثيراً لزيارتكم هذه المفيدة في توثيق صلات الشعوب المسلمة.

ثم أجاب الرئيس (بولاد) على سؤال أحد أعضاء الوفد عن صلاحيات مجلس السوفيت الأعلى فقال: إن المجلس يضم ٥١٠ نائباً ينتخبهم الشعب مرة كل خمس سنوات ويكون أعضاء المجلس أكثر من عشرين لجنة كل لجنة منها تعالج ناحية من النواحي الأساسية لمتطلبات الشعب فهناك لجنة الثقافة ولجنة الصحة ولجنة البناء وهكذا ومهمة المجلس أيضاً هي مراقبة اعمال الوزارات والمؤسسات العامة وتقديم النصح والارشاد لها.

وذكر ان المجلس يعقد اجتماعاً مرتين في السنة، وزعم بأن كل نائب يعمل على تحقيق طلبات الجماعة التي انتخبته قال: وإذا لم يستطع النائب ان ينفذ طلبات منتخيه تسحب الثقة عنه.

قال: ويستقيل المجلس الوفود البرلمانية من الخارج، كما يبعث بالوفود للمشاركة وزيارة المجالس والهيئات البرلمانية.

ثم قدمت إليه مصحفاً كريماً مذهباً مطبوعاً في المدينة المنورة وقلت له: ان أغلى وأعز مالدينا هو كتاب الله تعالى الذي هو دستورنا ومرشدنا الى الحق وهو الرباط الوثيق الذي يربط بين المسلمين ويسرنا ان نهدي اليكم هذا المصحف المطبوع في مهبط الوحي في المدينة المنورة.



المؤلف يقدم الهدية إلى رئيس مجلس السوفيت الأعلى لجمهورية اوزبكستان

وأهديت إليه أيضاً مع المصحف عبادة عربية مقصبة وتمراً من تمر المدينة المنورة وساعة يدوية وسجادة للصلاة وقد تقبلها شاكراً.

ثم ودعناه وقد استغرق اللقاء معه مازاد قليلاً عن الساعة.

إلى الادارة الدينية :

خرجنا من مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية ازبكستان الذي هو أيضاً مقر مجلس وزراء الجمهورية كما سبق قاصدين مقر الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان وكان بي شوق عظيم لرؤية الأحياء القديمة في طشقند التي تمثل النموذج الحقيقي للبيوت والآثار الإسلامية من بلاد الشاش.

وقد رد علي الأخوة المرافقون بقولهم: اننا سنقوم الان بجولة في شوارع المدينة.

وقد جال الموكب في شوارع متعددة من المدينة وكان يدور في بعض جهاتها دورانا ولكنها كلها ذات طابع حديث واحد لا طعم له في أعيننا ولا أثر فيه للطابع الإسلامي العريق حتى الناس الذين نراهم في هذه الشوارع لا تظهر الأصالة التركمانية في ملابسهم أو أزيائهم كما هي ظاهرة مثلاً في مدن تركستان الشرقية التي تتبع الصين في الوقت الحاضر وقد أوضحت ذلك من أمرها في كتاب «في مهد الترك» الذي ألفته عن مشاهداتي في تلك البلاد.

والشوارع التي رأيناها هي واسعة مشجرة ذات أرصفة جيدة وتسير فيها عربات الترام وحافلات النقل العام الجيدة المظهر وأما السيارات الخاصة فإنها موجودة ولكنها قليلة اقل من الموجود منها في شوارع موسكو مثلاً ولكنه أكثر من الموجود من السيارات في شوارع مدينة (ارومسي) عاصمة تركستان الشرقية.

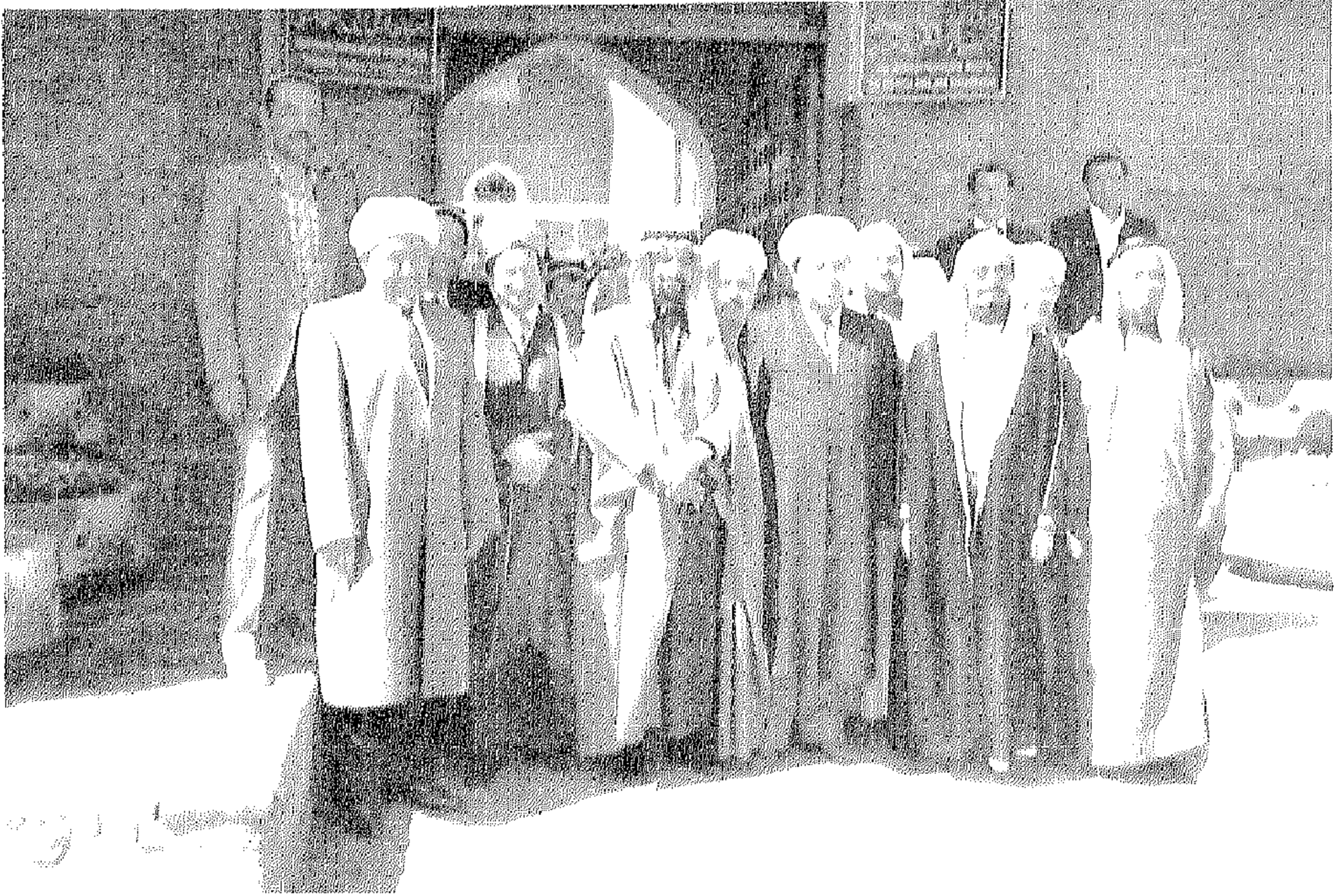
ويرى المرء بين الفينة والأخرى حديقة صغيرة حديثة يتضح ذلك من قصر اشجارها. وتتناثر الأبنية الحديثة ذات الطوابق المتعددة على جوانب هذه الشوارع ولكنها ليست بذات طابع اسلامي مشرق بل تكاد تكون لا طابع لها وانما هي أبنية جديدة تشتمل على شقق سكنية صغيرة.

وكرر الاخوة المرافقون ما قالوه من أن هذه الشوارع واكثر الابنية التي عليها هي حديثة الإنشاء وهي كلها بعد الزلزال الشديد الذي ضرب مدينة طشقند في عام ١٩٦٧م.

وكان موكب وفدنا حافلا تتقدمه سيارة المرور العسكرية فتخلي السيارات الطريق و يؤدي له جنود المرور التحية العسكرية.

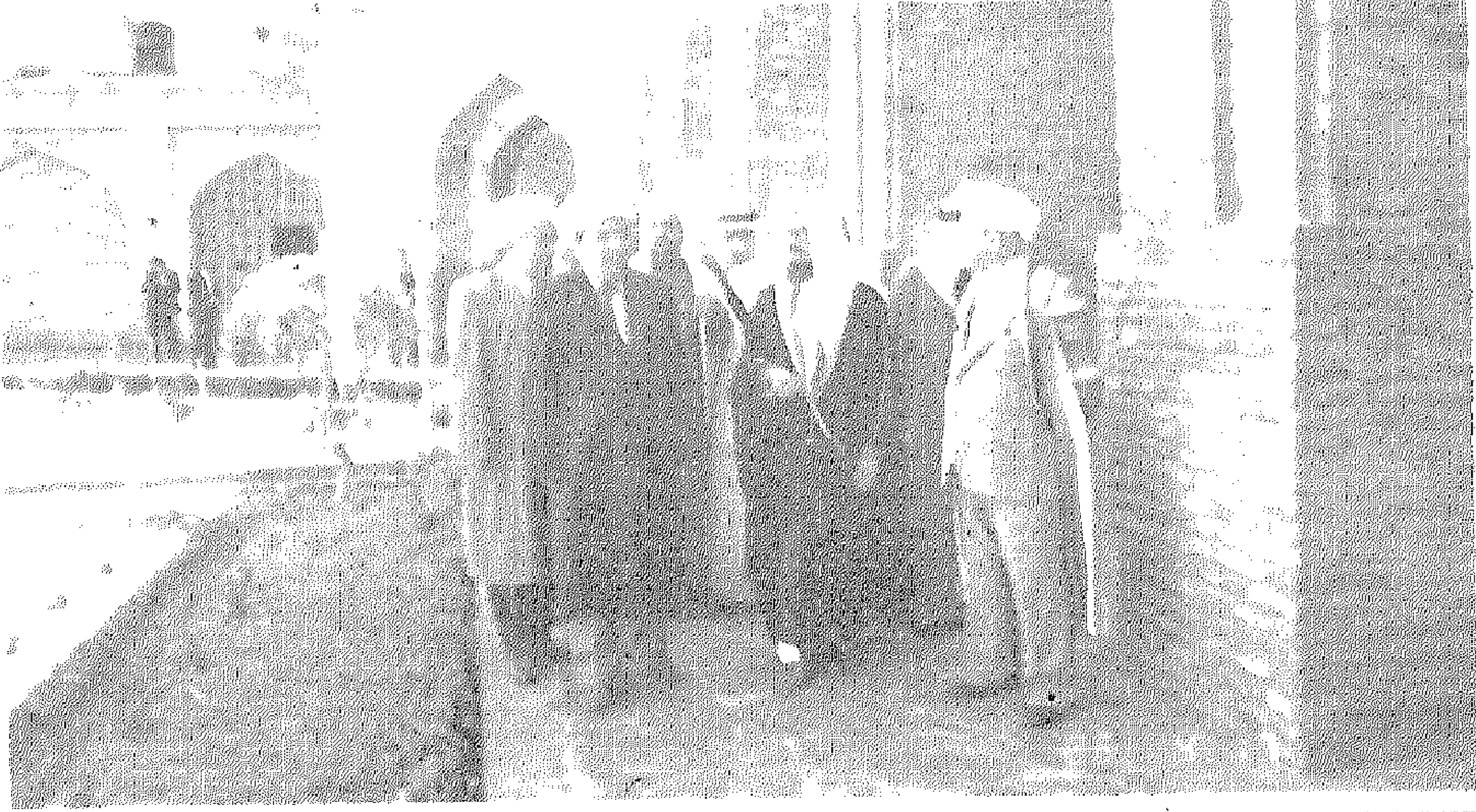
الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان:

وكان اول منظر لبناء ذي طابع إسلامي هو منظر مدخل الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان.



أمام مدخل الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان في طشقند (في اليمين) الشيخ عبدالله البار فالمؤلف فالدكتور شمس الدين فالاستاذ سالم السالم على يمينه الشيخ طلعت تاج الدين فالشيخ يوسف جان شاكر.

ولا غرو في ذلك لأن البناء المذكور هو أثرى مضى على بنائه اكثر من اربعة قرون وجدنا في مقر الادارة الدينية عدداً من المشايخ قالوا: إنهم من أئمة المساجد ومن المدرسين في معهد الإمام البخاري الذي يقع مقره قريباً من الادارة الدينية.



داخل الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان

وعندما اكتمل جلوس الجميع على مائدة مستطيلة في غرفة للاجتماع نهض الشيخ الدكتور شمس الدين بن ضياء الدين بابا خان فألقى كلمة رحب فيها بالوفد وذكر أن المسلمين في هذه البلاد ظلوا يتطلعون إلى زيارة وفد من البلاد المقدسة لبلادهم منذ مدة طويلة.

وأفاض في ذكر مهمة الادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي فقال:
للمسلمين في الاتحاد السوفيتي أربع ادارات دينية :

١ — الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان ومقرها طشقند ورئيسها المفتي الدكتور/ شمس الدين باباخان.

٢ — الادارة الدينية لمسلمي سيبيريا والقسم الاوروبي من الاتحاد السوفيتي ومقرها اوفافا ورئيسها الشيخ طلعت تاج الدين.

٣ — الادارة الدينية لمسلمي شمال القفقاس ومقرها محج قلعة ورئيسها الشيخ محمود كيكي.

٤ — الادارة الدينية لمسلمي ماوراء القفقاس ومقرها باكو ورئيسها الشيخ الله شكر باشازاده وتتعاون هذه الادارات الدينية الأربع في العلاقات والاتصالات الخارجية في مكتب العلاقات الخارجية للإدارات الدينية

الإسلامية في موسكو ويرأس هذا للمكتب دورياً أحد رؤساء الإدارات الدينية الأربعة بالتناوب كما أنهم يجتمعون مرتين سنوياً للتشاور وتبادل الآراء وكل الإدارات الدينية متساوية في الحقوق والعمل ولكل منها نشاط في المجالات الدينية والثقافية والعلاقات الخارجية.



الاجتماع في الادارة الدينية في طشقند

والادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان تعتبر أكبر الإدارات الدينية الأربع مساحة واحتواء لعدد المسلمين في الاتحاد السوفيتي لذا فان لرئيس الادارة نائبين هما :

النائب الأول : الشيخ/ يوسف جان شاكر مسئول عن الشؤون الخارجية والمدارس الإسلامية وهي مدرسة ميرعرب في بخارى ومعهد الإمام البخاري في طشقند.

النائب الثاني : الشيخ/ عبدالغني عبدالله مسئول عن الشؤون الدينية ومجلة «المسلمون في الشرق السوفيتي» التي تصدر عن الادارة فصلياً باللغات العربية والأوزبكية والإنجليزية والفرنسية والفارسية.

وتتصل الادارة بالمنظمات الإسلامية في أكثر من ٨٠ دولة في العالم وترسل مجلة «المسلمون في الشرق السوفيتي» لأكثر من ٥٠٠ عنوان ومن خلال هذه المجلة يتعرف المسلمون وغيرهم على حياة المسلمين في الاتحاد السوفيتي.

وتشرف الادارة على مدرستين اسلاميتين في الاتحاد السوفيتي وهما مدرسة مير عرب الإسلامية في بخارى يلتحق بها الطالب بعد تخرجه من المدرسة الثانوية العادية ويدرس فيها اللغة العربية والمواد الإسلامية سبع سنوات.

والثانية معهد الإمام البخارى في طشقند يلتحق به خريجو مدرسة مير عرب الإسلامية ومدة الدراسة فيه أربع سنوات يدرس به الطلاب الحديث والتفسير والفقه وغيرها من العلوم الدينية واللغة العربية.

ويدرس في المعهد حالياً ٥٠ طالباً من أنحاء مختلفة من الاتحاد السوفيتي كما يدرس بينهم طلاب من بلغاريا وافغانستان ويعمل الخريجون من المعهد أئمة وخطباء في المساجد والادارات الدينية كما تبعث الادارات الدينية بعض الخريجين إلى الجامعات الإسلامية في الخارج لاستكمال تعليمهم العالي.

وقال الدكتور/ شمس الدين باباخان رئيس الادارة الدينية ايضاً: إن كافة النشاطات والأعمال الإسلامية وتكاليف الدراسة الإسلامية تتم على حساب تبرعات المسلمين وإن لكل مسجد حساباً خاصاً في البنك لايداع التبرعات والصرف منها.

واضاف يقول: إن الادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي طبعت المصحف الشريف خمس مرات وآخرها في قازان عام ١٩٨٤م كما طبعت الادارة الجامع الصحيح والأدب المفرد للإمام البخاري والشماثل النبوية للإمام الترمذي.

كما تدعو الادارات الدينية وفوداً إسلامية من أقطار العالم لزيارة المسلمين في الإتحاد السوفيتي و يأتي سنوياً ما بين ١١ و ١٢ وفداً مسلماً لمدة أسبوعين او ثلاثة يزورون المناطق الإسلامية.

وكذلك بدعوة من الادارة الدينية عقد مؤتمر اسلامي في عام ١٨٧٤م بمناسبة مرور ١٢٠٠ سنة على وفاة الإمام البخارى اشترك فيه اكثر من ثلاثين دولة إسلامية وحضره الشيخ محمد صفوة السقا امينى الأمين العام المساعد سابقاً لرابطة العالم الإسلامي.

وعقدنا مؤتمراً إسلامياً بمناسبة بدء القرن الخامس عشر الهجري بمدينة دوشنبه عام ١٩٨١م.

ان قدوم وفد الرابطة من الاراضي المقدسة بالمملكة العربية السعودية خاصة للاتحاد السوفيتي واشتراكه في المؤتمرات يضيف عليها الهيبة والنجاح.

وقال الدكتور/ شمس الدين باباخان أيضاً: إن رؤساء الادارات الدينية في الإتحاد السوفيتي ونوابهم وأئمة المساجد يقومون بزيارات متنوعة إلى بلدان العالم الإسلامي ويشتركون في المؤتمرات الثقافية والإسلامية التي تعقد في مختلف المدن الإسلامية مثل المجلس الأعلى العالمي للمساجد في مكة المكرمة والملتقى الفكري في الجزائر والمجمع الملكي للحضارات الإسلامية في عمان بالاردن.

وكل هذه العلاقات والاتصالات الإسلامية والأخوية نفتخر ونعتز بها.

وتستقبل الادارة الدينية كثيراً من الشخصيات والبعثات الإسلامية الذين يأتون إلى اوزبكستان بمناسبات مختلفة بدون دعوات رسمية.

أما زيارة وفد رابطة العالم الإسلامي وفد الحرمين الشريفين مهبط الوحي ومصدر الإسلام فقد كنا نتطلع إليها من زمن بعيد، وكان المسلمون يشتاقون إلى رؤية رجال يأتون إليهم من قبلتهم ومهوى افئدتهم الكعبة

المشرفة وقد تحقق هذا الأمل بزيارتكم الكريمة ونتمنى أن تتكرر مثل هذه الزيارات في المستقبل وزيارة واحدة لا تكفي لتغطية المناطق الإسلامية في الإتحاد السوفيتي والإطلاع على أحوال المسلمين ونرجو أن تتكرر زيارتكم في المستقبل حتى تتاح لكم فرصة مشاهدة المدن والبلدان المسلمة المنتشرة في الإتحاد السوفيتي.

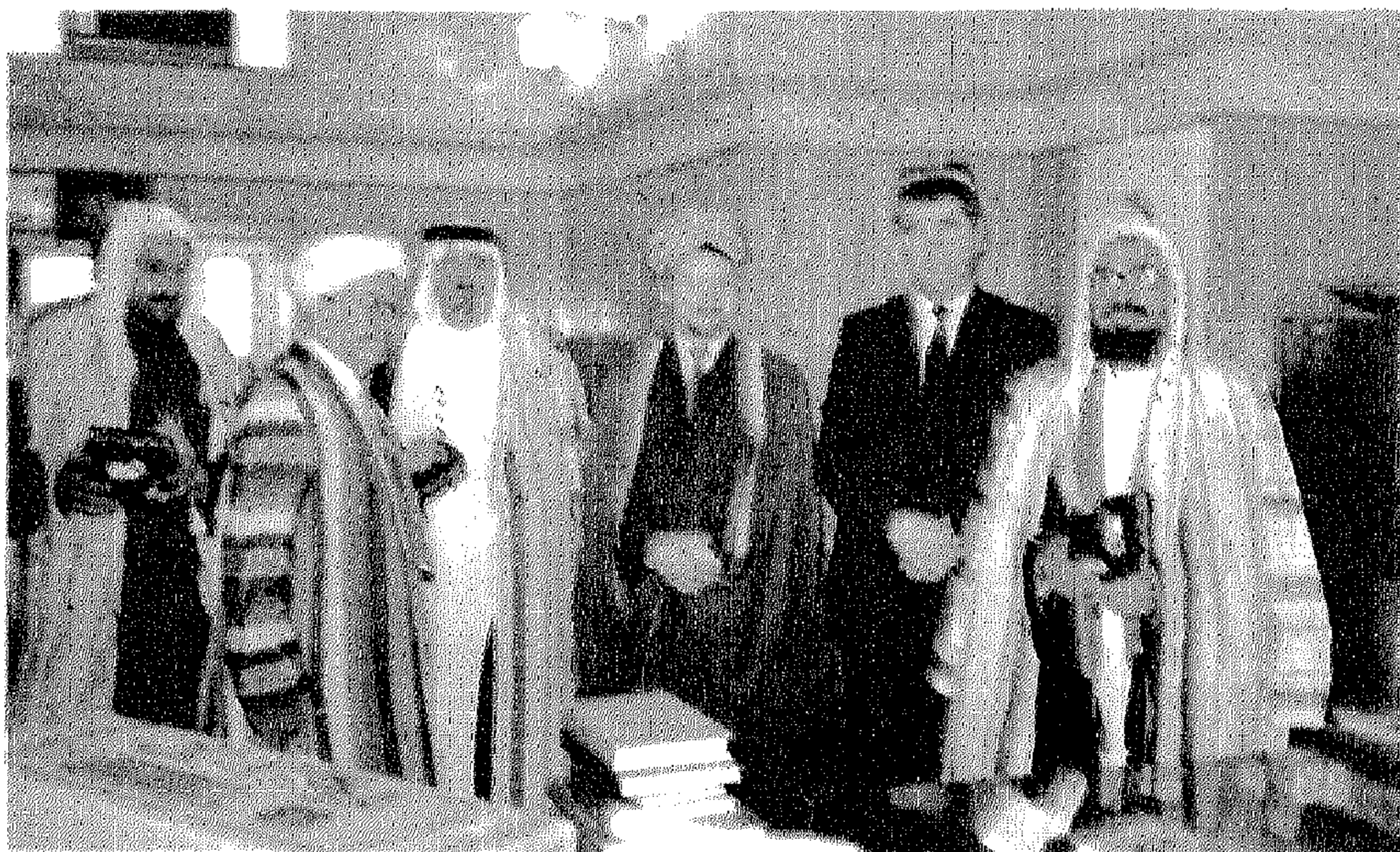
وبعد أن أنهى الشيخ الدكتور شمس الدين كلمته نهضت فرددت على كلمته بالشكر على الترحيب وكرم الضيافة وحرارة الاستقبال وعلى المعلومات التي قدمها عن الإدارات الدينية الإسلامية وأعمالها في الإتحاد السوفيتي وقلت: تلقيت وتلقى الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي دعوات متكررة منكم ومن رؤساء الإدارات الدينية لزيارة المسلمين في الإتحاد السوفيتي وكان سبب تأخير تلبية تلك الدعوات هو ارتباطاتنا الكثيرة، واهتمام الرابطة بالمسلمين ومتطلباتهم في مختلف أنحاء العالم ومسؤوليات الرابطة العالمية هي التي أخرت هذه الزيارة وقد سررنا بتلبية الدعوة وزيارة هذه البلاد التي انجبت أئمة الحديث والتفسير والثقافة الإسلامية.

ورابطة العالم الإسلامي تتلقى العديد من طلبات المساعدة من مختلف الجماعات الإسلامية وتقدم لها معونات متنوعة لأننا في الرابطة نفهم المساعدة على المشروعات الإسلامية بأنها تعاون أخوي على أداء الواجب الإسلامي إلا أن الإدارات الدينية في الإتحاد السوفيتي يظهر أنها اعتمدت على مواردها الذاتية ولم يتم أن تقدمت إلى الرابطة بطلب مساعدة ولكننا بناء على الأخوة الإسلامية التي اكدها الله تعالى في محكم كتابه فقال «إنما المؤمنون أخوة» وهي قرابة أقوى من رابطة النسب والدم لأن الله عز وجل بارك روابطها في السماء وانطلاقاً من مبدأ التعاون الإسلامي على البر والتقوى فإن رابطة العالم الإسلامي تستطيع أن تقدم لكم كتباً إسلامية ومصاحف، كما تقدم لكم منحاً دراسية في الجامعات الإسلامية، ويشمل التعاون التعريف بالمسلمين وأوضاعهم في الإتحاد السوفيتي إلى الجماعات

المسلمة في العالم من خلال ممثليها في مجالس الرابطة والجمعيات الإسلامية التي تتعاون معها فيمكن ان تكون الرابطة همزة وصل بين الادارات الدينية والجمعيات الإسلامية في العالم، كما يسرنا استقبال وفود الحج الرسمية واستضافتهم في موسم الحج، وكذلك يمكن الرابطة أن تتعاون معكم في طبع الكتب الدينية وهدفنا هو التعاون في ذات الله من أجل الثقافة الإسلامية.

وبصفتنا مواطنين سعوديين نستطيع ان نقول بان حكومة المملكة العربية السعودية يسرها التضامن مع الهيئات الإسلامية لخدمة الثقافة الإسلامية وإحياء التراث الإسلامي وتشجع التقارب مع الهيئات الشعبية في خدمة الدين الإسلامي.

وفي نهاية اللقاء قدم الدكتور/ شمس الدين باباخانوف هدايا تذكارية لأعضاء الوفد منها مؤلفات للإمام البخاري مطبوعة في هذه الجمهورية وأهمها كتاب (الأدب المفرد) ومصحفاً مطبوعاً في (قازان) في الإتحاد السوفيتي. وجبة وطنية مما يلبسه العلماء والعاملون في الشؤون الدينية في هذه البلاد وهي صفراء مقلمة وألبسنا إياها وسط تصوير المصورين.



الوفد في الادارة الدينية في طشقند بعد لبس الجباب التركستانية

فبادلته التحية بأن قدمت إليه آلة كاتبة عربية كنا احضرناها معنا من المملكة وهى لا توجد في الاتحاد السوفيتي للبيع وأنا يحتاجون الى استيرادها بالعملة الصعبة وهذا مالم يستطيعوه. وكذلك قدمنا لهم آلة تصوير حديثة جداً تصور الأوراق وبخاصة الكتب المخطوطة وهى أيضاً لا توجد للبيع في الاتحاد السوفيتي.

وذلك كله هدية من رابطة العالم الإسلامي إلى الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان، وقد كان لإهداء هاتين الآلتين وقع كبير في نفوس الجميع وذلك لندرة وجودهما في الادارات الدينية لذلك حرص المصورون وبخاصة منهم الذين كانوا يرافقون وفدنا من الروس على التقاط صور كثيرة لنا عند إهدائهما.

وقد أجلت تقديم الهدايا الشخصية للدكتور شمس الدين ونوابه وبقية المشايخ إلى مناسبة أخرى.

ثم قمنا بصحبة الشيخ الدكتور/ شمس الدين ونوابه والمرافقين والحاضرين في جمع كبير بجولة على هذا المبنى التاريخي القديم الذي يقع في مدينة



أمام قاعة الاجتماعات في الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان في طشقند

طشقند القديمة، وبني على هيئة مدرسة من المدارس القديمة التي كانت معروفة في مدن العالم الإسلامي تقام على مساحة واسعة وتؤسس فيها الأبنية لاقامة المدرسين والطلاب.

وقد بنى في القرن التاسع الهجري (السادس عشر الميلادي) ويقومون الآن بترميمه وتجديده.

ومداخله وقبابه مبنية بعقود من الآجر ولكنها مطلية بحيث تظن انها مبنية من الحجارة القوية.

وكان المبنى الذي هو ذو أقسام متعددة كما قلت يذكرني بمنظر بعض المدارس المبنية في عصر المماليك في مصر والشام وبخاصة في منظر العقود على مداخل الأبنية.

ورأينا مكاتب الادارة الدينية لمسلمي آسيا وقازاقستان والادارات التابعة لها، ومن ذلك المكتبة الإسلامية التي يرمون مقرها الآن، ولذلك كان الليث فيها غير مريح، وفيها كتب ومخطوطات كثيرة متنوعة، وبعضها نفيس غير ان الوقت لم يسمح بالاطلاع عليها.

وكذلك رأينا الكتب والمراجع التي زودت بها المكتبة في الزمن الأخير وهي قليلة وأهمها مقادير من المراجع المفيدة ارسلتها رابطة العالم الإسلامي هدية للمكتبة.

والسبب في قلة الكتب التي نشرت حديثاً او حتى مانشر قديماً وبيع الان في البلدان الإسلامية ولكنه لا يوجد في هذه المكتبة أن النظام الاقتصادي المتبع في الاتحاد السوفيتي وهو لايعترف بالعمل الإسلامي المنتج لايسمح بتخصيص مبالغ بالعملة الاجنبية الصعبة لشراء مثل هذه الكتب ولا توجد في داخل البلاد حيث يكن شراؤها بالعملة المحلية وهي الروبل الروسي الذي يتبرع به المسلمون من دخولهم المحدودة.

مسجد تلا شيخ :

كان موعد صلاة الظهر قد حان لذلك رأى الإخوة أن يقوم الوفد بزيارة مسجد (ثلاشيخ) ومعنى تلا: ذهبي..

وهذا أمر كانوا قد قرره ورتبوه من قبل. ويقع المسجد على مقربة من الادارة الدينية وكنا ندخل المسجد والمؤذن يبدأ الأذان فيؤديه بصوت شجي خيل إلى انه النوح بعينه وأنه يمثل نياحة المسلمين على مجدهم الضائع في هذه البلاد المسلمة العريقة. فأنصت للمؤذن الذي كان اذانه فصيحاً إلا أنه يخرج به بتأثر بالغ ربما كان ذلك لما تركته زيارة وفد الحرمين الشريفين في نفسه او نفس اخوته من المسلمين.

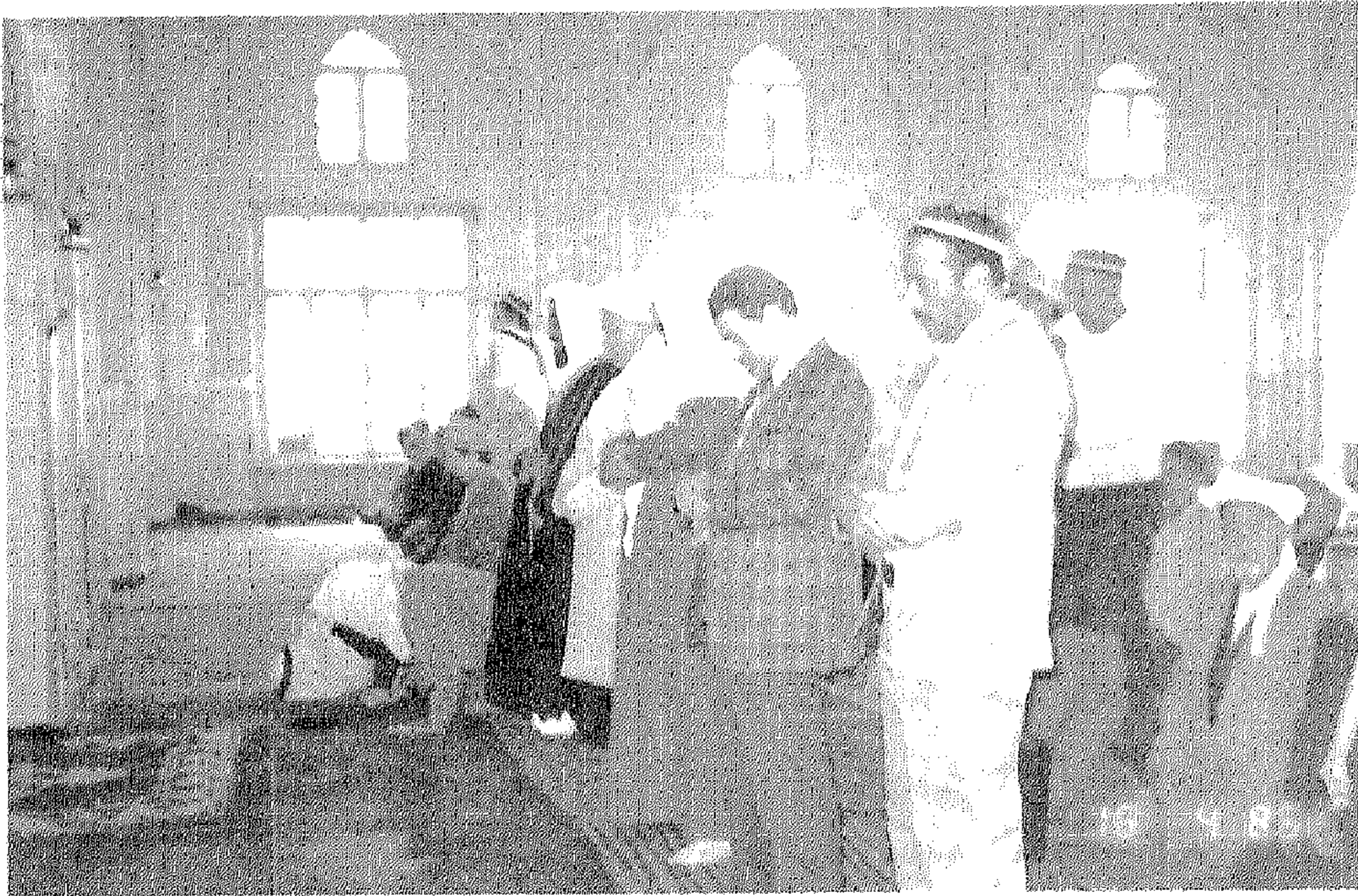


مدخل مسجد تلاشيخ في طشقند

ووجدنا طائفة من المسلمين في المسجد يبلغ عددهم حوالي المائة كلهم من المتقدمين في السن فالقيت فيهم كلمة ترجمها الأخ محمد صادق محمد يوسف نائب مدير معهد الإمام البخاري تضمنت التحية للمسلمين هنا من اخوانهم المسلمين في بلاد الحرمين الشريفين كما تضمنت بيان قوة رابطة الدين بين المسلمين وأنها أقوى من رابطة النسب.

ودعوت لهم بأن يقدر الله لهم الاجتماع بإخوتهم المسلمين من سائر أنحاء العالم في موسم الحج.

وقد ركزت في كثير من الكلمات التي ألقيتها على موضوع الحج لأن الأخوة المسلمين في الاتحاد السوفيتي ممنوعون من أداء فريضة الحج ولا يحج من البلاد كلها إلا وفد لا يزيد عدده على بضعة عشر رجلاً كلهم من العاملين في الإدارات الدينية أو إمامة المساجد وأما سائر المسلمين فإنه لا يسمح لأحد منهم بالحج.



داخل مسجد تلا شيخ في طشقند

وقد ألقى إمام المسجد الشيخ/ عبد الرشيد قارىء كلمة مكتوبة هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين والنبين محمد وعلى آله واصحابه اجمعين. أما بعد،
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

أيها الضيوف الكرام! اسمحوا لي أن أحييكم بتحية الإسلام وارجب بكم باسم مسلمي مسجدنا الجامع تلا شيخ. اليوم بالنسبة لنا يوم الإبتهاج والسرور، لان في هذا اليوم المبارك شرفتم ديارنا انتم ياسادة الكرام وفود «رابطة العالم الاسلامي» برئاسة نائب الأمين العام لها سماحة الدكتور محمد ناصر العبودي (اطال الله تبارك وتعالى عمره وادام الله عز وجل صحته).

لقد قال الله تبارك وتعالى في كتابه المبين استعيذ بالله من الشيطان الرجيم «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم»، صدق الله العظيم.

عملا يقوله تعالى فانكم همتم ان تزوروا اخوانكم في الايمان بالاتحاد السوفيتي. ولهذا نحمد الله تبارك وتعالى ونقول من صميم قلوبنا اهلا أتيتم وسهلا نزلتم بين اخوانكم في الدين! انني اتذكر دائماً لقائي معكم يا سماحة الدكتور ويا أصحاب المعالي في الأراضي المقدسة اذ كنت في من يرافق سماحة مفتينا الموقر في مكة المكرمة في قاعة رابطة العالم الإسلامي. كان هذا اللقاء الاخوي في اثناء الحج عام ١٩٨٤م الميلادي. وبعد عودتي من الزيارة المباركة انني تحدثت هنا في المسجد للمسلمين عن هذه الزيارة ولقائنا معكم.

ولذلك نرجو من الله سبحانه وتعالى ان تستمر هذه اللقاءات الأخوية في المستقبل لصالح الإسلام والمسلمين في جميع العالم.

واخيرا نرجو من الله تبارك وتعالى ان يحفظنا جميعا بمنه وكرمه من كل ما هو كرهه وان يجمع شملنا لاجل ما هو خير وبركة لنا ولاخواننا المسلمين في جميع العالم فأدامكم الله بالخير والعافية في أداء واجبكم المقدس امام المسلمين والعالم الإسلامي.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

امام المسجد / الشيخ عبدالرشيد قارى

ولاحظت أن مسجد (ثلاثشيخ) هذا قد رمم حديثاً أيضاً فعلى محرابه نقوش جصية حديثة كتب عليها (قال النبي صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) صدق رسول الله ١٣٩٧هـ.

والعناية بكتابة هذا الحديث في بلد ليس لأهله الحرية في استقبال الضيوف الأجانب إلا إذا أذنت لهم الحكومة بل يمكن القول بأنهم ليست لهم الحرية في استضافة أي ضيف إلا إذا أو عزت لهم الحكومة بذلك يعطي الأهمية على الانطباع الذي ينبغي في نظر الإدارة السوفيتية ان يكون حسنا في نفوس الضيوف والزوار من المسلمين الذين يزورون هذه البلاد مع ان الذي لا يمكن انكاره ان الجنس التركي في تركستان الشرقية والغربية هم من اكثر الشعوب إكراما للضيف وقد اخبرني الأخ الدكتور شمس الدين انهم بنوا هذا القسم من المسجد حديثاً.

هدية شقائق النعمان :

انتقلنا سيرا على الأقدام من مسجد (ثلاثشيخ) قاصدين معهد الإمام البخاري مخترقين المنطقة التي تقع فيها الإدارة الدينية والمسافة قريبة فاعترض طريقنا احد الاخوة المسلمين وقدم إلّي باقة من شقائق النعمان وهي زهور معروفة تنمو في هذه البلاد سماها اسلافنا العرب شقائق النعمان.

قال الرجل وهو يقدم الزهور: ان هذه الزهور زرعتها بنفسي في بيتي وهي تعبير منى عما اكنه من المودة والتقدير لكم اخواننا أهل الحرمين الشريفين وأقصى ما أتمناه ان تشرفوا بيتي بزيارة قصيرة.

كان يقول هذا ونحن ومن معنا وهم جمهور من الناس وقوف وقال الشيخ الدكتور شمس الدين ان هذا الرجل من عامة الناس واننا لم نعلم بأنه سيقدم هذه الزهور ولكنه فعل ذلك لأنه مثل غيره من المسلمين في هذه البلاد يودون أن يقدموا شيئاً ولو رمزياً إليكم.

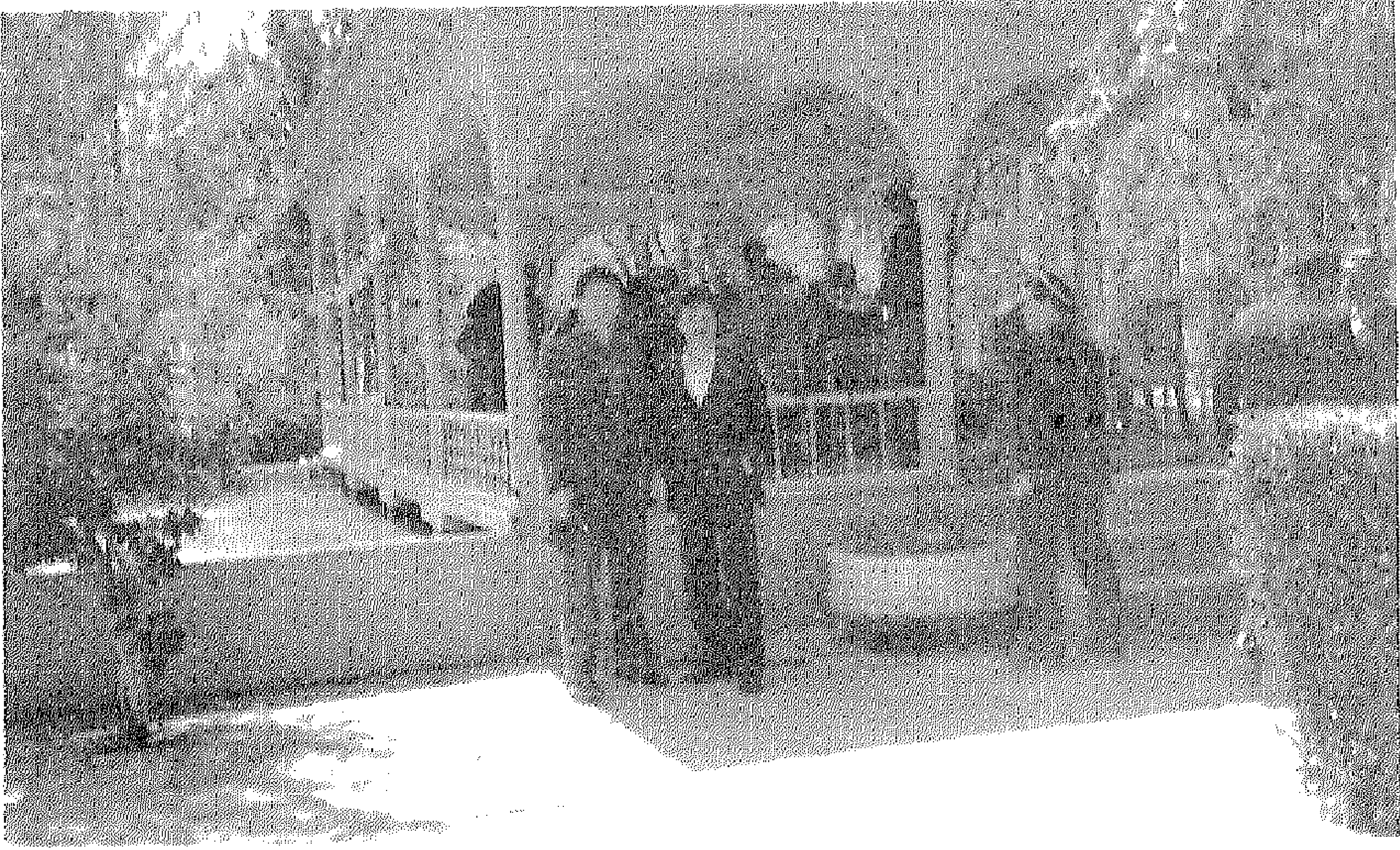


زهور شقائق النعمان التي اهداها أخ مسلم في طشقند

فسألته عن عمله فأجاب بما ترجمه الدكتور شمس الدين بأنه عامل في السكة الحديدية ومما يستحق التنويه به هنا ان عامة الشعب لا يتصلون بنا ولا نتصل بهم إلا إذا كان المصلون في المساجد يعتبرون ممثلين لعامة الشعب فاننا نخطب فيهم، ونوجه النصيحة إليهم، ولكننا لانستطيع أن ننفرد بهم أو أن نسمع ما يريدون أن يقولوه. كما أن هذه الاجتماعات العامة المشهودة من المرافقين المسلمين ومن المرافقين الروس الذين كانوا معنا واستمروا ملازمين لنا طيلة رحلتنا في الاتحاد السوفيتي بصفة أنهم وفد اعلامي مرافق فيهم الصحفيون ومصورو التلفزة وعددهم خمسة كانوا لا يفارقوننا أبداً إلى أي مكان نذهب إليه مما جعلنا نحن نتقيد خلال الاجتماع فيما نقوله ونسمعه لاخواننا بالآداب التي تفرضها الضيافة ومقتضيات اللباقة فلا نوجه من الحديث الا ما نظن انه سيقبل من الاخوة المسلمين، ولا يترتب عليه اية نتيجة عكسية بالنسبة لاخواننا المسلمين.

معهد الامام البخاري :

استقبلنا عند مدخل المعهد جمع من العاملين والطلاب فيه على رأسهم الأخ الشيخ الحاج/ صلاح الدين محيي الدين وقد احتفى بنا حفاوة كاملة وذكرانه لا ينسي استضافة الرابطة له مع وفد حجاج الاتحاد السوفيتي عند ما أدى فريضة الحج.

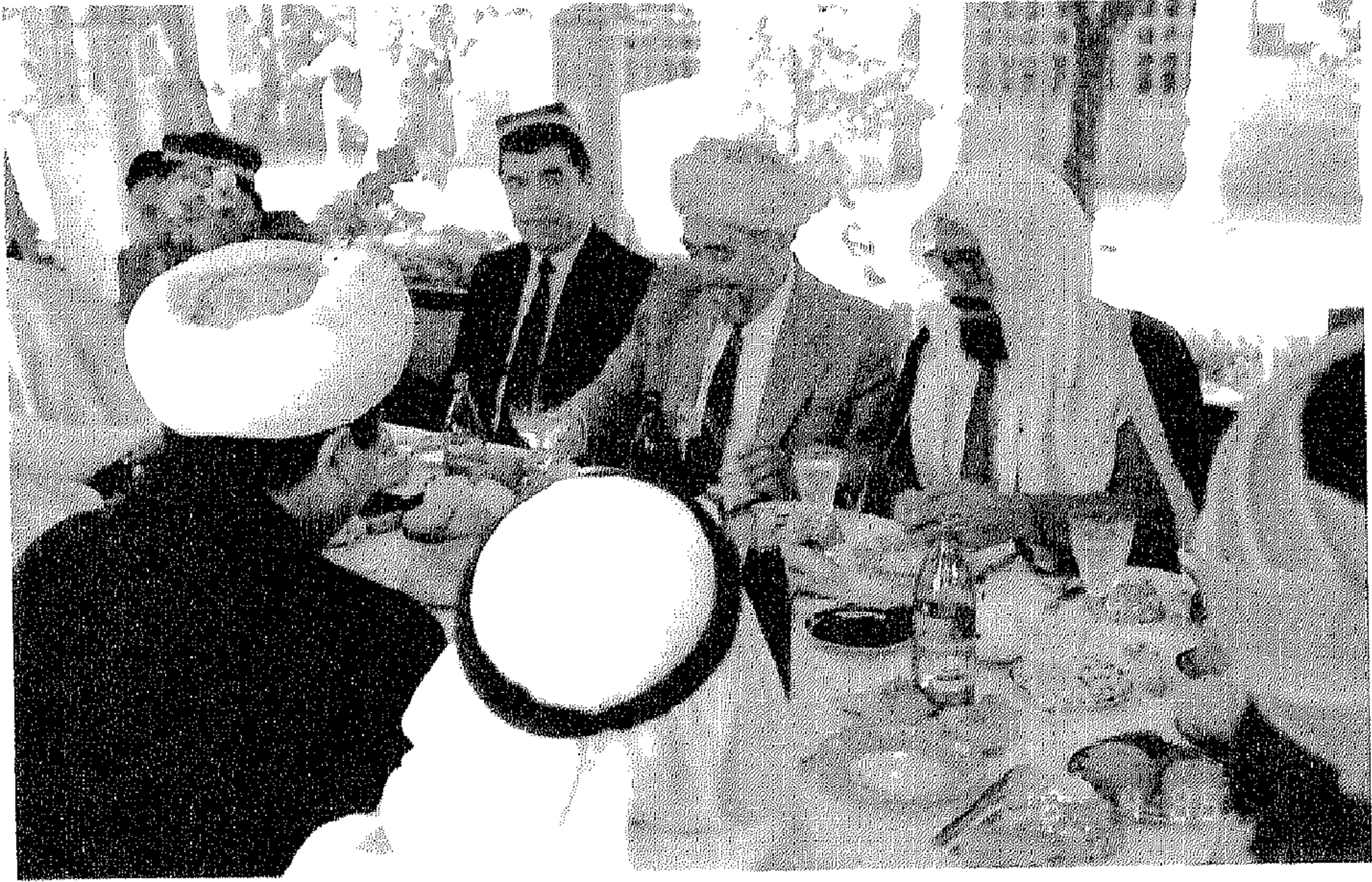


داخل معهد الإمام البخاري

ثم قمنا بجولة على بعض الأقسام فيه والمسجد القديم الذي يقع في ركن منه أمامه رواق قديم ذو أعمدة بنيت على طراز خاص وهو ان يكون وسط العمود اعرض من أسفله وأعلاه ولكن ذلك يكون بشكل متدرج وكأنما هو ساق الانسان ما دون الركبة قليلا إلى مافوق القدم وتقع فصول الدراسة في رواق قديم أيضاً وتشعر كلها مباشرة على حديقة واسعة خاصة بالمعهد مع ان الجو يكون شديد البرد في الشتاء.

ولاحظنا ان طلاب المعهد كلهم يتكلمون العربية بل لا يكادون يتكلمون في المعهد بغيرها لأن لهم لغات أخرى في جمهورياتهم المختلفة التي قدموا منها في الأصل ومع ذلك لا يزيد عددهم على ٥٨ طالباً يفترض ان يسدوا

حاجة المسلمين المتزايدة إلى أئمة المساجد والعاملين في الإدارات الدينية وهو المعهد الإسلامي الوحيد في الاتحاد السوفيتي من مستواه وهناك مدرسة هي أقل منه مستوى وأقل عدداً وهي مدرسة ميرعرب في بخارى وفيها ٣٥ طالباً وفي معهد الإمام البخارى هذا ستة طلاب من أفغانستان جاؤا بعد قيام الحكومة الشيوعية فيها واثنان من أبناء المسلمين البلغاريين.



أثناء المأدبة في معهد الإمام البخاري الإسلامي في طشقند

ووجدناهم اعدوا مائدة غداء طويلة للجميع تحت مظلة في ساحة المعهد.

وخلال المأدبة تحدثت عن هدف زيارة الوفد للاتحاد السوفيتي بأنه الاطلاع والتعرف على حياة المسلمين في الاتحاد السوفيتي والتعاون معهم في ميدان الثقافة الإسلامية.

ثم وجه بعض الطلاب اسئلة عن اعمال الرابطة وعن العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية وموقف المملكة العربية السعودية من أفغانستان.



جانب من المأدبة في معهد الإمام البخاري في طشقند (من اليسار) الشيخ عبدالله البارفلاستاز سالم السالم فالدكتور سعيد باديب.

وقد أجبته عن أعمال الرابطة ونشاطها في ميدان الدعوة الإسلامية وإن الرابطة هيئة إسلامية عالمية وليست إدارة حكومية وإن كانت حكومة المملكة العربية السعودية تساعد على أداء أعمالها كما تساعد غيرها من الجمعيات الإسلامية وإن الوفد هو من رابطة العالم الإسلامي وليس من وزارة الخارجية السعودية وإنما يستطيع الوفد أن يقول بأن اختلاف النظام وغياب العلاقات الدبلوماسية لا يعيق الرابطة من ممارسة نشاطاتها الثقافية والدينية ومثال ذلك أن بعثات الحج السوفياتية تقوم بإداء فريضة الحج سنوياً على ضيافة الرابطة وقلت إن علاقة المملكة لم تكن سيئة مع الشعب الأفغاني حتى تتحسن.

السلام على القفال الشاشي :

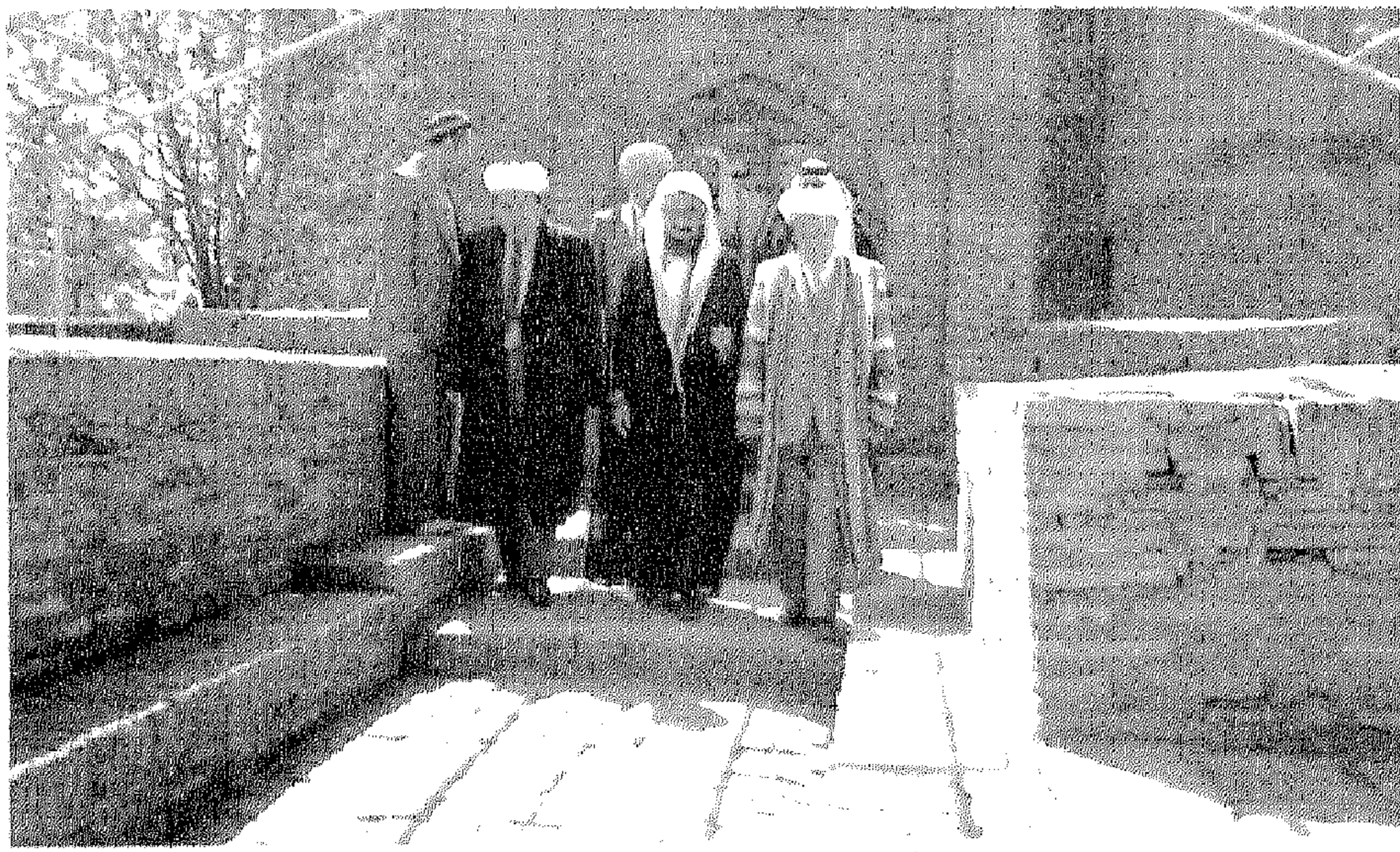
القفال الشاشي ويقال له القفال الكبير: أحد علماء الشافعية المشهورين ونسبته إلى الشاش تعطينا دليلاً إضافياً إلى ما هو معروف من أن كلمة طشقند أو (تاشكند) بالتركية معناها بلدة الشاش، أو بلاد الشاش. لأن (تاش) معناها حجر، وقد محرفة عن كلمة كند التي تعني بلدة أو مدينة.

مثلاً ان معنى كلمة (سمرقند) الذي هو اسم المدينة المشهورة في القديم يعني بلدة أو بلاد (سمر) وسمر تعني بالتركية القديمة غنية أو سمينه، ويقال: ان كلمة سمرقند محرفة عن لفظ سميز كنت بمعنى البلدة الغنية.

وإذاً تكون التسمية بطشقند رغم عدم ورودها في كتب اسلافنا العرب مشتقة من معنى صحيح وهي انه بلاد الشاش.

وتسمية الشاش كما يعرفها المؤرخون والبلدانيون العرب الذين كتبوا كتبهم بالعربية هي منطقة الشاش وليست مختصة ببلدة واحدها اسمها الشاش.

أما الامام الفقيه الشاشي الكبير الذي توفي في عام ٣٦٥هـ ودفن في هذا المكان من بلاد الشاش فإن المتأخرين المبتدعين قد بنوا فوق قبره قبة وزخرفوا داخل القبر وصار بعض الكبار يدفنون بجانبه ومن المدفونين قربه ولكن في فناء مكشوف الشيخ ضياء الدين بابا خانوف والد صديقنا ومرافقنا في هذه البلاد الدكتور شمس الدين بابا خانوف وكان رئيس هذه الادارة الدينية قبله وقد توفي عام ١٩٨٢م اي منذ ٤ سنوات.



في ضريح الإمام القفال الشاشي في طشقند

وقبره مسنم من الطين بحيث لم يزد على الحد الشرعى المعروف في بلادنا وليس مرفوعا عن الأرض.

وقد جلس الجميع وقرأ احدهم آيات كريمة عند القبر فانتهزت الفرصة بعد ذلك لبيان المفاصد التي تنشأ عن مخالفة الشرع في البناء على القبور، واتباع المبتدعين في هذا الأمر وأن الدين الإسلامى بنقائه وصفائه لا يحيز تعظيم القبور، أو رفع الأبنية فوقها فضلاً عن التماس النفع والبركة منها، لأن صاحب القبر قد انقطع عمله بموته فأصبح بحاجة إلى من يدعوه ويستغفر له وصار لا يملك من أمره شيئاً لذلك كيف يطلب منه أن ينفع الأحياء وربما كانت مثل هذه الكلمات القليلة أول الكلام الذي سمعوه عن هذا الموضوع.

طشقند المدينة القديمة :

انطلق الموكب من الادارة الدينية التي تقع في منطقة (ايستي شهر) اي المدينة القديمة مع ازقة غير واسعة معظم بيوتها من طابق واحد مبنية بالطين المطلي بطلاء أبيض كالجص يعطيه مظهراً جميلاً.

واسفل حيطان البيوت الطينية من الفخار من أجل ان يقي الطين رطوبة الأرض، وهذا مثلما كنا نفعله في بلادنا عند ما كنا نبني بيوتنا من الطين. ونجعل في اساساتها حجارة تقيها شر الرطوبة.

واكثر هذه البيوت غير بهيجة المنظر بسبب استحالة طلاؤها وعدم العناية بها وذكرني مرأى بعضها بالبيوت الطينية القديمة التي رأيته في مكان بعيد عن هذا المكان في حساب المسافات وهو مدينة (أو رومسي) عاصمة تركستان الشرقية.

ومن المظاهر العجيبة في هذا الحي القديم ذي البيوت القديمة مارأيته فيه ولم أره في مكان قبله من العالم. وهو انابيب الغاز الطبيعي التي ادخلت

إلى البيوت بانابيب تشبه انابيب المياه الضيقة ولكنها ممتدة في الشوارع وداخله إلى البيوت من انابيب ظاهرة للعيان تشوه منظر البيوت لأنها مرفوعة عن الأرض.

ورأيت في هذه الأحياء طائفة من النسوة المسلمات من البخاريات وقد تمسكن باللباس الساتر الذي لا بد ان يغطي فيه شعر الرأس ولكنهن أقل في هذا الأمر من أخواتهن في تركستان الشرقية اللائي يتمسكن حتى بالحجاب في بعض الأحيان أما بالنسبة للشابات من النساء فإنه لا حجاب.

وسرعان ما خرجنا من هذه الأحياء القديمة من مدينة طشقند التي كنت أتمنى ان تبقى فيها فترة أطول من الوقت، وان أتمكن من تصويرها والحديث إلى أهلها المسلمين ولكن ذلك غير ممكن لأنه لم يوضع في البرنامج فألفينا أنفسنا في ميدان واسع أخضر لأن الأشجار كما قلت قد استكملت اخضرارها بعد موت الشتاء الطويل بخلاف أشجار موسكو التي كانت عندما رأيناها لا تزال هامدة لم تخلع عنها رداء الدخان الشتوي الطويل.

وقد تفتحت الأزهار في هذا الميدان البالغ الاخضرار وكأنما تبتسم لشمس الأصيل من هذا النهار الجميل.

ومن المفاجئي لي أن قال لي اخواني: إن هذا الميدان اسمه (ميدان خضره) بفتح الحاء بلغتهم وتعني الميدان الأخضر.

ثم انطلقنا مع شوارع واسعة أكثرها أقيم ونسق بعد الزلزال الذي أصاب طشقند فغدت هذه الشوارع كأنما هي جزء من مدينة حديثة لاعلاقة لها بتاريخ تركستان العريق او شعبها المسلم المجيد.

معرض الانجازات لشعب اوزبكستان :

هكذا ذكروا اسمه في برنامج الزيارة وذكروا أنه اشبه مايكون بالمتحف او المعرض لما انجزه شعب تركستان الغربية الذي يسمونه هنا شعب

(اوزبكستان) ليفرقوا بينه وبين بقية الشعب التركستاني والا فإن الازيك هم في الحقيقة جزء من شعب تركستان العريق الذي ينتمي جميعه إلى أصول تركية واحدة.

سار الموكب في الساعة الخامسة قاصداً المعرض تتقدمه سيارة عسكرية تطلق نفيرها المعتاد وتخرق والموكب خلفها إشارات المرور المغلقة وتقف السيارات لتفسح لها الطريق ولو كان لها حق المرور.

ووقفنا على مشارف المعرض الذي احتفوا به احتفاء عظيمًا، حتى إنهم جعلوا أمامه فناء مكشوفًا مفروشًا بالرخام بمساحات واسعة تصل إلى حد الإسراف ورفعوه عن أرض رصيف الشارع بحيث تصعد إليه عدة درجات مع درج عريض، بل في عرض الفناء المرصوف الذي يصل عرضه إلى حوالي مائة متر.

ثم من هذا الفناء المكشوف المفروش بالرخام تصعد مع درج عريض أيضاً إلى فناء آخر مثله أو أوسع منه ولكنه أفخر في رخامه وترتيبه.

وكل ذلك من أجل أن يشعر الداخل إلى المعرض أنه يدخل إلى مكان محترم ربما كان من أكثر الأمكنة احتراماً في تفكير الذي أقاموه من رجال الإدارة في هذه البلاد الذين هم من الشيوعيين أو من الذين يوجههم الروس من أهل البلاد وذلك لأنه يوضح ما قام به شعب اوزبكستان من الإنجازات المادية وما يتعلق بها.

وصلنا مدخل المعرض بعد سير طويل في هذه الأفنية المكشوفة التي سبقت الوصول إليه فاستقبلتنا فيه امرأة وقور في حدود الأربعين من عمرها قد ارتدت لباساً محتشماً فقدموها لنا بأنها (مبارك) مسئولة في المعرض.

هكذا اسمها (مبارك) وليس مباركة وعلمنا أنهم يسمون الاناث باسم (مبارك) إما لكونهم لا يفهمون الفرق بين اسم المذكر والمؤنث من هذه اللفظة وإما لكونهم يريدون به المولود المبارك ولو كان انثى.

تقدمتنا (مبارك) بشئ من الحفر والاستحياء، الذي تتميز به بنات المسلمين حتى في البلدان الشيوعية في بعض الأحيان.

واخذت تطوف بنا أنحاء المعرض الذي اشتمل على الانجازات الصناعية مما رأينا بعضه معتاداً لا يستحق كل ما احاطوا به المعرض من اهتمام.



الوفد في معرض المنجزات الاقتصادية لشعب اوزبكستان

ومن أهم المنجزات الصناعية المنسوجات والأدوات الفخارية وأثاث البيوت والآلات الصغيرة المختلفة من المنتجات الزراعية والتعدينية.

ثم قدمت احصاءات مكتوبة عن بعض الأشياء المتعلقة بما تنتجه هذه الجمهورية فقالت: تبلغ مساحة اوزبكستان ٤٤٧ ألف كم^٢ وسكانها ١٨ مليون نسمة وبها ١٢ محافظة وجمهورية ذاتية هي جمهورية قره قلبقستان المتمتعة بالحكم الذاتي وفي اوزبكستان ٤٢ معهداً عالياً وثلاث جامعات هي طشقند وسمرقند ونوخوس و ٢٥٠ معهداً صناعياً ومهنياً وتسعة آلاف مدرسة و ٣٦ اكااديمية علمية وتوجد بها ١٧٥٢ مؤسسة صناعية تنتج ١٨٠ نوعاً من الصناعات الخفيفة والثقيلة والمتقدمة والقطن هو المحصول الاساسي في الزراعة إذ يبلغ انتاجه خمسة ملايين طن في السنة بنسبة ٦٥٪ من انتاج القطن الكلي في الاتحاد السوفيتي كما تنتج اوزبكستان الأرز.

وقالت ايضا: إن في اوزبكستان ١٣٠٠ دكتور متخصص في كافة العلوم ومعظمهم من خريجي جامعات المنطقة وتطبع في اوزبكستان ٢٥٠٠ عنواناً من الكتب المختلفة التي يبلغ عدد نسخها ٤٥ مليون نسخة سنوياً وخمسة معاهد طبية وخمسة عشر معهد بحوث و٢٣ معهداً للتمريرض وتقوم الدولة برعاية ٢٥ مليون متقاعد ويقارب المواطنون المشتركون في الحروب الوطنية والذي لهم خدمات وطنية كبيرة لها خمسة عشر ألفاً وتقدم الخدمات الاجتماعية والثقافية تقديراً ورعاية خاصة من الدولة ويقدر عدد هؤلاء بمائة ألف شخص.

وهذه الاحصاءات التي ذكرتها هي بالنسبة الينا أرقام مجردة لانستطيع التأكد منها إلا بدليل آخر وهو ما لم يتوفر لنا لكوننا لانستطيع الاختلاط بالشعب، ومعرفة الأخبار عن الأوضاع الداخلية ومشاعر السكان تجاهها.

المسلمون يزدون :

لفت نظري من المعرض لوحة اشارت إليها المسئلة (مبارك) من دون اهتمام كبير وتمثل امرأة مسلمة تجلس وسط عدد من الناس اكثرهم من الشبان أو الصغار وقالت: ان هذه رقية بنت عثمان التي انجبت للوطن اربعة عشر ولداً هم هؤلاء الذين يحيطون بها وتذكرت بهذه المناسبة ما كنت قد قرأته وعرفته من قبل. وهو أن الإخوة المسلمين في الاتحاد السوفيتي يتزايدون بنسبة أكثر من التي يتزايد بها عدد الروس خمس مرات.

فسألت (مبارك) عما اذا كانت لديهم إحصاءات عن نسبة المواليد في هذه البلاد لأنها ذكرت احصاءات عديدة عن أشياء كثيرة لاندري صحتها.

فقلت: نعم، لدينا احصاء مهم في هذا الأمر وهو ان في جمهورية اوزبكستان هذه مائة ألف بطلة من بطلات الاتحاد السوفيتي والبطلة هي المرأة التي تلد عشرة اولاد فتحوز على لقب بطلة الاتحاد السوفيتي ويعطيا هذا بعض المميزات في استعمال المرافق العامة، كالحافلات والقطارات مثلاً إلى جانب أمور أخرى.

جولة على المساجد :

لموضوع المساجد وزيارتها ومشاهدة حالها في البلدان الشيوعية معنى آخر غير المعنى الذي تعنيه رؤية المساجد وتفقدتها في البلدان الحرة لأن حالة المساجد في البلدان الشيوعية التي صادرت المساجد في عنفوان قوتها الشيوعية أو صادرت أكثرها وانكرت على المسلمين ارتيادها للصلاة إنما تعطي صورة ولو كانت غير واضحة عن مدى الحرية التي يتمتع بها المواطنون المسلمون فيها. لأن الصلاة هي أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين وعمارة المساجد سواء بالبناء أو عمارتها بالصلاة من أهم الأمور التي يحرص عليها المسلمون.

وقبل الجولة كان الدكتور شمس الدين بابا خانوف قد أخبرنا ان المساجد المفتوحة للصلاة في طشقند يبلغ عددها خمسة عشر مسجداً مع العلم بأن عدد سكانها يبلغ مليوني نسمة حوالي ٣٠٪ منهم من غير المسلمين هاجروا من انحاء الاتحاد السوفيتي إليها وسكنوا فيها وينتمون إلى أصول روسية وأكرانية.

وكانت مدينة طشقند قبل الاحتلال الشيوعي فيها مئات المساجد وحتى الآن فإن جمهورية اوزبكستان التي عاصمتها طشقند فيها أكبر عدد من المساجد الموجودة في الاتحاد السوفيتي كما قال رئيس مجلس السوفييت الأعلى في طشقند لنا يوم أمس من أن في الاتحاد السوفيتي ثلثمائة مسجد منها في جمهورية اوزبكستان ٨٢ مسجداً.

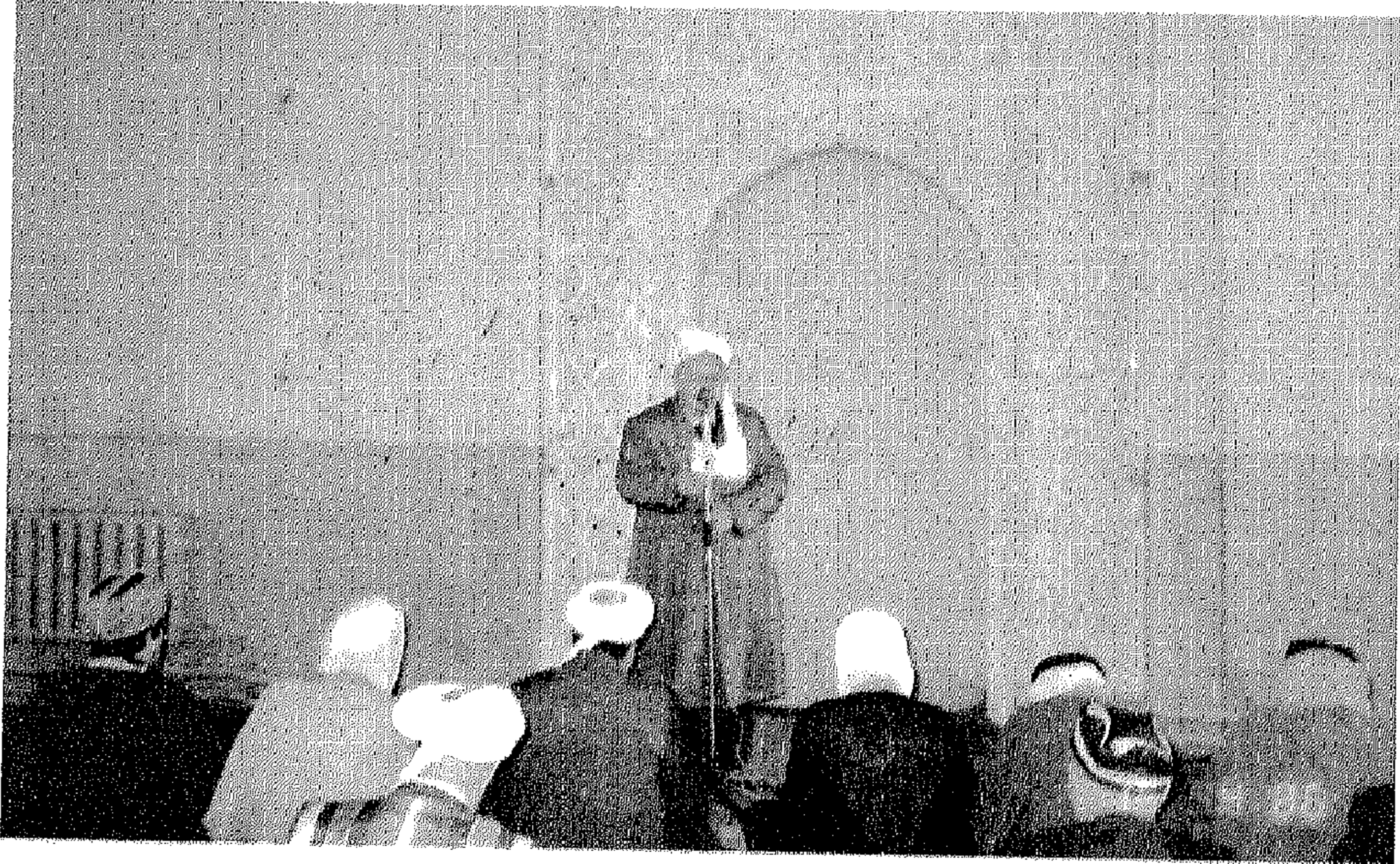
وقد تبين لنا ان المساجد الخمسة عشر التي ذكرها الدكتور شمس الدين إنما هي في طشقند وضواحيها إذ كان مارأينا من المساجد خارج المدينة منها.

مسجد راه كنت :

توجهنا إلى جولة المساجد مباشرة من معرض الانجازات (المادية). مع شوارع طشقند الرئيسية الواسعة التي اعتدنا المرور بها او بمشيلاتها و يكثر فيها سير الحافلات العامة التي تنقل الناس بأجور رخيصة تعويضاً لهم عن عدم وجود السيارات الخاصة عند أكثرهم كما توجد فيها خطوط قطارات الكهرباء (الترمواي) التي اختفت من كثير من المدن في العالم كما تكثر فيها الحافلات الكهربائية (التروللي باص).

ويلاحظ المرء هنا كثرة الذين هاجروا من انحاء الاتحاد السوفيتي إلى هذه البلاد الإسلامية وهم بمظهرهم الأوربي يشبهون الأوروبيين الغربيين ماعدا المسنين من الجنسين الذين ينتمون إلى الشعب الروسي فانهم يتميزون بأجسام ثقيلة، وتقاسيم في وجوههم غليظة.

وصلنا مسجد (راه كنت) في احدى ضواحي طشقند على شارع يسمى شارع عبدالله اولانى فاستقبلنا جمع من الإخوة المسلمين على رأسهم امام المسجد الشيخ عبدالله حمد.



الشيخ عبدالله حمد إمام مسجد راه كنت في طشقند يلقي كلمة ترحيب بوفد رابطة العالم الإسلامي

وقد سلمنا على الجميع و يظهر انهم كانوا قد جمعوا اهل المحلة او بعض المصلين منهم لهذه المناسبة فألقيت فيهم كلمة مناسبة في المسجد ثم تجولنا في مرافق المسجد.

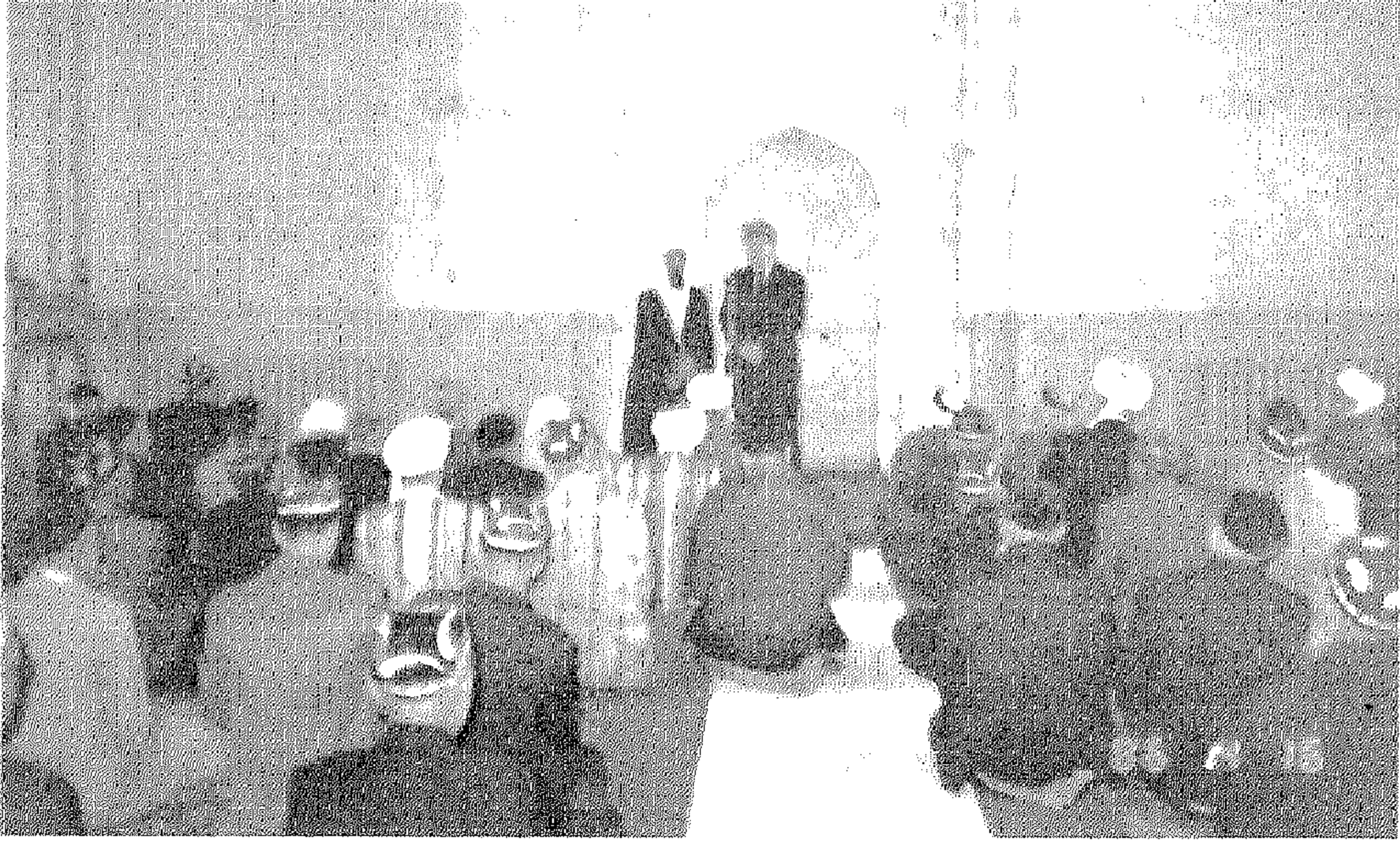
وقد لاحظنا أنهم هنا كأهل الصين لا يقتصرون في بناء المساجد على المسجد الذي يصلى فيه كما هو معروف عندنا و يكون في العادة خلفه او بجانبه فناء مكشوف قد يستعمل أيضاً للصلاة عند الحاجة، ولكنهم يجعلون المسجد اشبه مايكون بمجمع سكني ففيه المصلى الرئيسي المعروف تفتح أبوابه إلى حديقة كبيرة، وأفنية واسعة تكون فيها غرف لأغراض متعددة وبعضها يكون سكناً للإمام المسجد او المؤذن.

وجلسنا في غرفة مستطيلة من احدى ملحقات المسجد داخل حديقته إلى مائدة طويلة وجدناها قد جهزوها بالمقבלات والمكسرات والفاكهة المجففة وهى شبيهة بالموائد التي تسمى حفلات الشاي تكون في غير اوقات الوجبات من الطعام المعتادة.

مما ذكرني بما يفعله أهل تركستان الشرقية عندما كنا نزورهم في مساجدهم دون أن يكون الوقت وقت عشاء او غداء فيقدمون مثل هذه الموائد الحافلة وبخاصة عندما رأيتم وضعوا على المائدة هنا سكر النبات كما كان التركستانيون الشرقيون يضعونه لا يكتفون بالحلوى عنه.

وحدثنا إمام المسجد عن عدد المصلين فذكر انه في الصلوات الخمس المعتادة يكون في حدود الثلاثين الا في صلاة الفجر فيزيد قليلاً على ذلك قال: وأما صلاة الجمعة فيرتفع عدد الذين يحضرونها إلى ألف مصلٍ.

وذكر أن هذا المسجد أقيم قبل ٢٥ سنة وقال: ان بناءه كان عام ١٩٦١م. ولم يذكر ما اذا كان أقيم في مكان مسجد قديم كانت الحكومة قد صادرتة كما هي حال بعض المساجد التي قالوا: انها بنيت حديثاً فهي في الحقيقة قد رمت ترميماً بعد أن اعادتها الحكومة إلى أهلها المسلمين. وذلك حدث بالفعل ولكن على نطاق ضيق.



المؤلف يتكلم في مسجد راه كنت في طشقند

وقد قدمنا له هدية شخصية هي مصحف كريم وللمسجد مصحف أيضاً واهديناهم مع كبار المصلين عدداً من المناظر الجميلة للحرمين الشريفين وهي شئ له قيمته عندهم لأنها لا توجد في بلادهم للبيع ولا يسمح بدخولها إليها.

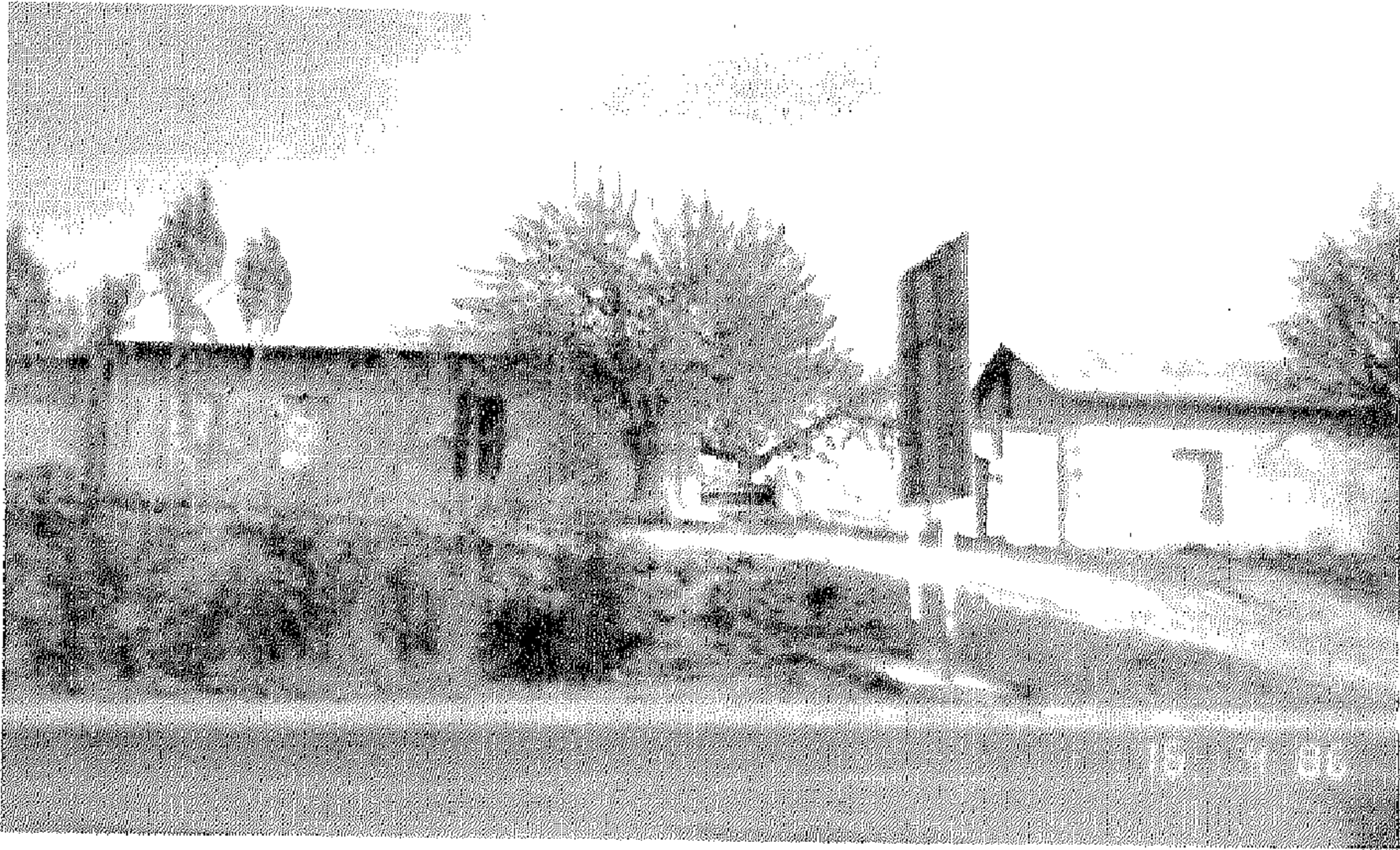
في ريف طشقند :

سنزور مدينة اسمها عندهم (قاوون جي) ويعني ذلك مزارع البطيخ أو (البطيخي) المنسوب للبطيخ وذلك ان البطيخ اسمه عندهم (قاوون) و(جي) اداة نسبة في التركية نعرف منها ما لايزال مستعملاً في بلادنا قبل (قهوجي) اي صاحب القهوة وعرجي صاحب العربة وكنت أبدت رغبتني للأخ الدكتور شمس الدين بابا خانوف في رؤية ريف من ريف هذه البلاد (الشاشية): نسبة إلى ناحية الشاش التي كانت تعرف بها المنطقة في كتبنا العربية القديمة. فرتب هذه الزيارة للمسجد مع المرو بالريف.

وتبلغ المسافة إلى أقصى نقطة هنا ٣١ كيلومترا فقد ذكروا ان الوقت متأخر على زيارة الأماكن الأبعد من ذلك.

انطلق الموكب من طشقند وهو مؤلف من رتل من السيارات تتقدمها السيارة العسكرية المعتادة وبعدها سيارة رئيس الوفد كاتب هذه السطور وهي سوداء رسمية طويلة كالتى يركبها الضيوف الأجانب ممن هم في رتبة وزير أو رئيس وزراء.

فتركنا طشقند متجهين جهة الغرب وكان الجو صاحيا وكأنه جو الربيع في مدينة الرياض ولا أثر للبرد الذي خفناه في هذه الأيام بل ان المرء يشعر بالحر إذا كان في مكان مغلق النوافذ.



منظر من الطريق في طشقند

وقد سلكنا طريقا ازفلتيا ذا اتجاهين إلا أنه خشن يحتاج إلى المزيد من العناية والاصلاح يشق ريفا معموراً بزراعة اكثرها حقلية.

وأهم ما فيه القطن الذي بذروه لتوه. ولم يظهر من الأرض بعد فهذه الأيام الربيعية هي أيام بذر القطن وهذه المنطقة تشتهر بانتاج القطن الوفير.

وتبدو المزارع أو الحقول بمحدودها مقسمة إلى نوعين احدهما المزارع الكبيرة الواسعة وهي مزارع حكومية (اسوفخوز) أو مزارع تعاونية أو جماعية (كلوخوز).

والنوع الثاني مزارع صغيرة يتضح ذلك من ضيق حدودها ومن وجود بيوت صغيرة في اطرافها.

وقالوا لنا : ان هذه المزارع الصغيرة المحدودة هي ملك لعامة الناس يجوز لهم النظام أن يزرعوها بأنفسهم و يبيعوا مايزيد عن حاجتهم مما تنتجه وان ينوا على جزء منها بيتا لهم ولكن لايجوز لمن يملكها أن يبيعها أو يبيع البيت وحده وإنما يورثها صاحبها لاولاده من بعده إذا لم تكن لهم اراض قبلها او ليس لهم بيت خاص بهم واذا كان الأمر خلاف ذلك بمعنى أن الوارث كان له بيت خاص سواء كان بيتا ريفياً مستقلا او بيتا حكوميا من الشقق التي تؤجرها الدولة كان عليه ان يتخلص من احد البيتين ضمن مدة حددها القانون والا صادرت الحكومة البيت الجديد لأن القانون لايجيز للمرء أن يملك أكثر من بيت واحد.

ومن المناظر الجميلة في هذا الريف منظر حدائق التفاح التي اورقت اشجارها وهي في صفوف منتظمة، وكلها مزارع تعاونية أو مزارع حكومية.

وكان منظر المصانع ذات المداخن التي تنفث الدخان، وذات الابراج منظراً مألوفاً في ضواحي المدينة وحتى في هذا الريف، حيث تقام على الطريق العام، لأن الطرق العامة المزفلة ليست كثيرة عندهم كثرتها في ريف البلدان الغربية وحتى البلدان ذات الرواج الاقتصادي مثل بلادنا وكذلك كان منظر أبراج الكهرباء مألوفاً شاهدناه اكثر من مرة غير أن الأبراج كانت في منظر غير أنيق بعضها قد بعد عهده بالطلاء حتى بدا كأنما قد علاه الصدا وهي أصغر من أبراج الكهرباء التي ترى في الريف الأمريكي او حتى من ابراج الكهرباء الحديثة عندنا.

مدينة زارع البطيخ:

اعترض الطريق العام الذي كنا نسير عليه وذكروا انه يصل من طشقند إلى سمرقند طريق آخر ذاهب جهة الجنوب ويسمونه «بنكي يول» أي

الطريق الجديد وقد أقيمت عليه مجموعة من المنازل الفت قرية صغيرة سميت باسمه (ينكي بول) فتيا سرنا معه قاصدين قرية (زارع البطيخ) أو «مدينة (قاوون جي) كما يسمونها.

فكان أول ما وصلناه من بيوت هذه المدينة بيوتاً من الطين المطلي بالحص او مادة بيضاء والمسقة بالصفيح على هيئة سنام، وبعض البيوت مبني من الطين ومترك دون طلاء والأهم من ذلك اننا شاهدنا النسوة في شوارعها وهن البخاريات المستترات اللائي يضعن عل رؤسهن المناديل التي تغطي الشعور مما يعطي الانطباع الصحيح بأن هذه المدينة مدينة للمسلمين التركستانيين أهل البلاد الأصلاء، وليست مثل طشقند التي غلب الطابع الحديث على أبنيتها فأبعد عنها طابعها الإسلامي العريق وصار الكفار من الروس والأكرانيين يغالبون أهلها على مظهر السكان ليكونوا كطابع البناء لاصلة لهم بالجنس التركي المسلم المجيد. ولكن (أمر الله غالب والله جنود من مواليه) فالمسلمون هنا يدافعون عن بلادهم بأسلحة أعطاهم السوفييت لشعبهم فاستعملها المسلمون دونه ومن أهمها سلاح التكاثرفي الأنسال التي أرادوا ان يزيروا به بلادهم قوة إلى قوة الصناعة والسلاح.

ووقف الموكب عند مسجد (آلتون آباد) حيث وجدنا في الاستقبال عدداً كبيراً من الاخوة المسلمين من اهل القرية يتقدمهم امام المسجد الشيخ (عارف يولداش).

واجتمع الوفد مع كبار جماعة المسجد وامامه ومؤذنه على مائدة كبيرة أقاموها في غرفة ملحقة بالمسجد حفلت بالمقبلات والثقل الذي صار عوام الكتاب عندنا يسمونه بالمكسرات وبطيخ من العام الماضي فذكرني هذا ببطيخ كان بنو عمومهم في تركستان الشرقية يقدمونه لنا في مثل هذه الأيام من شهر ابريل عندما ما كنا في زيارتهم قبل عامين تماماً وكان الجو عندهم بارداً ولكنهم ذكروا لنا أن هذا البطيخ من انتاج العام الماضي حفظوه في غرف تحت الأرض ويبقى دون ان يفسد بسبب شدة البرد عندهم.

واليوم جاء به هؤلاء الاخوة وهو من انتاج العام الماضي الذي حفظوه بما لم يخبرونا به ولكنه أكد لنا اسم المدينة (قاوون جي) الذي يعني زارع البسيطخ فهو لم يقتصر على زراعته وأكله في موسمه كما يفعل الناس في سائر المزروعات من الخضروات في القديم وانما حفظوه إلى هذا العام.

وهناك تفاح وكمثرى ولبن رائب وخبز وخضرات إلى جانب المشروبات التي منها عصير الفاكهة والماء المعدني الذي احضروه من طشقند.

ثم الشاي الأخضر وهم في عاداتهم أن يقدموا للضيف الشاي أكثر مما يقدمون له القهوة وهذا أمر عرفناه من بني عمومته في تركستان الشرقية ومن جيرانهم في الصين.

وجرى خلال المائدة حديث عن شئون هذه البلاد التي يسمح بالحديث عنها. لأن للحديث حدوداً في البلدان الشيوعية لا تجوز مجاوزتها فكان الحديث عن الري في هذه المدينة الزراعية فذكروا انه من قنوات مائة وان اكثر المزروعات لابد من ان تروى بالماء ولا تقتصر على المطر.

ومن الأحاديث المفيدة مايتعلق بالمسجد فقالوا: انه بني قبل ست سنوات، وانه نقل من مكان كان فيه قديم إلى هذا المكان بمعنى ان المسلمين عوضوا عن القديم بهذه الأرض التي اقاموا عليها هذا المسجد وأنه اكتمل بناؤه في عام ١٩٨١م وكل نفقات البناء تمت من تبرعات المسلمين.

وقالوا ان عدد سكان مدينة (قاوون جي) وضواحيها يبلغ ثمانين الف نسمة كلهم من المسلمين.

وبعد المائدة كانت جولة على المسجد الذي يتبعه مرافق متعددة وتحيط به حديقة واسعة فيها أشجار مثمرة وأخرى من أشجار الظل كانت موجودة في الأرض قبل عمارته.



في مسجد آلتون - آباد «الجامع بمنطقة» ينكي بول

وحاولت ان أصور أشياء مما يحيط بنا في القرية أو من مناظر سكانها أو بيوتها الطينية، لكن كانت عيون المرافقين الروس وبخاصة الوفد الاعلامي تلاحقنا بحجة تغطية الرحلة تغطية اعلامية والامر كذلك إذا كان المراد به إعلام المسئولين عندهم ومن يهمهم الأمر بكل حركة من حركاتنا فكانوا يلاحقونني بعدسات التelfزة التي تصور كل شيء ولم أر من اللائق أن اقوم بتصوير مالا يريدون تصويره فأعرض نفسي لمخالفة قواعد اللياقة في الضيافة أو أعرض نفسي لتصرف غير مناسب منهم قد يضطرون إليه.

وكذلك الأمر بالنسبة للاخوة المرافقين من أعضاء وفدنا الذين لم يستطيعوا الانفراد بأنفسهم او الذهاب إلى ما يريدون الذهاب إليه لتصويره لكثرة المرافقين.

ورأينا بعض بيوت القرية الطينية اي التي بنيت من الطين قد جعلوا لها سقوفاً مائلة إلى جهة واحدة وليست مسنمة كاملة التسنيم وذلك من أجل ان تنزل عنها الثلوج عندما تسقط عليها في الشتاء.

وهذه عادة رأيها شائعة في تركستان الشرقية وفي شمال الصين الشعبية
وذكرت ذلك في كتاب: «في مهد «الترك» الذي كتبه عن زيارتي
لتركستان وكتاب «داخل أسوار الصين».. الذي ألفته عن رحلات داخل
الصين الشعبية.

ومن الأشياء التي استرعت انتباهي هنا ان بعض حوائط المدينة التي
هي اسوار بعض الاماكن المهمة فيها مبنية من الطين غير المطلي وقد ذكرتني
بما كان موجوداً في بلادنا قبل حوالي أربعين سنة.

وشيء آخر ذكرني ببعض ما في بلادنا وهو منظر مقبرة للمسلمين خالية
من البناء عليها تماماً وإنما وضعوا على القبور شواهد من الحجارة ليس عليها
غيرها.



مع المسلمين في جامع التون - اباد

إلى محلة كما لان :

ودعنا اخوتنا الكرام أهل (قاوون جي) وتحرك الموكب متجها جهة
أخرى خارج مدينة طشقند حيث وصلنا إلى (محلة كما لان) ويسمونها (كما

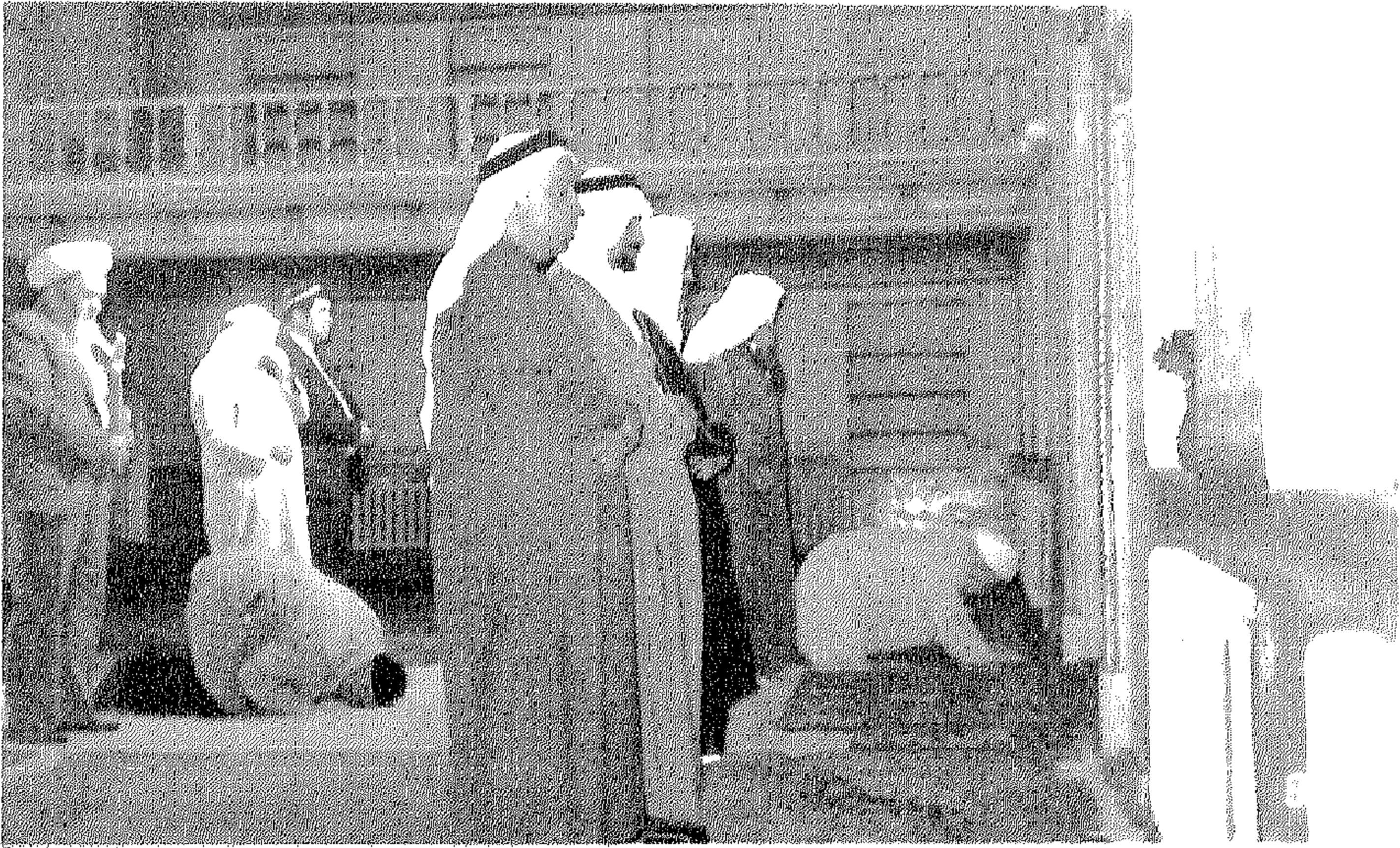
لان محلة سي) ومحلة في لغتهم هي محلة العربية بمعنى المكان الذي حل فيه القوم.

وتبعد ٢٧ كيلو مترا من طشقند وذلك لزيارة أهلها ورؤية مسجدها.

واستقبلنا فيها أيضا عدد من الاخوة المسلمين منهم الشيخ (لطف الله بن نادر قادري) إمام هذا المسجد وخطيبه.

وزرنا مسجدها الذي يسمى مسجد (خوجا علم بردار) وعلم بردار تعني حامل العلم أو رافع الراية فكلمة (عَلَم) هنا بفتح العين واللام هي كلمة علم العربية بمعنى راية.

وأدينا صلاة العصر جماعة في المسجد مع المصلين والقيت فهم كلمة مناسبة مختصرة.



داخل مسجد خوجه. بردار في طشقند الشيخ عبدالله البازيجانيه أعضاء الوفد.

وتجولنا في مرافق المسجد وافنائه جميع فناء وهو الساحة المكشوفة — ولكنها هي مشغولة في بعض الأماكن بأشجار من الأشجار المثمرة وأشجار أخرى من أشجار الظل ومرافق تابعة للمسجد.

وهي واسعة بشكل ملفت للنظر ولذلك لم أعجب حينما قال الامام الأخ (لطف الله نادر) إن مساحة المسجد ومرافقه تبلغ عشرة آلاف متر مربع.

وهو مسجد قديم بل انه موغل في القدم ذكر أهله ومنهم الامام ان تاريخ أول بنائه يرجع الى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز وذلك في عام ٥٧ من الهجرة وانه جدد عدة مرات، وآخر مرة جدد بناؤه فيها كانت في عام ١٩٧٥م.

ثم انتقلنا إلى غرفة في المسجد مكتوب عليها اسمها: (نكاح خانة) اي غرفة عقد الزواج وقد اعدوا فيها مائدة حافلة بالنقل والفاكهة والخبز والقي الامام كلمة بالعربية مختصرة عن تاريخ المسجد.

وقرية بالفانج.

وتسمى أيضاً بمحلة إذ يسمونها (بالفانج محلة سي) وبالفانج ليست عربية ومحلة هي العربية التي سبق ذكرها في التي قبلها و(سي) اداة اضافة شائعة في التركية وتبعد محلة بالفانج عشرين كيلو متراً من طشقند.

زرنا فيها مسجدوها ويسمونه (مسجد ضياء الدين) اضافة إلى الشيخ ضياء الدين باباخانوف والد الدكتور/ شمس الدين رئيس الادارة الدينية هنا ومضيفنا في هذه البلاد.

وذلك لما ذكر لنا امام المسجد وخطيبه الشيخ (ذاكر اسماعيل) من أن المسجد حديث بني في عام ١٩٨٠م بمساعدة المسلمين من المنطقة وأن الشيخ ضياء الدين باباخان الرئيس السابق للادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان هو الذي عينه إماماً على هذا المسجد في وقت كانت الأرض خالية من البناء وسعى مع المسلمين في بناء المسجد وكانت مساهمات ومساعدات المسلمين تختلف من التبرع النقدي إلى التبرع ببعض مواد البناء وبعضهم بالجهد البدني.

وخلال وجود الوفد في المسجد حضر عروسان إلى المسجد مع بعض ذويها برجاء أن يعقد إمام المسجد قرانها شرعاً وكان العروسان في العشرينات من العمر وقد قاما بتسجيل عقد الزواج في مكتب الدولة رسمياً قبل حضورهما إلى المسجد وسألها الإمام عن بعض الشروط الخاصة بالنكاح مثل مقدار المهر وموافقة ولي الأمر ثم بارك زواجهما وخطب خطبة النكاح ودعا الوفد لهما بالتوفيق والذرية الصالحة.



صورة تذكارية لعقد الزواج مع المتزوجين في مسجد ضياء الدين خان في طشقند

تعليق على مشاهداتنا في هذه المساجد :

تمتاز المساجد التي زارها الوفد بالنظافة وحسن الفرش ولكن لا توجد فيها مصاحف او كتب اسلامية وانما يوجد ذلك في غرفة الإمام او المكتب المجاور للمسجد وقد لاحظ وفد الرابطة ان كل المصلين في المسجد هم من كبار المسلمين سناً والمتقاعدين وقلما يوجد شاب بينهم.

وكان الدكتور/ شمس الدين بابا خان رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاتستان والمرافق لوفد الرابطة يقدم وفد الرابطة الى جماعة المصلين في كل مسجد مرحباً بمقدمهم إلى بلادهم تلبية لدعوة الادارات

الدينية في الاتحاد السوفيتي ومعرفاً برابطة العالم الإسلامي واعمالها الإسلامية وكنت أحدثهم بأن رابطة العالم الإسلامي هيئة شعبية عالمية غير حكومية تعمل على تنشيط الثقافة الإسلامية في كل انحاء العالم وان زيارة وفد الرابطة إلى ديارهم قد تأخرت بسبب الارتباطات والمسؤوليات العالمية التي تحملها الرابطة.

وقد فرح المسلمون بخبر زيارة وفد الرابطة لمسلمي الاتحاد السوفيتي وكان كثير من المسلمين في العالم الذين لهم ممثلون ومندوبون في مجالس الرابطة والجمعيات الإسلامية التي تتعامل مع الرابطة تستفسر من الرابطة عن احوال المسلمين في الاتحاد السوفيتي، ويقولون كيف يمارس المسلمون شعائرهم الدينية وهل يربون ابناءهم على الإسلام ويعلمونهم تعاليم واحكام دينهم؟.

وكنا نقول لهم بأننا سنفيدكم عن احوالهم بعد زيارتهم. واستفسارهم واهتمام المسلمين بكم ينبع من امرين هامين، اولهما الأخوة الإسلامية التي هي اقوى من قرابة النسب والدم وهى صلة عقد عراها الله عز وجل في السماء فقال (إنما المؤمنون اخوة) وقرابة النسب زائلة لأنها من التراب.

واهتمام المسلمين بعضهم ببعض هو واجب إسلامي قال الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا.

والأمر الثاني هو الثقافة الإسلامية المشتركة وقد اسهم علماء هذه البلاد بقسط وافر في ميدان المعرفة والفكر الإسلامي ولايزال المسلمون في كل مكان يذكرون الإمام البخارى صاحب اصح كتاب بعد القرآن الكريم والمسلمون عند مايتساءلون عن احوالكم يتطلعون إلى أن يكون في احفاد أولئك العلماء من يعيد سير أجدادهم وآبائهم في الثقافة الإسلامية ولايمكن أن يتم هذا إلا بتعليم الأبناء أحكام الدين وتربيتهم على الإسلام وحثهم على الصلاة والعبادة.

كما قلت لهم: إن رابطة العالم الإسلامي يسعدها أن تتعاون مع

الادارات الدينية فيما من شأنه تنشيط الثقافة الإسلامية ودعوت الله عز وجل أن يعينهم على حفظ دينهم واصلاح أولادهم وأن يحقق الاجتماع بهم مرة ثانية في الأراضي المقدسة في الحرمين الشريفين.

مأدبة المفتى :

وهو الدكتور شمس الدين بابا خانوف رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان و يسمونه هنا المفتي مثل مايسمون غيره من رؤساء الادارات الدينية بالمفتاتي جمع مفتي باصطلاح اسلافنا مؤرخي العصور الإسلامية الوسطى باستثناء الشيخ عبدالله شكرباشازاده رئيس الادارة الدينية لمسلمي ماوراء القفقاس الذي مقره في مدينة باكو عاصمة اذربيجان فانهم يسمونه شيخ الإسلام لأنه الشيعي الوحيد بين رؤساء الادارات الدينية في الاتحاد السوفيتي اذ يكثر الشيعة في جمهورية اذربيجان الاتحادية السوفيتية وتبلغ نسبتهم في العاصمة (باكو) وما حولها حتى جنوب البلاد حوالي ٧٠٪ وسوف أقص عليك نبأ الرحلة في اذربيجان ومابعدها من أنحاء الاتحاد السوفيتي التي نزورها بعد انتهاء زيارتنا لبلاد بخارى وماوراء النهر في كتاب مستقل عن هذا بإذن الله.

غربت الشمس اليوم في حدود التاسعة فصلينا المغرب مسرعين لأن موعد مأدبة الشيخ الدكتور/ شمس الدين في التاسعة والنصف.

وصلنا بيستا له واسعاً خاصاً به على هيئة دارة — فيللا — خاصة لايتيسر لعامة الناس أن يسكنوا في مثلها، ولو استطاعوا دفع الأجرة لأن الدولة تقصر السكن في هذه البيوت الواسعة المنفردة على كبار موظفي الدولة الذي يتمتعون بامتيازات خاصة ماداموا في مراكزهم الوظيفية حتى اذا فارقوا وظائفهم فارقتهم تلك الامتيازات.

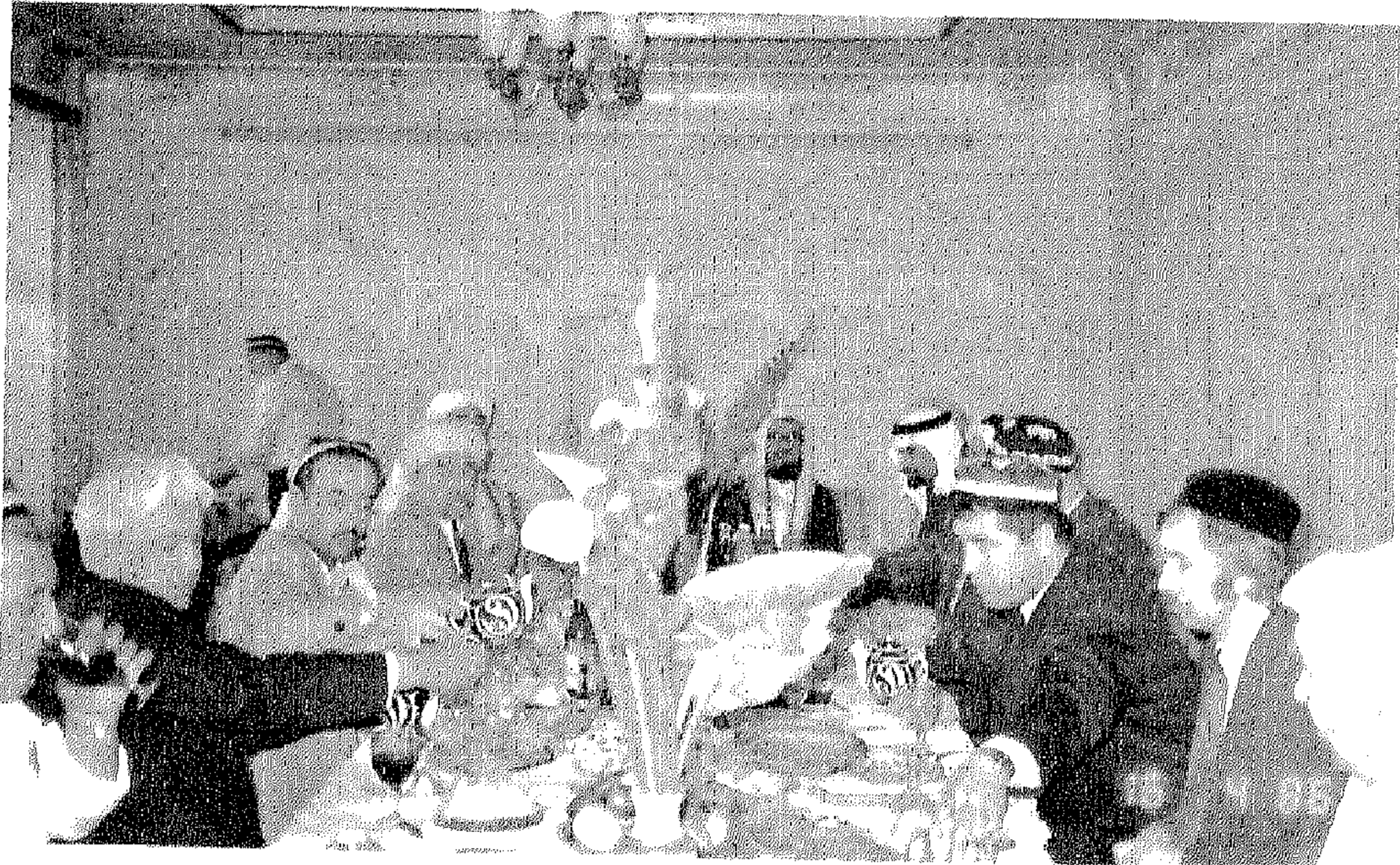
وقد عاملت الحكومة رؤساء الادارات الدينية معاملة كبار الموظفين فسمحت لهم بالسكنى في هذه البيوت الواسعة.

والقول بأنها سمحت لهم بالسكن هو صحيح الصحة كلها لأن المساكن مملوكة للدولة وهي التي تؤجرها على الناس ولذلك تقصر تأجير هذه البيوت الواسعة على ذوى الشأن من كبار الموظفين أو على المؤسسات العامة.

استقبلنا الدكتور/ شمس الدين عند المدخل الخارجي لدارته الواسعة وبخاصة في مقاييس المساكن في الاتحاد السوفيتي التي لا تزيد في العادة عن اثني عشر متراً مربعاً للشخص الواحد في المدن.

أما في الأرياف والقرى فانه يمكن الشخص أن يكون له بيت خاص به ينفرد بسكناه اذا بناه في أرضه أو ورثه عن أحد أبويه ولم يكن له بيت غيره ولو بطريق الإيجار.

وقال الشيخ الدكتور/ شمس الدين، وهو يتقدمنا إلى داخل المنزل ويعرف ان سعة الدارة هذه بل مجرد سكناه فيها أمر ملفت للنظر: كل رجال الدين لهم بيوت مثل هذا ولايسكنون في الشقق.



مأدبة العشاء في منزل الدكتور شمس الدين ضياء الدين بابا خانوف

ورأينا المائدة في بيت الشيخ قد مدت وقد جزئت إلى أقسام لأن الغرفة الواحدة لا تسعها لكثرة المدعوين الذين كانوا من الشخصيات الإسلامية

والعاملين في الحقل الإسلامي مثل العاملين في الإدارة الدينية وائمة المساجد والمدرسين في معهد الامام البخارى إضافة إلى مائدة صغيرة منفردة عليها الوفد الإعلامى الروسى المرافق لوفدنا وعدد افراده خمسة وقد اعتاد الاخوة المسلمون على ان يضعوا لهم مائدة في المآدب التى تقام للوفد ولم يجعلوهم يشاركوننا مائدة واحدة.

وكان يخدم المائدة ويساعد في تقديم الصحون المتعددة وانواع الطعام المتنوعة بعض المشايخ والعاملين مع الشيخ لأن لا يوجد خدام للأشخاص أو عمال عند كبار الموظفين في الاتحاد السوفيتي وإنما العمال كلهم عمال عند الدولة غير أنه يحدث أحياناً ان يكون لرئيس المؤسسة العامة من المكانة عند عمالها ماقد يساوى من بعض النواحي السلطة التى تكون لرئيس الشركة والمؤسسة الخاصة على عماله.

وقد ذكرتني بعض انواع الطعام التى قدمت بموائد شهدناها في تركستان الشرقية التى هي شقيقة تركستان الغربية هذه التى اسمها الاتحاد السوفيتي الآن بوسط آسيا السوفيتية وذلك مثل (اليغمش) الذى نعرفه في الحجاز من طعام البخاريين أهل بخارى يستوي منهم عندنا من كان من تركستان الشرقية ومن كان منهم من تركستان الغربية.

وكذلك الحساء الدسم الذى توضع فيه الشعيرية إلى غير ذلك.

وقد وجدنا مقبلات المائدة او مقدماتها وفيها النقل والفاكهة والخبز قد اعدت قبل وصولنا ثم رفعت وبدلت بأطباق تحوي الاطعمة الحارة.

وكانت مائدة مفيدة لأننا سمعنا خلالها أحاديث عديدة استفدنا منها الكثير عن أحوال هذه البلاد دون ان يصل ذلك إلى الناحية السياسية.

وكان الحديث معهم ينقطع عند ما يقارب الوصول إلى الأمور السياسية فيكون عنده ما يكون عند جواب ما يكره قوله وهو السكوت.

وفي نهاية المأدبة قدم الدكتور/ شمس الدين هدايا لاعضاء الوفد وقدمت له هدايا من الرابطة منها عباءة عربية وساعة للتنبيه وسجادة للصلاة وتمر من تمر المدينة المنورة ومصحف كريم مذهب من طبع المدينة المنورة.



جانب من المأدبة في منزل الدكتور شمس الدين بابا خانوف في طشقند

عدنا إلى فندق ازبكستان الذي ننزل فيه فوجدناهم قد جاءوا بما اعتادوا على تقديمه للضيوف ووضعه في غرفهم في الفندق من النقل وهي المكسرات وقد وضعوا منها لوزاً كاللوز المعروف عندنا باللوز البجلي الذي تنتجه المنطقة الواقعة جنوباً من الطائف في بلادنا وحب من حبوب البطيخ مملح وكذلك الفاكهة التي هي الكثرى والتفاح وكله مما تنتجه هذه البلاد ومعه شيء يعتبر طرفة في هذه البلاد في هذا الوقت من السنة وهو الخيار الذي لا يوجد عندهم في هذه الأيام إلا مزروعاً في بيوت محمية من الزجاج او من اللدائن.

ووضعوا مع ذلك زجاجات من الأشربة المؤلفة من عصير الفاكهة واهمها هنا عصير العنب الذي يكثر في هذه البلاد وتعدد انواعه فيها ولذلك وضعوا لنا في الفندق زيبياً ممتازاً كنت آكل منه رغم الشبع، ومع شراب الفاكهة شراب غازي من الكوكاكولا والماء المعدني.

يوم الجمعة ٩ شعبان ١٤٠٦ هـ ١٨ ابريل ١٩٨٦ م

نزلنا في الصباح من الطوابق المرتفعة في الفندق وبعضنا نازل في الطابق التاسع على اقدامنا من الدرج لأن الفندق كبير وملئ بالسياح من الأجانب، وفيه أربعة مصاعد طال انتظارنا لها ان تقف فكانت تمتلئ من الطابق الذي تقف فيه ولا يكون فيها مكان او لاتجئ أصلاً وقد تكرر معنا ذلك اكثر من مرة ورأيت بعض السياح الأجانب وأغلبهم من الأوروبيين او من ذوي المظهر الأوروبي من الأمريكيين ومنهم أناس رأيتهم من فنزويلا في امريكا الجنوبية اضافة إلى الجنس الأصفر الذين اكثرهم هنا من اليابانيين كلهم جاء إلى هنا رغبة في رؤية هذه البلاد المسلمة العريقة.

وقصدنا مائدة طويلة كانت قد اعدت من قبل في ركن من المطعم لنا خاصة. وقد قال لي احد العاملين في المطعم وكنت واقفاً عند بابه اتحدث مع بعضهم، أتريد مائدة (المسلمان) اي المسلمين؟ إنها هنا وحدها ظناً منه انني لا أعرف موضعها.

وقد تناولنا الافطار في الساعة الثامنة وتناوله معنا المرافقون وبعض العاملين في الادارات الدينية هنا وعدد الجميع يزيد قليلا عن العشرين.

وكان الطعام جيداً والمائدة حافلة، الا ان الخدمة ليست بذاك فالخدم يبسطون في بعض الأحيان في إحضار ما يطلب منهم. وربما كان السبب في ذلك قلة عددهم بالنسبة إلى رواد المطعم الكثر.

معهد الاستشراق :

كانت الفقرة الأولى في عمل هذا اليوم زيارة معهد الاستشراق في طشقند وقد يسمونه (معهد ابي الريحان البيروني للاستشراق).

وعندما أردنا مغادرة الفندق إلى المعهد كان الدكتور/ شمس الدين بابا خانوف واقفاً معي في انتظار الرفاق، وكان يلبس الجبة الرسمية الخاصة

لكبار المشايخ عندهم وهي صفراء مخططة واسعة الالمام غريبة المنظر وهي التي أهدي لنا الدكتور أمس مثلها وكنت ارتدى الملابس العربية كاملة فوقها العباءة فتجمهرت اعداد من السياح الأجانب الذين وجدوا في هذا الزي الغريب من الطرافة أكثر مما وجدوه في شوارع طشقند العامة ذات المظهر الأوروبي المعتاد فأخذ بعضهم يستأذن في التقاط الصور وبعضهم كان يسارع لاختلاس الصورة خوفاً من ان نركب السيارة قبل ان يتمكن من الاستئذان بالتقاطها.

وقد طلبت من الاخوة المرافقين ان يخبروهم بأننا وفد زائر من مكة المكرمة لهذه البلاد وذلك من أجل أن يعرفوا سر هذا الإحتفاء الظاهر الذي احاطنا به اخواننا المسلمون في هذه البلاد.

وصلنا معهد الاستشراق في الساعة العاشرة كما كان مقرراً فوجدنا عند بابه مديره الدكتور مظفر خير الله مع بعض العاملين والباحثين فيه.

ثم تقدمنا إلى قاعة قد أعدت فيها مائدة اجتماع كبيرة وهيئت فيها الأوراق، واستعد بعض الكتبة لتسجيل مايجرى من حديث وذلك اضافة إلى



الدكتور مظفر خيرالدين في دارالاستشراق في طشقند

وجود رجال الاعلام المرافقين الرسميين للوفد الذين كانوا يصورون المقابلات ويسجلون ما يدور فيها من أجل تزويد الصحافة به فيما يقولونه.

بدأ الحديث مدير المعهد الدكتور مظفر خيرالدين بالترحيب الحار بالوفد شاكرًا هذه الزيارة للمعهد.

وقال نعتقد ان زيارتكم هذه تساهم في توثيق صلاتنا الثقافية والفكرية مع المملكة العربية السعودية خاصة والدول العربية عامة لان مثل هذه الزيارات تفيدنا في التبادل الثقافي والعلمي الذي يخدم الفكر الانساني ويحتل معهدنا مكاناً خاصاً في الاكاديمية الاوزبكية، اذ يعتبر اكبر معهد في الشرق السوفيتي وفي آسيا الوسطى ولقد اشتهر المعهد بدراسة تاريخ الشعوب الشرقية مثل باكستان وافغانستان وايران والدول العربية. وتنشر كثير من دراساتنا في الخارج ولنا علاقات ثابتة وممتينة مع كثير من الهيئات العلمية والعلماء في العالم، ونستقبل ضيوفاً من الدول الأجنبية وخاصة من الدول العربية.. وزيارتكم هذه لها مكانة خاصة لأنها اول زيارة لوفد من المملكة العربية السعودية.

ثم قال لقد تأسس المعهد خلال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٣م كفرع في أكاديمية العلوم في اوزبكستان وتتجه بحوثنا ودراستنا إلى اتجاهين.

الأول دراسة تاريخ الثقافة الشرقية، وتشمل تاريخ الثقافة في كل الفروع العلمية والانسانية ونقوم بدراسة تاريخ العلوم والطب والبلاغة والرياضيات وتاريخ الخط العربي.

الثاني تاريخ الدول الشرقية وتاريخ الإسلام.

ترتكز بحوث المعهد على المخطوطات التي توجد في المعهد، فهناك اكثر من أربعين ألف عنوان و١٨ ألف مجلد و٥٠ ألف صور مخطوطات مبكر وفيلم.

كما يقوم المعهد بعملية التبادل في سبيل تأمين صور المخطوطات التي لا تتوفر فيه. وعلى هذا نوسع علاقاتنا مع المعاهد الإسلامية والمكتبات العالمية في تبادل صور المخطوطات والوثائق والكتب، كما نشترك في كثير من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية.

ثم تكلم عن المكتبة فقال مكتبة معهد الإستشراق تعتبر من أشهر المكتبات في الاتحاد السوفيتي وهي فريدة من نوعها بتخصصها في تاريخ وثقافة الشعوب الشرقية حيث يمتلك المعهد كثيراً من مخطوطات الخوارزمي والفارابي والبيروني وابن سينا والإمام البخاري الذين هم من أبناء هذه البلاد.

وكذلك مخطوطات المعري والمتنبي من العالم العربي وابن رشد والكندي من علماء الأندلس.

ويقوم علماء المعهد بدراسة المخطوطات وترجمة بعضها إلى الأوزبكية والروسية.

وبالتعاون مع منظمة اليونسكو عام ١٩٨٠م بمناسبة مرور ألف عام على ميلاد أبي الريحان البيروني أجرى المعهد احتفالات كبيرة وطبع مؤلفات البيروني في سبع مجلدات، كما احتفل المعهد بمناسبة مرور ألف عام على ميلاد الرئيس ابن سينا وترجم كتاب القانون في الطب إلى الأوزبكية والروسية عام ١٩٨٠ وكذلك احتفل المعهد بمرور ١٢٠٠ سنة على ميلاد أبي بكر الخوارزمي مؤسس علم الجبر عام ١٩٨١م. وكانت هذه الاحتفالات تتم في موسكو اعتماداً على دراسات وبحوث يقوم بها هذا المعهد.

وقد أعد المعهد فهرساً لعشرة آلاف مخطوطة في ١٣ مجلداً يضم شتى العلوم والفنون مثل القرآن وعلومه والحديث والتاريخ وغير ذلك من العلوم.

ويستفيد العلماء والدارسون في الاتحاد السوفيتي وخارجه بالاستعانة بالفهرس من المخطوطات ويستقبل المعهد الزوار والباحثين القادمين من

الخارج مثل الكويت وتونس ومصر، كما يزور المعهد سفراء الدول العربية والإسلامية.

وقد لقي المعهد تقديراً دولياً على نشاطاته العلمية، حيث قدمت له منظمة اليونسكو الجائزة الأولى في ميدان التحقيقات التي تمت عن ابن سينا التي اعتمدت مخطوطات عربية وفارسية وتركية.

وتطبع منشورات المعهد في طشقند وموسكو وتسوق عالمياً وتردنا طلبات عديدة يطلب فيها مرسلوها تزويدهم بالكتب والدراسات لأن هذه البحوث تعتبر تراثاً إنسانياً وتاريخاً ثقافياً عالمياً. كما تساعد الدراسات والبحوث وتبادل المعلومات على توثيق العلاقات والصلات الثقافية والحضارية بين الدول والشعوب في العالم، ولاشك ان هذه غاية هامة واعمال جليلة تخدم الانسان في كل مكان.

وبعد ان انهى كلامه رددت عليه بكلمة تضمنت الشكر والتقدير على المعلومات والايضاحات عن المعهد واعماله وتحدثت عن اهتمام المسلمين بالتراث الإسلامي وقلت لهم ان في مكتبة بمدينة بريده التي تبعد عن



المؤلف يتكلم واقفاً في دار الاستشراق في طشقند والشيخ محمد صادق واقف للترجمة

الرياض بحوالي اربعمائة كيلو متر عدداً من المخطوطات منها كتاب في الجبر لأبي بكر موسى الخوارزمي المتوفى عام ٢٥٠هـ ويعود تاريخ خط الكتاب إلى عام ٧٥٠ هجرية وقد رسمت الاشكال الهندسية فيه باللون الأحمر.

ثم تحدثت عن مكانة العلماء المسلمين الذين أنجبتهم اوزبكستان في الثقافة الإسلامية فقلت إن المسلمين في كل مكان في العالم يجلبون الإمام البخاري على كتابه الجامع الصحيح الذي هو اصح كتاب بعد القرآن الكريم، كما ان كثيراً من علماء الحديث والتفسير هم من هذه البلاد إلى جانب علماء غيرهم من المؤرخين والأدباء الذين لهم خدمات في ميدان الثقافة الإسلامية والفكر الأنساني، كالعالم الجليل أبي الريحان البيروني الذي قام بزيارة الهند مع جند السلطان محمود بن سبكتكين، وتعلم اللغة السنسكريتية ثم وضع أفضل كتاب عن الهند بعنوان «تحقيق مال الهند من مقولة، مقبولة في العقل او مردولة» وكان العلماء والطلاب من الأقطار العربية والإسلامية يفدون إلى بلادكم في سبيل الاستزادة والتحصيل العلمي وان العالم الإسلامي والمسلمين الآن يتطلعون إلى أبناء وأحفاد أولئك الأئمة الأعلام يرجون منهم ان يعيدوا سيرة أجدادهم في خدمة الثقافة الإسلامية.

وقلت: إن رابطة العالم الإسلامي هيئة شعبة عالمية غير حكومية وتتخذ من مكة المكرمة مقراً لها وتساعدتها حكومة المملكة العربية السعودية على أداء واجبها الإسلامي، كما تساعد غيرها من الجمعيات الإسلامية وان وفدنا يقوم بزيارة لمسلمي الاتحاد السوفيتي بدعوة من الإدارات الدينية الإسلامية وتأمل الرابطة التعاون معها في ميدان الثقافة الإسلامية.

ثم قلت: إنني اقترح على المعهد ترجمة فهرس المخطوطات إلى اللغة العربية حتى يستفيد منه الباحثون والدارسون من العرب واخبرتهم ان في المملكة العربية السعودية كثيراً من المكتبات الخاصة والعامة تضم العديد من المخطوطات ومن اغنى المكتبات بالمخطوطات مكتبة الشيخ عارف حكمت في

المدينة المنورة ومكتبة الحرم الشريف في مكة المكرمة واقترح على المعهد تبادل المخطوطات مع تلك المكتبات.

فعلق مدير المعهد الدكتور/ مظفر خير الله على كلمتي فقال: نشكركم على الكلمة القيمة، وما حوته من معلومات مفيدة وشكر علمائنا الأسلاف الذين مهدوا لنا طريق توثيق الصلات بين الأحفاد في المستقبل وقال: سنعمل على تنفيذ هذه الاقتراحات القيمة التي أبديتها.

وبعد ذلك أطلعونا على طائفة من المخطوطات الثمينة التي يحتويها المعهد، وبعضها نادر ومنها على سبيل المثال لا الحصر: مصحف شريف مكتوب بخط كوفي من القرن الثالث الهجري.



تفحص بعض المخطوطات في دار الاستشراق في طشقند

نسخة من غريب الحديث لأبي عبيد كتبت في عام ٣٤٤هـ.

مجموع رسائل باللغة العربية وبعضه بالفارسية كتب في عام ١٠٧٥هـ.

سر الأسرار لأبي بكر الرازي نسخة قالوا إنها النسخة الوحيدة في العالم لهذا الكتاب كتبت عام ٩١٢هـ.

القانون في الطب لابن سينا نسخة بخط حديث.

مقدمة الأذب للزمخشري قديمة الخط، ويذكر ان لهم عناية خاصة بالإمام الزمخشري وأمثاله لأنه من بلادهم اذ لا تبعد زمخشر عن طشقند كثيراً جهة الشمال.

المغنى في الأدوية المفردة لابن البيطار. نسخة قديمة الخط.

التفهيم، لاوائل صناعة التنجيم للبيروني برسوم وخرائط دقيقة ونادرة كتب في عام ٦٦٠هـ.

الشاهنامة للفردوسي بالرسوم والصور الملونة كتبت عام ٩٦٤هـ.

وهذا جزء مما أطلعونا عليه من المخطوطات ولولا ضيق الوقت لقضينا ضحى هذا اليوم عندهم.

ثم قدمت إليه عدداً من مؤلفاتي هدية لمكتبة المعهد وأهدى إلي المدير بالمقابل كتباً صغيرة أصدرها المعهد.

وعدنا إلى مسجد ضياء الدين فرأينا في حديقة المسجد اشجاراً من الأشجار ذات الفاكهة ومنها أشجار من العنب مما يدل على ان الحديقة كانت موجودة قبل المسجد وان بعض الأشجار كانت قائمة نامية فيها فتركوها على حالها وان المسجد كان قديماً صادرة الحكومة ثم أعادته للمسلمين وذكر إمام المسجد (الشيخ/ ذاكر اسماعيل) ان عدد المصلين في المسجد يوم الجمعة يتراوح بين ستمائة وسبعمائة مصل.

وقد وجدنا مائدة معدة في المسجد حوت النقل المعروف بالمكسرات ولحم الحصان وهو قطع صغيرة حمراء اللون مقددة أو محفوظة في مكان مبرد وتفاح وسفرجل أصفر مما تنتجه هذه البلاد وعليها أيضاً الخبز واللبن.

فقطعنا منها قليلاً ورأينا عروسين جاءا إلى المسجد لعقد الزواج الشرعي

فيه بعد ان سجلا زواجهما قانونيا في الجهة الحكومية المختصة فحضرنا خطبة النكاح التي أجزاها الإمام ذاكر اسماعيل حيث خطب خطبة عقد الزواج المعتادة بالعربية وتلا الآيات المتعلقة بالنكاح وقرأ بعد ذلك من حفظه الاحاديث النبوية التي تحت على الزواج وتأمر بالإكثار من نسل المسلمين ثم ترجم ذلك إلى اللغة الأذربكية التي هي فرع من اللغة التركية الأصلية.

وكان يصحب الزوجين بعض الأقارب في عدد محدود ومع الزوجة أمها. وقد هنأت الزوجين ودعوت لهما بالتوفيق والذرية الصالحة التي ينفع الله بها الإسلام والمسلمين وقلت لهما سوف ندعو لهما في مكة المكرمة فسرا بذلك ولكن العروس كانت خجلة مرتبكة مما يدل على انه لا يزال للخفر والحياء في نفوس المسلمين هنا بقية.

وعندما سألتهم عن مقدار المهر أجابوا بأنه في المتوسط يكون بحوالي ٥٠٠ روبل ومعلوم ان الصرف الرسمي للدولار هو ٧٠ كوبي والكوبي للروبل كالسنتي للدولار اي واحد في المائة ولكن الدولار في السوق السوداء يساوي روبلين إلى ثلاثة روبلات. وهذا كما قالوا خلاف نفقات تجهيز العروس وما يلزم للعروسين بعد ذلك من نفقات.

الجمعية الأذربكية للصدقة :

كما في البرنامج المرسوم قام وفد الرابطة بزيارة للجمعية الاوزبكية للصدقة والعلاقات الثقافية مع البلدان الأجنبية فرحب بالوفد رئيس الجمعية (عبدالفتاح علام) مع مجموعة من أعضاء الجمعية منهم:

طالب ساريماق مدير معهد الفنون الجميلة والتمثيل والغناء.
فريد خوجة مدير وكالة الأنباء في اوزبكستان
الدكتور ابراهيم موسى حكيم استاذ في معهد الاستشراق ويعرف العربية جيداً.

عبدالله براءت من إذاعة طشقند.



رئيس جمعية الصداقة الاوزبكية مع البلدان الخارجية يتحدث وافقاً لوفد الرابطة والشيخ محمد صادق يترجم وافقاً

وقد تحدث رئيس الجمعية بعد الترحيب بالوفد فذكر ان الجمعية هيئة شعبية ثقافية اجتماعية، تضم الشخصيات البارزة في اوزبكستان من العلماء والفنانين ورجال الدين أمثال المفتي الدكتور شمس الدين باباخان والشيخ عبدالغني عبدالله وتعمل الجمعية على توثيق الصلات بين شعب اوزبكستان ومختلف شعوب العالم بتبادل الوفود الثقافية والفرق الفنية وتوزيع المنشورات والمجلات الإعلامية عن النواحي الحضارية في اوزبكستان.

ثم تحدث الدكتور إبراهيم موسى حكيم المدرس في كلية اللغات الشرقية بجامعة (طشقند) عن تعليم اللغة العربية وآدابها في جامعات اوزبكستان وعن اهتمام المسلمين بدراستها في عدد من المدارس الثانوية وارسال الطلاب والاساتذة إلى بعض الجامعات العربية.

أما السيد طالب ساريماق فقد تكلم عن انتشار الإسلام في الاتحاد السوفيتي وأثره في الشقافة والفن الأوزبكي وخاصة ان النقش واشكال البناء قد تأثر بالنقوش والطرارز الإسلامي بصفة لا تزال آثارها مطبوعة في كل مكان في اوزبكستان وان الآثار الإسلامية التي تزخر بها المنطقة تدفع

كثيراً من الطلاب إلى القدوم إلى أوزبكستان لدراسة الفن والهندسة الإسلامية مثال ذلك بأن هناك طلاباً من اليمن الديمقراطية وغيرها يدرسون ويحضرون دراسات وبحوثاً في جامعة ومعاهد طشقند.

فعمقت على كلامهم بالشكر على الترحيب وحسن الاستقبال وأشارت إلى العلاقات الثقافية للمسلمين بهذه المنطقة التي انجبت كثيراً من العلماء والأئمة في الحديث والتفسير والفقه والتاريخ والرياضيات ولا يزال المسلمون في كل مكان في العالم يقرءون لهم ويستفيدون من كتبهم وأن المسلمين اليوم يتطلعون إلى أحفاد وأبناء أولئك العلماء في هذه البلاد لتجديد سير أجدادهم وآبائهم في خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية.



المؤلف يتحدث واقفاً في جمعية الصداقة الأوزبكية مع البلدان الخارجية

وكذلك نوهت بسرورنا بأن يتعلم أبناء المسلمين في هذه الديار اللغة العربية في بعض المدارس وفي قسم الدراسات العربية بجامعة طشقند وختمت حديثي بأن الإسلام هو دين يحث على العلاقة الصادقة الطيبة، ليس بين المسلمين فحسب بل مع غير المسلمين في كل ما فيه خدمة الإنسان والبشرية، بل هو دين الرحمة والرفقة مع كل الكائنات الحية.

الجمعة الحاشدة :

غادرنا الجمعية الازبكية للصدّاقة مع الشعوب كما يسمونها في الواحدة والثلاث فأخترقنا ايضاً شوارع من شوارع طشقند الحديثة الواسعة وأكثرها من طريقين للذهاب والآيب تفصل بينها جزيرة فهي إذاً محدثة ولكن ذلك التحديث شأنها في نظرنا ولم يزنها وربما كان ذلك أيضاً بالنسبة إلى اناس كثيرين، وبخاصة من السياح الذي يأتون إلى هذه الجمهورية وهم يبنون أنفسهم في أن يروا شيئاً أصيلاً قديماً مما خلفه الاسلاف المسلمون فيرون أكثر ما يرونه هذه الشوارع الحديثة التي رأوا مثيلاتها في بلادهم من قبل، وربما أفضل منها.

وحتى الناس فالرجال في هذه الشوارع الحديثة يرتدون اللباس العالمي الشائع لأنهم مابين روسي كافر طارئ على هذه المدينة ومابين مسلم في الأصل، ولكنه يلبس اللباس العالمي الحديث. واما النساء فان المسلمات منهن واشكالهن ظاهرة، ومتميزة على الكافرات من الروسيات والأوكرانيات المهاجرات الى هنا فان اكثرهن يرتدين الزي الافرنجى والعالمى ولكنه هنا محتشم بصفة عامة حتى على الكافرات فقل ان يرى المرء التبرج والعري.

وأما الزينة التي يراد بها هنا المساحيق ونحوها، فإنها موجودة ومسموح بها ولكن بقدر أقل مما هي عليه في الدول الغربية بكثير فالاسراف فيها لا يكاد يوجد وقسم من النساء لا يستعملن المساحيق أو ادوات الزينة الظاهرة مطلقاً.

وتنفسست الصعداء عندما وصل الموكب الى حي في طشقند قديم فيه بيوت جيدة من الحجارة والطين، وأكثرها من طابق واحد.

فقد وصلنا محلة (كوكجه) التي يسمونها (كوكجه محله سي) وذلك لأجل أداء صلاة الجمعة في مسجدتها المسمى مسجد الشيخ زين الدين وبعضهم يسميه مسجد الجمعة في طشقند.

دخل الموكب المؤلف من ٦ سيارات الى حديقة المسجد ولم يجد صعوبة
او ضيقا في ذلك لأن هذا المسجد مثل سائر المساجد هنا واسع الأفنية ذو
حدائق وملحقات كما تقدم.

ووقف الموكب فالتف علينا جماعة من المسلمين منهم القائمون على رعاية
المسجد، والعناية بشئونه على رأسهم الأخ (عبدالرحمن بن داملا إبراهيم)
المتولى على المسجد أو رئيس التولية كما أسموه وهو يرأس عشرين شخصاً
هم الجمعية التي ترعى شئون المسجد، ولا بد في الاتحاد السوفيتي من أن
لا تقل الجمعية التي تشرف على المسجد عن عشرين شخصا علما بأنه ليس
كل من ارادوا بناء مسجد وألفوا من بينهم عشرين عضوا يستطيعون أن
يحصلوا على الاذن ببنائه من السلطات الحكومية فذلك له شروط كثيرة من
اهمها عندهم ان لا يوجد في البلدة مسجد آخر، إلا إذا كانت البلدة كبيرة
ذات محلات منفصل بعضها عن بعض.

كما كان مع الحاضرين امام المسجد وهم الشيخ غلام قادر ونائبه في
الإمامة رحمة الله عابد جان والتف اليهم جمهور من الذين حضروا لأداء صلاة
الجمعة من سائر المسلمين فتجمهروا حولنا يسلمون و يصفحون، وبعض كبار
السن يغلبهم الشوق إلى اخوانهم القادمين من بلاد الحرمين الشريفين فيسرعون
بالاحتضان بعد العناق.

وقد شاهلنا حركة فى ركن من حديقة المسجد هي حركة شواء ظاهر
لمن يكون فى هذه الجهة من الحديقة وذلك لأن الغداء كان يعد وكان
الشواء يشوى فجلب بمنظره ورائحته اعداداً اضافية من الاخوة المسلمين الذين
كانوا قد علموا أو علم أكثرهم منذ وقت بقدوم الوفد وانه سيؤدي صلاة
الجمعة فى هذا المسجد.

الغداء الحافل :

صعدنا خلف الإخوة الداعين من أهل المسجد والمراد بهم الجمعية القائمة
على شئونه إلى غرفة علوية في بناء ملحق بالمسجد فوجدنا مائدة مديدة قد

صفت عليها مقدمات الأدبة المعتادة في هذه البلاد وكنت رأيت مشيالاتها في بلاد تركستان الشرقية وكان من أهم ما احضروه بل اكثروا منه في هذه الموائد هو البطارخ اي الكافيار وهو بيض السمك المشهور الذي لا يوجد الا في بحر قزوين المشترك مابين ايران والاتحاد السوفيتي ولذلك اشتهر هذان البلدان به.

وقد جاءوا بالكافيار نوعين احدهما الأسود وهو المشهور والثاني الأحمر وهو اقل منه قيمة وقد ذكروا فيما بعد ان الكيلو الواحد من الأسود الفاخر الذي ألفنا رؤيته على موائدهم في جميع الوجبات يصل إلى خمسين روبلا ويساوي ذلك سبعين دولاراً امريكي بالصرف الرسمي أو ثلاثين دولاراً بالصرف الحر الذي يتم في السوق السوداء وقد زينوا المائدة بازهار جميلة قطفوها من حديقة المسجد.

وكنا نتناول الغداء والاخوة المسلمون يتوافدون على المسجد زرافات ووحدانا حتى كاد يضيق بهم. بل إن المسجد المسقوف وهو المصلى الرئيسي قد ضاق بهم بالفعل فصفوا في الفناء الخارجي الذي فيه الحديقة.

وقد احتجت للوضوء بعد الغداء فرأيت حمامات المسجد وهي صف طويل وهي نظيفة إلا أنها لا تصل إلى نظافة اماكن الوضوء في البلدان الأوروبية وكان عدد المتوضئين كبيراً والمشكلة ان القوم اخذوا ينتهزون الفرصة لرؤيتي وكانت علي ملابسي العربية طيلة هذه الزيارة لكونها زيارة رسمية فاخذوا يصافحون ويسلمون حتى قبل ان أجفف يدي من الوضوء وصار غيرهم ممن يراني يسرع للمصافحة حتى كفهم عني بعض الاخوة المرافقين.

والصلاة الحافلة :

لم أكن أتصور وجود هذا العدد العظيم من المصلين في هذا المسجد الذي يسمونه (مسجد الجمعة) إضافة إلى تسميته بمسجد زين الدين.

فانطلقنا من الغرفة التي تناولنا فيها الغداء وهي في الجهة الخلفية من المسجد وهي هنا الشرقية الشمالية واخرقنا الحديقة التي وقفت فيها السيارات وقد اورقت أعنانها وطاب مرأى اشجارها لأن قشف الشتاء وزمهريره قد فارقها وابتسم لها الربيع فابتسمت هي للربيع وهم يصنعون للأعذاب عروشاً عالية كما نصنع نحن الا أنهم يرفعونها اعلى من قامة الرجل من أجل ان يتناول الناس العناقيد التي تكون متدلية منها وهم وقوف.



مقدمة الصفوف أثناء صلاة الجمعة في جامع زين الدين

دخلنا المسجد الذي غص بالناس حتى لم يبق فيه موطيء قدم ومنعوا المصافحة عنا لكثرة المصافحين فأدينا تحية المسجد ركعتين نهض بعدها الدكتور/ شمس الدين باباخانوف رئيس الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان فقدم وفد الرابطة وأعضاءه بالأسماء وذكر الأعمال في الرابطة إلى المسلمين من مكبر للصوت داخل المسجد بل من مكبرين للصوت اثنين فكان مما قاله : كان المسلمون في الاتحاد السوفيتي يتطلعون منذ زمن بعيد إلى هذا الوفد الذي اتاهم من الحرمين الشريفين وكان والده المرحوم ضيياء الدين باباخان قد وجه عدة دعوات إلى الرابطة والعلماء في المملكة العربية السعودية ومع ان كثيراً من الوفود قدمت إلى البلاد من

بلدان ودول مختلفة في العالم، إلا أن هذا الوفد الزائر لبلادنا هذه الأيام هو أول وفد يأتي من قبله المسلمين في تاريخ المسلمين في الاتحاد السوفيتي.

واستغل الدكتور شمس الدين الفرصة في الحديث عن نشاط الإدارة الدينية ومكتب العلاقات الخارجية للإدارات الدينية الإسلامية في موسكو وعن الوفود التي تخرج من الاتحاد السوفيتي في سبيل تعريف المسلمين بحياة المسلمين السوفيت وتوثيق الصلات معهم وأن الإدارات الدينية ترسل بعثة الحج سنوياً إلى الديار المقدسة لاداء فريضة الحج وأن رابطة العالم الإسلامي تستقبل البعثة وتستضيفها وتقدم لها كافة التسهيلات اللازمة ثم ختم كلامه بشكره للدولة التي اقامت مثل هذه النشاطات وساعدت على استقبال الوفود الإسلامية من الخارج.

ثم تحدثت لجموع المصلين الذين احتشدت بهم ساحات المسجد وكان يقدر عددهم بأكثر من خمسة آلاف شخص بالشكر على كلمة رئيس الإدارة الدينية وقلت بأن الوفد من جوار الكعبة المشرفة بمكة المكرمة ومن الحرم النبوي بالمدينة المنورة يحمل إليهم تحيات وسلام المسلمين في الحرمين الشريفين كما يحمل إليهم تحيات المسلمين في العالم الذين لهم ممثلون ومندوبون في مجالس رابطة العالم الإسلامي وتحيات ممثلي الجمعيات الإسلامية التي تتعاون الرابطة معهم وهم يتشوقون إلى معرفة أحوالهم وأنهم يقومون على تربية ابنائهم التربية الإسلامية.. وعند ما يفسر أولئك المسلمون عنكم إنما يعملون ذلك لأنكم إخوة لنا في الله فقد قال الله عز وجل في كتابه «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ».

واخوة الدين أقوى من قرابة النسب والدم، لأن الاخوة في الدين هي قرابة باركها الله عز وجل في السماء وصلات النسب هي زائلة لأنها من التراب

وعندما يسأل المسلمون عنكم إنما يفعلون ذلك لأنكم أحفاد العلماء الأسلاف مثل الامام البخاري والترمذي والنسائي الذين كانت لهم جهود

مشكورة في ميدان الثقافة الإسلامية... ونحن بعد ان جئنا إلى بلادكم وشاهدنا احوالكم سنخبر المسلمين عن حياتكم واطواؤكم.

وتوجهت بنصيحة لعامة المسلمين وهى العمل على تربية اولادهم على الإسلام لأن كل واحد منا مسئول عن الإسلام فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم كللكم راع وكل راع مسئول عن رعيته، فلا يكفي ان يكون المسلم مسئولاً عن نفسه فحسب بل عليه مسئولية تربية اولاده على الإسلام والمحافظة على الصلاة وتعويد اهله وأسرته على أخلاق الإسلام وتعليمهم أحكامه العامة. بل يجب على المسلم أن يرشد وينصح إخوانه وزملاءه ويدعوهم إلى تعلم مبادئ الإسلام والعمل بأحكامه، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم «الدين النصيحة».

ولا يقتصر اهتمام المسلمين على العبادات وإقامة الشعائر فحسب بل من واجبات المسلم الاهتمام بالمعاملات فقد جاء في الأثر «الدين المعاملة» فيجب أن يؤدي المسلم عمله بالأمانة والعمل بالاخلاص والالتقان، كما يجب ان يتعاون المسلم مع غير المسلمين من المواطنين لمصلحة بلده ووطنه بشرط عدم التفريط بمبادئ الإسلام وتعاليمه.

وكان السلف الصالح بسلوكهم الحسن واخلاقهم الإسلامية قدوة لغيرهم وسبباً لانتشار الإسلام في هذه البلاد وغيرها من بلدان العالم فإذا حسنت معاملة المسلم وصلح عمله وتمسك بتعاليم القرآن الكريم في تصرفاته ومعاملاته نال الاعجاب والتقدير وكان قدوة ومثالاً للآخرين يسرون على خطاه و يقتبسون من عمله.

وفي الختام دعوت لهم بصلاح أحوالهم وابنائهم وان يعينهم الله على التمسك بدينهم وتربية ابنائهم على الإسلام وان يقدر الاجتماع بهم مرة ثانية في الحرمين الشريفين.

وكان يترجم كلمتي إلى الأوزبكية الأخ الشيخ محمد صادق بن محمد يوسف نائب مدير معهد الإمام البخاري.



بعض الذين حضروا صلاة الجمعة في مسجد الشيخ زين الدين

أيوم كيوم كاشغر؟

عندما كنت ألقى كلمتي في المصلين وكانوا من اعمار مختلفة اكثر من فيهم المسنون والكهول وفيهم شبان ورجال لاحظت انهم ينخرطون في البكاء وهم يسمعون الكلام عن قدومنا من جوار الحرمين الشريفين من مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وقد كادوا كلهم يبكون ومن دون شك ان الذين يبكون كانوا أكثرهم وكلما وردت في كلامي عبارة تشوقهم إلى الحرمين الشريفين أجهشوا بالبكاء وهم رجال في غاية القوة والمتانة في عواطفهم ولكن الحديث عن مهابط الوحي ومنطلق الرسالة المحمدية كان يهز مشاعرهم بقوة فينخرطون بالبكاء ومن ذلك ماذكرته من مسئوليتهم العظيمة أمام الله تعالى وامام التاريخ عن تنشئة أولادهم تنشئة إسلامية لئلا يتحملوا وزر إنقطاع الإسلام

عن هذه الديار على أيدي من لا يعلمون أولادهم الدين وكذلك عندما دعوت لهم بأن نجتمع بهم ثانية للحج والعمرة في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وماسبق لي أن رأيت باكين من خطبة ألقيتها من قبل مثل بكائهم الا ما كان من أبناء عموماتهم من سكان مدينة كاشغر المسلمة في تركستان الشرقية، فقد كانوا أكثر بكاء منهم وكان الفارق بين الحالتين أن أكثر الحاضرين في كاشغر كانوا من الشبان وفيهم الشيوخ والمسنون وهنا العكس فأكثر الحاضرين هم من المسنين وفيهم الشبان والكهول.

والجامع بين الفريقين هو محبة الإسلام في نفوسهم، وعراقته في بلادهم وشدة شوقهم إلى حج بيت الله الحرام وعجزهم عن ذلك لأن حكومتهم تمنعهم وذلك كان قبل ان تسمح حكومة الصين الشعبية للمسلمين فيها بالحج.

إضافة إلى الشئ الأساسي المشترك بينهم وهو وحدة الأصل التركي القديم المسمى بالتركستاني نسبة إلى بلادهم تركستان أي بلاد الترك.

وعندما انتهت الصلاة جاء المصلون للسلام والمصافحة وكان جمعهم كثيرا ولم يكن من الممكن مصافحتهم كلهم لأن الوقت يضيق عن ذلك فاكتفينا بالسلام على من كان في طريقنا بعد أن فتح الاخوة المرافقون الطريق لنا بصعوبة بالغة.

وكانت الصعوبة في مواجهة الاخوة الذين كانوا قد أدوا الصلاة في الفناء الخارجي للمسجد وكانوا ينتظرون ان تتاح لهم فرصة السلام على الوفد فصافحننا من كان في الطريق ومن لم يستطع منهم ان يتمكن من المصافحة اكتفى بلمس الثياب وبخاصة العباءة العربية.

الموت والحياة :

شهدنا اليوم في هذه المدينة مراسم الموت والحياة فالأولى كانت عندما حضرنا عقد الزواج بين عروسين شابين من اولاد المسلمين في مسجد ضياء الدين. وقد ذكرت ذلك فيما سبق والثانية عندما صلى الناس على جنازة في المسجد بعد الجمعة.

وكانت كلمة الدكتور/ شمس الدين التي ألقاها في تقديمنا للمسلمين وكلمتي التي تلتها قبل الصلاة.

ثم أدى المؤذن الاذان الثاني بصوت رخم شجي خشع له الجميع فتلا الامام الخطبة قصيرة بالعربية اتبعها بكلام بلغة القوم أطنه شرحا لما قاله بالعربية ثم خطب الخطبة الثانية موجزة أيضاً.

وعندما انتهى من الصلاة والتسبيح والتحميد بعدها وهو طويل. تكلم أحدهم وأطنه المؤذن داعياً الناس إلى الصلاة على الميت وقال اسمه فلان بن فلان من المحلة الفلانية وقد مات عن عمر يبلغ ٧٤ سنة.

فتأخر الصف الأول الذي نحن فيه وكان اقصر من غيره وذلك إلى مستوى الصف الثاني الذي تأخر ليفسح المجال لمن كانوا في الصف الأول.

وذلك أنهم لم يحضروا الجنازة إلى المحراب في مقدمة المسجد بحيث يراها المصلون، بل وضعوها كما هي عادتهم في غرفة موازية للصف الأول وهذا هو سبب تأخر من كانوا في الصف الأول ونحن منهم.

ثم صلى الأمام وخلفه القوم يصلون عليه وكان النداء على الصلاة بالمكبر كما كان خلال الصلاة ولم أر في صلاتهم على الميت أي فرق عما هو مألوف معتاد عندنا في صلاة الجنازة وهذه من مراسم الموت عندهم.

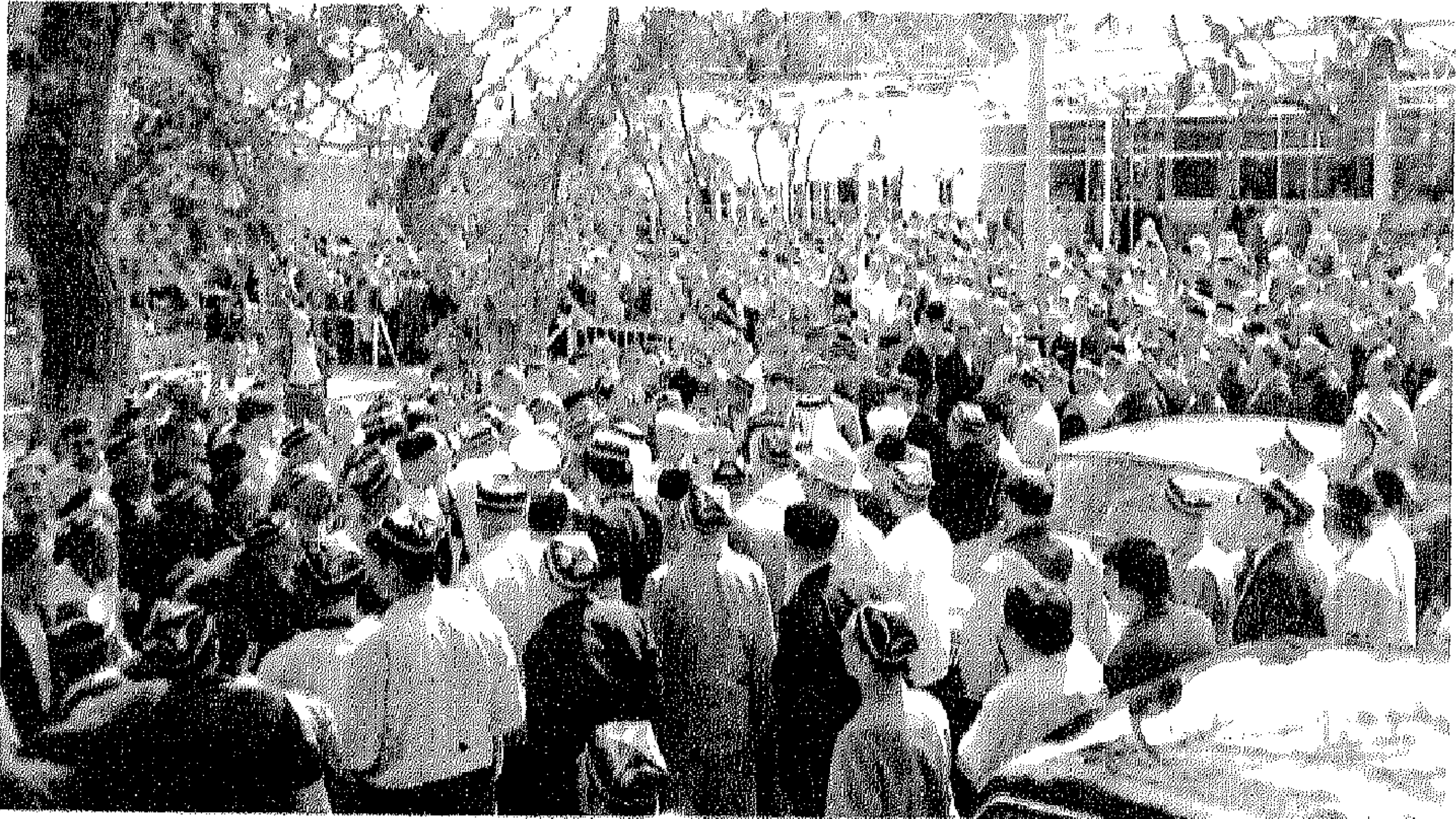
وكننا شعرنا في المسجد بالحر لكثرة المصلين وازدحام المسجد وكون مساجدهم مثل منازلهم معدة لاتقاء البرودة وليس لاتقاء الحر فصار الناس

يخرجون مناديلهم من جيوبهم يمسحون بها العرق عن وجوههم.

وهذا أمر غريب لم تكن نتوقعه في هذه البلاد الباردة ولكنهم أخبرونا أن الربيع يسكر اليها بالنسبة إلى غيرها من البلدان الشمالية من الاتحاد السوفيتي ولذلك كانت الأشجار فيها قد أورقت منذ فترة على حين انها في البلدان الشمالية مثل بلاد الداغستان وبلاد البلغار الذين يسمون الآن بالتتار فضلاً عن بلدان الروس كموسكو ولينين قراد لم تورق بعد.

واخبرونا ان الحر الذي شعرنا اليوم به ليس من المعتاد مثله في هذه الأيام لأن درجة الحرارة حسب ما اذاعتها الاذاعة الليلة البارحة ستكون (٣٥) درجة مئوية وهي لا تصل إلى هذا الارتفاع في الأحوال المعتادة خلال شهر ابريل.

ثم كانت العودة إلى الغرفة التي كنا فيها قبل الصلاة وتناولنا طعام الغداء فوجدناهم قد اعدوا ترتيب المائدة ورفعوا منها المآكل الحارة. ووضعوا عليها الأشربة والفاكهة والنقل الذي هو المكسرات بلغة عوام الكتاب إلى جانب الشاي الساخن فكانت استراحة في الغرفة مع جمعية المسجد وامامه والمشايع العاملين في الحقل الإسلامي وبخاصة في الادارة الدينية.



ساحة جامع زين الدين في طشقند بعد صلاة الجمعة وقد اكتظت بالمصلين

وبقينا فترة حتى خف زحام القوم وانصرف اكثرهم من المسجد. لأننا
كننا لانستطيع الخروج من المسجد بسهولة وقد احيطت سيارتنا التي وقفت
في فناءه الذي هو حديقة أيضا يجمع كبير منهم.

وقد قدر الإخوة الحاضرون عدد الذين أدوا صلاة الجمعة بخمسة آلاف
شخص وأكاد أتقن انهم لا يقلون عن ذلك.

إلى مسجد وقاص آتا :

ويقع هذا المسجد في قرية غير بعيدة من طشقند تسمى (نظر بك)
بالقرب من نهر عميق المجرى نزر الماء يسمى نهر قره قوش من منطقة ريفية
خالصة.

فوجدنا الاخوة المسلمين من سكان القرية وماحولها وبخاصة جماعة
المسجد والمسؤولين عنه الذين يسمون المتولين عليه وامام المسجد الشيخ (فيض
الرحمن رحمة الله) ومتولي المسجد اي رئيس جمعية المسجد واسمه (تلقم
خليلوف) ومعنى خليلوف: ابن خليل باللغة الروسية لأن (أوف) فيها معناها



مسجد سيد وقاص آتا في طشقند

ابن كما أسفلت ذلك والأخ أدهم اوغلو، أي ابن أدهم لأن (او غلو) في التركية تعني ابن، أي أنها تعني ماتعنيه كلمة اوف، الروسية تماماً وهو من أنشط القائمين على شئون المسجد والساعين في انشائه.

وقد ذكروا ان (وقاص) الذي نسب المسجد إليه هو رجل صالح سمى المسجد باسمه ولكن ليس فيه قبر.

وفي جلسة في غرفة في المسجد تحدث القوم حديثاً موثقاً عن إنشاء المسجد فذكروا انهم بعد أن حصلوا على الأرض على أيدي الجمعية الإسلامية التي تألفت منهم لهذا الغرض وبلغ عدد اعضائها عدداً زاد على العشرين طبقاً للقانون هنا أخذوا يجمعون التبرعات من سائر المسلمين فكان المسلمون حتى من المدن البعيدة عنهم يتبرعون لبناء المسجد بقدر طاقتهم حتى ان بعض البلدان البعيدة في وادي فرغانه مثلاً ارسل إليهم أهلها بعض النفود إسهاماً منهم في بناء المسجد.

وقد بلغ الحماس بالمسلمين أشده في هذا الأمر لأن الاذن ببناء المسجد في الاتحاد السوفيتي أمر له أهمية بالغة لما كان المسلمون قد عانوه في السابق من عدم الاذن ببناء المساجد بعد ان كان الشيوعيون قد صادروا المساجد ومنعوا المسلمين من الصلاة فيها الا عدداً لا يكفيهم كالمدينة التي كان فيها قبل الشيوعية مائة مسجد مثلاً فإنهم يبقون فيها مسجداً واحداً مفتوحاً للصلاة وبقية المساجد يغلقونها أو يستعملونها لما ينافي العبادة كأن يجعلوها مساكن للشبان من الشيوعيين أو مخازن لبعض البضائع.

واخبرنا الاخوة هنا ان بعض المسلمين الذين لا يستطيعون التبرع بالنقود لفقرهم وكون النقود التي يحصلون عليها لا تفي بأكثر من حاجاتهم الضرورية فانهم يتبرعون بأشياء عينية.

وبعض الذين لا يستطيعون التبرع بالنقود ولا بالأشياء العينية اسهموا بالعمل بأيديهم. قالوا: واستمر ذلك عدة شهور حتى تم بناء المسجد في عام

١٤٠٣هـ اي منذ ثلاث سنين وقد وجدوا بعد إتمامه ان لديهم من النقود ما زاد عن حاجة المسجد.

وكل هذه التبرعات هي من المسلمين في هذه الجمهورية ولم تأت منهم نقود من خارج الاتحاد السوفيتي.

قالوا وعندما انقضت الحاجة إلى النقود أردنا ان نعيد بعض ماتبرع به المحسنون إليهم بعد ان انقضت حاجتنا إليها ولكننا في بعض الاحيان لم نهتد إلى أسماء المتبرعين لأن بعضهم كان يقدم تبرعه باسم مجهول كفاعل خير وذلك احتساباً للأجر من الله تعالى. ولئلا يؤثر اعلان اسمه للناس في أجره وطلبه الثواب من الله تعالى.

وقد كتبوا تاريخ بناء المسجد عليه، كما زينوا محرابه بكتابة الآية الكريمة فوقه بخط جيد (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً).



صورة تذكارية في مسجد «سيد وقاص آنا» الجامع بطشقند

وزينوا سقف المسجد بنقوش جميلة رغم انه فيما يبدو من داخل المسجد من الخشب وتقع أرض المسجد على الضفة الشرقية لواد عميق المجرى ضيق اسمه (قره قوش) ومعناها كما اخبرونا القصب الأسود.

ثم كانت العودة بعد ذلك إلى فندق اوزبكستان حيث استرحنا فيه على بعض الأعمال ومنها مراجعة اخوة كرام من المصحح لهم بمقابلتنا وهم بعض العاملين في الشؤون الدينية أما سائر الناس فانه لايجوز لهم ان يصلوا إلينا ولا ان يجتمعوا بنا داخل الفندق او خارجه.

لقد حرصنا على مقابلة طائفة من الاخوة المسلمين من أهل البلاد ممن ليست لهم علاقة بالحكومة أو بالعمل الإسلامي فلم يتيسر ذلك وكان طلبنا المهذب لمثل هذا الأمر يقابل برد مهذب وهو إما الاحتجاج بضيق الوقت أو أننا إذا طلبنا رؤية الأحياء الشعبية القديمة من طشقند قد رأينا منها مايعطي صورة عنها في المدينة التي تقع فيها مباني الادارة الدينية وتسمى (ايستي شهر).

والحقيقة فيما يتعلق بطلبنا بل الحاحنا على رؤية المزيد من المساجد فانهم قد استجابوا له، وارونا طائفة منها ذكرت مشاهداتنا فيها. وهي كلها مبنية على استعداد الاخوة العاملين في المساجد لزيارتنا وتهيئة المآدب الحافلة لنا حتى ولو كان الوقت في غير وقت الغداء والشاي فان حفلات الشاي تكون كبيرة وحافلة.

قبل مغادرة طشقند :

تاشكند عاصمة جمهورية اوزبكستان السوفيتية كما يلفظ أهلها باسمها لأنه لا يوجد حرف الطاء في لغتهم أو (طشقند) كما تكتب في كتبنا يقدر عدد سكانها بحوالي مليوني نسمة يكثر فيها الروس والاوكرانيون، ويقال ان نسبتهم تبلغ ٣٠% من السكان وفي الأحياء الحديثة توجد المباني والعمارات الحديثة ذات الأدوار المتكررة وهذه المباني قليلة بالنسبة إلى اتساع رقعة

المدينة واما معظم أحياء المدينة فهي تنمو بالمنازل القديمة من الطين أو الخشب ومستوى المعيشة بالنسبة إلى دخل الفرد مرتفع حيث يبلغ الراتب الشهري المتوسط لخريجى الجامعة ما بين ١٥٠ — ٢٠٠ روبل. والصرف الرسمي للروبل الواحد هو دولار و٣٠٪ من الدولار الأمريكى بينما يصرف الدولار الواحد في السوق السوداء باثنين او ثلاثة روبلات.

وتجيز الدولة بعض الملكيات الصغيرة للمواطنين، فيمكن للفرد ان يحصل على قطعة أرض صغيرة لبناء سكن خاص له ويمتلك سيارة خاصة.

أما المحلات التجارية التي شاهدها وفدنا فكلها حكومية ويقولون ان الأفراد يستطيعون بيع بعض الفاكهة والخضروات والمنتجات اليدوية في الشوارع أو في اكشاك صغيرة اذا انتجوها بأنفسهم.

وقد نقل أحد الاوزبكيين المرافقين للوفد أن اذاعة نداء الاسلام مسموعة عندهم و يستفيد المسلمون الأوزبكيون الذين يعرفون اللغة العربية من برامجها الدينية والثقافية.

أما البث التركستاني فهو كذلك مسموع لديهم ومهم لهم لأن عامة المسلمين يفهمون تلك اللغة التركستانية الا أنهم يأخذون على البث التركستاني ضعف برامج ولغة المذيعين فيه ورغبتهم الكبيرة هو تحسين البث التركستاني من إذاعة جدة مادة ولغة حتى تكون شيقة وجذابة ومفيدة للمسلمين لأنه البث الإسلامى الوحيد ولو ان إذاعة طهران في ايران بدأت تبث برامج باللغة التركمانية إلى مسلمى تركستان الغربية في السنوات الأخيرة ونتج عن هذا البث الموجه انتشار بعض الأفكار الشيعة في جنوب تركستان الغربية.

كما يفيد بعض المرافقين المسلمين أن بعض الشباب المسلم قام بترجمة عدد من الكتب الإسلامية إلى اللغتين الروسية والأزبكية ومنها كتاب الدكتور مصطفى محمود «حوار مع ملحد» إلى اللغة الروسية «ومعالم في

الطريق» لسيد قطب إلى اللغة الاوزبكية وانهم يتداولون النسخ المخطوطة للدراسة فيما بينهم كما انهم ينشرون اشربة تسجيلات تلك الكتب فيما بينهم سرًا.

ويدرس عدد غير قليل من الطلاب العرب المسلمين في جامعة طشقند وغيرها من المعاهد العلمية الا ان اكثرهم لا يحضرون لأداء الصلاة في المسجد ويسيئون إلى الإسلام بتصرفاتهم اللا اخلاقية كما يقولون.

ويلاحظ ان التدخين ممنوع في الشوارع وأماكن الاجتماعات العامة وفي الحافلات والطائرات كما ان شرب الخمر محظور في الأماكن العامة ولا تباع الخمر الا من بعد الساعة التاسعة مساءً إلى الثانية عشرة ليلاً ومن يخالف ذلك يعاقب بموجب القانون وحجتهم في ذلك أن الإدمان على الخمر يحد من النسل كما أن شرب خمر بروبل واحد يجعل الدولة تحسرة روبلات نتيجة الاضرار التي يحدثها الخمر.

والحقيقة اننا لانستطيع أن نقول ونحن نهم بمغادرة طشقند أننا قد حصلنا على صورة كاملة واضحة عن أحوال الاخوة المسلمين فيها وعن كيفية ممارستهم لشعائر دينهم في الأحوال المعتادة اي حينما لا ينتظرون ضيوفاً أجنب.

فتلك الصورة يمكن ان يحصل عليها من تكون زيارته خاصة، وله أصدقاء وأعوان من اهل البلاد لا يخشون في معاونته على مهمته بطش أحد من الحكام وذلك أمر يكاد يكون مستحيلاً في ظل الظروف الحاضرة من الحكم الشيوعي المسيطر بل المهيمن على أحوال الناس الذي لا يعتبر المواطنين من هذه الناحية الا كالدمى التي يحق له ان يحركها اذا شاء وان يسكنها اذا اراد.

ولكن الشيء الذي نستطيع أن نقوله ونؤكد عليه أننا حصلنا على جزء مهم من الصورة وأنني قد نقلت كل ما حصلت عليه من تلك الصورة إلى

القارىء الكرم هنا بكل تجرد وامانة حتى اذا كان للنظام الشيوعي الحالي مايفخر به من شيء سواء أكان قولاً او فعلاً فإنني لم أهمله اذا كان له علاقة بما أتحدث عنه.

أمور ايجابية :

من الأمور الايجابية أو الحسنة التي يذكرها الشيوعيون بإسهاب بل بإطناب و يتباهون بها وقد يوافقهم عليها المنصفون أن أبناء المسلمين قد صار فيهم تحت ظل الحكم الشيوعي علماء تجريبيون وأطباء ومهندسون ومنهم طيارون وصناعيون فنيون متخصصون وان بلاد المسلمين التي لم تكن فيها قبل الشيوعيين صناعات حديثة تستحق الذكر قد صارت فيها الآن مصانع مهمة مثل مصانع الطائرات والسيارات والجرارات الزراعية وان بلدانا من بلدان المسلمين كثيرة في الاتحاد السوفيتي كانت فيها معادن وثروات معدنية ظلت دفينه الأرض، وحبيسة الاهمال حتى جاء الشيوعيون فبعثوها من مراقدها وازالوا عنها حجاب التراب وجعلوا يستغلونها لصالح ابناء المنطقة التي تقع فيها ولصالح الاتحاد السوفيتي كله.

وقد يكون هذا كله أو جله صحيحا. ولكن العاقل المنصف يعرف ان هذه الأمور كلها هي امور تجريبية تعليمية بل لها أسباب مادية من اخذ بها بنجاح حصل على نتائجها بنجاح.

ونحن نرى الآن الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية التي يناصبها الاتحاد السوفيتي العداء ويزعم أنها سبب البلاء على الأرض لكل الشعوب تبرز الاتحاد السوفيتي وتتفوق عليه في هذه المجالات الصناعية، وبخاصة الدقيقة منها التي تتطلب التقنية العالية والاخذ بأسباب التصنيع حتى ان الاتحاد السوفيتي يعترف بذلك ويحاول ان يحصل على أشياء من التقنية الغربية ليست موجودة لديه ولو بالسرقة او عن طريق الجواسيس والعملاء.

وهذا يدل على أنها لا علاقة لتحقيقها بالنظام الشيوعي بمعنى أن كل من أخذ بالأسباب هذه وصل إلى النتائج سواء اكان نظام الحكم عنده نظاماً شيوعياً يستعبد الشعب ويرغمه لارادة الحزب الحاكم وحده ام كان نظاماً رأسمالياً يحترم الفرد ويعتبر حرته الشخصية التي منها حرية الاختيار والتنقل داخل البلاد وخارجها هي مهمته الأولى.

بل ان نظاماً عنصرياً دكتاتورياً عانى منه الاتحاد السوفيتي وذاق منه الأمرين وهو النظام الألماني الهتلري كانت له اليد الطولى في التقدم الصناعي والتقني وإعداد المهندسين المهرة، والأطباء النظاميين والباحثين المجيدين.

وإذاً فالاتحاد السوفيتي ليس مصدر ما حققه من تقدم مادي هو اعتناقه للمذهب الاحادي وقضاؤه على التدين وحصره الدين في داخل دور العبادة فقط هو السبب في ذلك بل إنه الأخذ بالأسباب التي جرت سنة الله في خلقه على أن من أخذ بها استطاع الوصول إلى النتيجة التي تسببها (ولن تجد لسنة الله تبديلاً) (ولن تجد لسنة الله تحويلاً).

شيء مؤلم :

من المؤلم بل المفزع للمسلم الغيور على دينه أن يسمع ان للشيوعية فضلاً كبيراً على المسلمين الذين يعيشون تحتها لأنها علمتهم بعد جهل، وصنعت بلادهم بعد تخلفهم لاسيما اذا استشهد الشيوعيون بما هو واقع الآن في بلاد إسلامية لم تدخلها الشيوعية من انتشار الجهل بالعلوم التجريبية وندرة العلماء والفنيين فضلاً عن الباحثين والمخترعين وحتى ضباط الجيش ومن لهم قدرة على استعمال الأسلحة الفنية المعقدة.

فكأنهم يوحون بذلك أو يريدون ان يوحوا به إلى ان الدين الإسلامي هو سبب التخلف وان المحافظة على التقاليد الموروثة والعادات المكتسبة هو سبب الجهل وعدم المعرفة بهذه الأمور المهمة.

وإذا أراد المسلم أن يرد عليهم مايقولونه والتمس شاهداً مادياً لايؤمن الشيوعيون والماديون إلا به وأمثاله من حال قطر تمسك بإسلامه وحافظ على دينه في الوقت الذي بلغ فيه مدارج العلم التجريبي والتقنية المتقدمة التي بلغتها بعض الدول غير المسلمة فإنه ربما يعجز عن ان يجد ذلك الدليل فلا يجد مثلاً قطراً مسلماً متمسكاً بإسلامه بلغ في هذه الأمور مبلغ الاتحاد السوفيتي فيها.

وإذا قيل : ان الاتحاد السوفيتي هو دولة عظمى ولديه من الامكانيات المتاحة للرقى والتقدم ما ليس لسائر الدول الإسلامية في الوقت الحاضر فإنه يسائل نفسه عن الدول الصغرى المتوسطة في هذا المجال كالسويد وفنلندا وهولندا فضلاً عن الدانمرك والمجر مثلاً وذلك في ميدان الصناعة والاختراع.

وذلك كله بسبب عجز بعض المسؤولين في الدول الإسلامية أو تعاجزهم عن الأخذ بالأسباب الموصلة إلى الصناعة الراقية والعلم المادي النافع.



عند الخروج من فندق «اوزبكستان» مع الدكتور شمس الدين بابا خانوف

من طشقند إلى سمرقند

ساعات في مطار طشقند :

تركنا فندق اوزبكستان في الساعة مساء قاصدين مطار طشقند وكان من المقرر أن نغادره إلى مدينة سمرقند في الثامنة والنصف.

وكان بصحبتنا من سيرافقونا إلى سمرقند وعدد من الاخوة اضافة إلى الوفد المعتاد من المرافقين الذي يبلغ عددهم احد عشر رجلاً كما كان في الوداع عدد كبير من أئمة المساجد ومدرسي معهد الامام البخاري والعاملين في ادارة الشؤون الدينية.

وصلنا المطار بسهولة فهو قريب من الفندق فأجلسونا في غرفة كبار الزوار وقدموا المشروبات من الماء المعدني وعصير الفاكهة وبعدها الشاي والقهوة في انتظار الوقت المحدد لدخول الطائرة غير أن انتظارنا طال قليلاً فأعلنوا ان الطائرة ستتأخر في الاقلاع ساعة واحدة وسيكون إقلاعها في التاسعة والنصف بدلاً من الثامنة والنصف.

وكان في الغرفة التي نحن فيها بعض الجالسين الذين عليهم المظهر الروسي ولم نعرف شيئاً من مرافقينا عن حقيقتهم ولكن تبين أن هناك غرفة أخرى لكبار الزوار كانت مشغولة أيضاً.

اما السياح الأجانب الذين كانوا في المبنى العام للفندق وبعضهم في مقبضاته او مقصفه فانهم كثر أيضاً وكانوا سيقومون على رحلات أخرى غير رحلتنا.

واستمر التأخر وتجاوز الموعد الجديد فعمل المرافقون ذلك بأنه لسوء الجو في سمرقند وقال بعضهم: ان هناك عاصفة في سمرقند، وكانت الرياح قوية عندنا في طشقند فكانت تعبث بأبواب البناء ونوافذه وتبين أن ذلك كان مقدمة لمطر انهمر كما تكون العاصفة في صحرائنا قبل مطر الصيف.

وقلنا: ربما كان الجو في سمرقند مثل الجو هنا رغم البعد النسبي بين المدينتين.

وذكرت واقعة شبيهة بهذه حصلت لنا أثناء سفرنا في تركستان الشرقية شقيقة تركستان الغربية هذه فقد كنا في مطار أورمسي، عاصمة تركستان الشرقية التي يسميها الصينيون (سينكيانغ) ونحن نستعد للسفر إلى مدينة كاشغر تلك المدينة المسلمة العريقة التي لم يدخلها (التصين) نسبة إلى الصين — فانتظرنا فترة في المطار واخبرونا في النهاية ان السفر اليوم غير ممكن لأن مطار كاشغر واقع تحت عاصفة مع ان الجو عندنا ليس فيه شيء ولكن المسافة بين المدينتين بعيدة جداً وليست كالمسافة بين طشقند وسمرقند.

ثم تأخرنا يوماً كاملاً حتى تمكنا من السفر إلى هناك على طائرة مروحية صغيرة قطعت المسافة بين المدينتين اورومسي و(كاشغر) بعد ان حطت في مدينة (اقصو) بينها في عدة ساعات طويلة.

ولذلك سألت إخواني هنا عن الطائرة التي سنسافر عليها فأخبرونا انها طائرة متوسطة او صغيرة في الغالب، فقلت في نفسي: ربما تكرر لنا في تركستان الغربية ما حصل في تركستان الشرقية.

وطال بنا المقام وكانت غرفة الزوار التي نحن فيها في الطابق الثاني من بناء المطار وبجانبا قاعة واسعة تستعمل بمثابة المقصف وحانوت فيه تحف من صنع هذه الجمهورية وهدايا يدوية رأيت السياح يقبلون على شرائها.

واحتجنا للحمام فلم نجده في الطابق العلوي ومررنا إليه بعدة مكاتب للموظفين رأيتها كلها غير فاخرة، ولامجهزة بالأثاث الحديث وإنما أثاثها خشبي متوسط وجدت الحمام في حالة سيئة جداً اعادت إلى ذاكرتي الحالة السيئة التي رأيت الحمام عليها في مطار اورومسي عاصمة تركستان الشرقية فثلاً ليس في الحمام ماء ولا ورق ولا أية وسيلة من وسائل التنظيف وإنما

على من يريد استعماله ان يأخذ معه اوراقاً من خارجه .

وتأكد عندي مالمسته في هذه البلاد من ان المرافق العامة التي يستعملها عامة الناس لا تبالي بها الحكومة مثل كثير من نواحي الحياة التي اهملت مايربح الناس فيها مركزة على مايكسب الدولة القوة والمتعة وجاعلة الأولوية للصناعات الحربية والصناعات الثقيلة التي تتعلق بها أو تؤدي إليها.

وعند الخروج من الحمام نفسه اي المرحاض كانت هناك مساحة فيها ثلاثة احواض لغسيل الأيدي وذلك لكثرة من يحتاجون اليها ولكن ليس عليها ولا مرآة واحدة في الوسط حتى يستطيع من يستعمل الأحواض الثلاثة أن يستفيد منها بخلاف ما هو معمول به حتى في مطارات البلدان المتخلفة أو التي يسمونها نامية من أن يكون فوق كل حوض مرآة واحدة لمن يستعملونه .

وكان مكبر الصوت يذيع حركة الطائرات باللغتين الروسية والازبكية وقد خفت الحركة في المطار ونحن لا تزال في الانتظار وتجاوزت الساعة العاشرة والنصف ثم وصلت الحادية عشرة وكان من المقرر أن نتناول العشاء في سمرقند.

وأخرج مضيفونا حول بقائنا بدون عشاء فاخبرتهم ان هذا ليس مهما لنا واننا نقدر ان تأخر الطائرة لا يد لهم فيه غير أنهم تشاوروا فيما بينهم ثم أرسلوا رسلاً إلى جهة معينة عادوا بعدها بالعشاء وهو دجاج وما يسمى باليغمش وهو لفافات من العجين الابيض في قلبها اللحم المطحون والبهارات والخضروات فهي تشبه السنبوسك من هذه الناحية ومعها الخبز الوطني الغليظ وجاءوا مع العشاء بشئ غال عندهم في هذا الفصل من السنة لا يقدم الا لضيوف اعزاء الا وهو الطماطم لأنه لا توجد ثماره الآن الا من نبات استنبت في بيوت محمية من البرد بحمي من الزجاج او اللدائن.

الحبس في الطائرة :

تعشنا وكنا نخشى ان يقطع قيام الطائرة علينا العشاء غير ان بقاءنا في المطار قد امتد حتى الساعة الثانية عشرة منتصف الليل عندما دخلنا الطائرة وهي مروحية صغيرة ذات محركين مروحيين نصف نفائين تتسع لأربعة وخمسين راكباً وكان المطر ينزل رداذاً متفرقاً عندما ركبنا الطائرة وبعد ان شددنا الأحزمة، وأغلقت أبواب الطائرة بقيت جاثمة في مكانها ولم تتحرك وكنا تعبنا من الجلوس في غرف الزوار في المطار مدة خمس ساعات ونصف مما جعلنا نشعر بأننا قد حبسنا فيه لأننا لانستطيع ان ننطلق بطبيعة الحال إلى اي مكان آخر.

امتد وقوف الطائرة وهي جاثمة على أرض المطار ونحن قد سمرنا إلى مقاعدنا وقال الاخوة المرافقون: لقد اغلق مطار طشقند نفسه الآن وعلينا ان ننتظر فتحه لاقلاع الطائرة ولم أصدق ذلك فلم يكن هناك ما يدعو إلى اغلاقه.

فالجو جيد والمطر ينزل نزولاً خفيفاً وان كان يشتد أحياناً فانه ليست هناك عواصف الآن، بل ليست هناك رياح قوية.

ثم جاء الخبر على لسان أحد المرافقين الذي جراً على سؤال المضيف عن السبب فأجاب ان ذلك لكون المطر ينزل ولا تستطيع الطائرة ان تطير حتى يتوقف المطر.

وكان الحر داخل الطائرة قد بلغ من الركاب مبلغه فالطائرة مليئة بالركاب فليس فيها مقعد خال وقد أغلقوا باب الدخول إليها وهو واحد خلفها كما اغلقوا الباب الذي يفصل بين الركاب وغرفة القيادة.

صبر عجيب :

وليس هو صبرنا نحن فنحن كنا نتأفف ونتحدث بذلك فيما بيننا

بالعربية وان كان ذلك بالهمس الخافت لأن أصواتنا كانت وحدها
الاصوات التي تسمع في الطائرة.

أما بقية الركاب من المواطنين فإنهم قد صمتوا صمتاً وصبروا صبراً حتى
عن الشكوى في مثل هذه المواقف. فلم يسأل أحد منهم المضيف عن
السبب ولم يطلبوا ان تفتح الأبواب من أجل أن يمر منها الهواء مع أنهم لم
يتعودوا على الحر مثلنا.

ويدل هذا على سذاجته وبساطته دلالة ذات معنى وهي ان الشعب
السوفيتي شعب قد مرن على الصبر وصبر حتى على عدم الشكوى وقد عرفنا
هذا بعد ذلك منهم وعن طريق الأخبار من بعض الاخوة.

والغريب في الامر ان المسؤولين في الطائرة لم يروا ان للركاب وفيهم
نحن الضيوف الاجانب ان يخبروهم بسبب استمرار وقوف الطائرة وعدم
تحركها فلم يعلنوا ذلك في المكبر ولم يرسلوا احد المضيفين وهما رجل وامرأة
ليشرح الأمر لهم.

وكان المضيفان يتناوبان الدخول والخروج من غرفة القيادة إلى الطائرة
فيمران بالركاب إلى مؤخرة الطائرة وكأن الواحد منها آلة من الآلات فلا
ابتسام ولا مظاهر تأفف.

وقد شعر بعض المرافقين بضيق التنفس لأن الطائرة صغيرة ومليئة
بالركاب وليس فيها تكييف هواء ولا مراوح ولو فتحو بابي الطائرة لدخل
الهواء وراح الناس من هذا الضيق الذي يقارب الاختناق.

وكان الشيخ (طلعت تاج الدين) رئيس الادارة الدينية للقسم الأوروبي
من الاتحاد السوفيتي وسيبريا جالسا بجانبى والأحزمة مربوطة فطلبت منه ان
يكلم المضيضة أو المضيف يسأل عن الأمر فقال للمضيضة: اربط الحزام او
نتركه؟ يشير بذلك الى السؤال عما إذا كان وقوف الطائرة هكذا سيطول أم
يقصر.

فأجابت قائلة باقتضاب وبدون مبالاة من غير أن تتوقف: كما تريدون.

وكانت الطائرة قد ادارت محركاتها قبل ذلك ثم أوقفتها.

وقارنت في ذهني ايضاً بين الطائرة الصينية التي سافرنا عليها من (أورومسي) إلى كاشغر وتذكرت ان المترجم الذي كان معنا طيلة رحلتنا في الصين وهو الاستاذ (لقمان ماشان لي) أخذ مكبر الطائرة وتكلم باللغة العربية شارحاً كل مايتعلق بالرحلة من باب المجاملة.

أما أنا فلم اقتنع بكون الطائرة لا تستطيع ان تطير بسبب نزول مطر غير شديد وقد سافرت في بلدان مختلفة من اركان العالم وركبت طائرات متنوعة ومنها صغيرة مثل هذه فلم أر أن نزول المطر اذا كان خفيفاً وبدون رياح قوية يمنع الطائرات من التحليق.

وعلى أية حالة فقد بلغ الضيق منا مبلغاً عظيماً وشعرنا اننا في حبس حقيقي حبس عنا فيه حتى الهواء.

وزاد من ذلك في نفسي شوق عظيم كنت أشعر به لرؤية مدينة سمرقند عاصمة القرون القديمة التي وطد فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي وكان في فتحها انتصار للاسلام عظيم.

كيف لا ، وقد ارتسم في ذهني ما كان تردد في سمعي وتحت بصري من رؤية لاسم سمرقند أو حديث عنها او عن علمائها من المحدثين والأدباء النابغين.

حتى إنني الليلة البارحة استبطأت الصباح الذي سأسافر بعد يومه إلى سمرقند التاريخية المهمة. فجاء التأخر في المطار والتأخر في قيام الطائرة ضغثاً على إبالاة.

إلى سمرقند :

بعد توقف دام ساعة كاملة داخل الطائرة وفي الواحدة بعد منتصف الليل أديرّت محركات الطائرة وأعلنت المضيّفة من المكبر أن الطيران إلى سمرقند يقطع ثلثمائة وتسعين كيلومتراً وهي مسافة قصيرة كان يمكننا أن نقطعها بالسيارات بأقل من وقت التأخر الذي تأخرناه في المطار وخفنا منه أن يؤثر على برنامجنا في زيارة سمرقند.

وأعلنت المضيّفة أيضاً أن الطيران سيستغرق خمساً وخمسين دقيقة.

ولكن الطائرة بعد هذا الإعلان بقيت ومحركاها يدوران مدة وهي متوقفة.

ثم قامت في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل فمرت فوق جزء من مدينة طشقند وقد بدت أنوار البيوت فيه خافتة في هذا الوقت المتأخر من الليل ماعد الشوارع الرئيسية الحديثة فهي منارة جيداً.

ولم يخف الحر بتحليق الطائرة ولم يكن فيها تكييف هواء للتبريد وربما كان ذلك لكون بلادهم باردة في أغلب الفصول فتحتاج للتدفئة أكثر مما تحتاج إلى التبريد ولكن الجو في الجنوب والشرق يكون في الصيف حاراً ولم يكن في الطائرة أيضاً صمام يرسل الهواء الطبيعي كالمعتاد في الطائرات الصغيرة.

وكانت الضيافة نصف فنجان كبير من ماء معدني وعادتهم أن يقدموا المشروب الذي يتألف من الماء المعدني أو من مشروب غازي بأكواب كأكواب الشاي الكبيرة.

وقد قدمته المضيّفة وهي مقطرة الأسارير وكأنما هي تمن على الناس بذلك وإن كان الإنصاف يقتضي أن نذكر أن ملامح وجهها لا تدل على سرور ولا على انقباض.

في مطار سمرقند :

بانت أضواء مدينة سمرقند على البعد قليلة غامضة ثم أخذت تتجلى شيئاً فشيئاً حتى صرنا في المطار مباشرة فتضاءلت لأننا أبعدنا عن قلب المدينة.

ثم هبطت بعد الساعة الثانية بقليل في مطار لا تبدو الوجهة على مدارجه واضواء الممرات في المدارج.

وعند سلم الطائرة كان هناك طائفة من المستقبلين الذين يبدو عليهم السهر والإعياء مثلنا اذ كانوا في المطار ينتظرون قدوم الطائرة منذ الساعة الثامنة والنصف ومنهم عبدالله مليوف، اي ابن ملي لان أوف هي ابن و(ملي): اسم معروف بين المسلمين هنا. وهو ممثل شئون الأديان في سمرقند. والشيخ مصطفى قل امام مسجد خوجه جود مراد في سمرقند ويوسف خان نائب وكيل الشئون الدينية في سمرقند والشيخ عثمان بن رحيم جان إمام جامع الإمام البخاري في بلدة خرتنك.

وانتقل الجميع إلى غرفة كبار الزوار التي كانت خالية في هذه الساعة من الليل وحتى الموظفين لم نرفيها الا واحداً ولم نرد القهوة والشاي والمشروبات الباردة لأننا قد اخذنا كفايتنا منها في مطار طشقند.

ولاحظت ان الشطرنج موضوع على مائدة في الغرفة فذكرني هذا ببعض مدن الصين غير الكبيرة ومنها مدينة (اق صو) في تركستان الشرقية حيث رأينا في مطارها (لعب الشطرنج) جاهزة وذلك من أجل ان يستعين بها على قطع الوقت من يتأخرون في انتظار ركوبهم الطائرات.

في مدينة سمرقند :

قربوا موكب السيارات كالذي كان معنا في طشقند في مقدمته سيارة سوداء طويلة مخصصة لرئيس الوفد وكان الظلام الدامس هو المسيطر فلم

اتبين شيئاً من معالم الطريق الذي نسير فيه مع شوقي إلى ذلك لأنه حتى أرباض مدينة سمرقند وهي أريافها التي تحيط بها أو تقرب منها ورد لأكثرها ذكر في كتب أسلافنا المؤرخين والأدباء العرب.

ووصلنا فندق سمرقند الذي سنقيم فيه بعد الساعة الثالثة قبل الفجر بقليل.

وكانت غرفتي في الطابق التاسع مؤلفة من غرفة نوم فيها سريران ضيقان وغرفة استقبال ووجدناهم أعدوا العشاء في الغرفة ففي غرفتي كباب أي شواء بالقضيب وخبز وجبن وتفاح وخضروات من الخيار والطماطم وحلوى وماء معدني.

وقد نلت من ذلك قليلاً ثم ذهبت اتفقد الفندق فرأيت كل ذلك يصح أن يقال فيه انه يحتاج إلى صيانة فباب الغرفة لا يكاد يغلق ووجدت صعوبة في اغلاقه والحمام الخاص في الغرفة تنقط من فوقه نقط من الماء الخفيف لاشك في أنها متسربة من الحمام الذي فوقه في الطابق العاشر وصنبور الماء لا يمسك الماء إذا أغلق إمساكاً كاملاً.

وفي الغرفة ثلاثة كبرى قديمة.

وتركني الاخوة المرافقون والمضيفون في سمرقند بعد ان تواعدنا على اللقاء في الساعة العاشرة من صباح غد وذلك لكوننا نحتاج إلى شيء من الراحة في الصباح.

ويتأخر توقيت سمرقند عن توقيت طشقند بساعة واحدة.

يوم السبت ١٠ شعبان ١٤٠٦ هـ - ١٩ أبريل ١٩٨٦ م

صباح سمرقند :

كان صباح سمرقند قد أعقب ليلة ليلاء أو على الأدق كان في أعقاب

ليلة من الأحلام المليئة بسمرقند فكأنني لم أصدق نفسي أنني الآن حقاً في سمرقند ذات التاريخ العتيق والماضي الإسلامي المجيد بلاد العلماء الأعلام من اهل الإسلام من المؤرخين والشعراء ومن الفلاسفة والحكماء.

وربما كان ذلك أيضاً هو ما جعل نومي متقطعاً وفكري موزعاً حتى اسفرت النافذة خلف الستارة فأزحتها عن منظر انيق وان كان لا يروق فأناقته انه لسمرقند التي كان اسمها يجلجل في خاطري ويلح في ذلك منذ أن دخلنا هذه الأرض أرض بخارى وماوراء النهر قبل أيام.

وأما كونه لا يروق فهو أنني تصورت ان عيني ستقع اول ماتقع عليه من مدينة سمرقند من نافذة. غرفتي الواقعة في الطابق التاسع من فندق سمرقند على أبنية بهيجة، وحدائق مزهرة، وأنهار أراها كما تخيلتها من أوصاف المؤرخين تدخل البيوت فتخرج منها بخبت أهلها لتبعد الخيث عن مدينتهم.

وكان أول مناظر المدينة بيوتاً قديمة ذات طلاء متغير وبيوتاً منفردة ذات سقوف مسودة مسنمة. وأبنية ترى منها وميض التاريخ على البعد وهي تبدو شبيهة بالقللاع أو التكاريا القديمة من ارتفاع غرفتي ومنها واحد ذو قبة زرقاء اللون عرفت بعد ذلك أنها القبة المبنية فوق قبر قثم بن العباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.



منظر من الفندق لأحياء سمرقند

وهي الوحيدة القديمة المجدة فكان طلاؤها الأزرق يلمع وكأنما ينافس
زرقة السماء في هذا اليوم المشرق الشمس الصافي الأديم.

وغير بعيد منه بناء تاريخي آخر لكن قبته غير لامعة بل إنها صدئة كأنما
نفض التاريخ عليها من غبارهِ او من احزان أهلها المسلمين الذين انقلبت
كفة الدهر بهم بسبب سوء أعمالهم وأعمال إخوانهم فرجحت بها كفة أخرى
من كفتي الميزان هي كفة الاحاد ومعه الإستعباد فلا حول ولا قوة الا بالله
العظيم.

وصرت وانا اتأمل مدينة سمرقند من نافذة الفندق الذي لايقع في
ضاحية بعيدة وإنما هو في ركن من المدينة القديمة غير بعيد عن وسطها
فأقول: اين ماذكره المؤرخون عنها من بهجة مرأى، وقوة عمارة، وكثرة
بساتين؟.

وهل مرجع ما هي عليه الآن هو ما ابتليت به في هذا الزمان أم انه
المبالغة في القول؟ أما هي الحقيقة ولكنها حجت بما أصبحنا عليه من خير
وما صارت تتمتع به مدننا من جمال وما فيها على صحراويتها — من حدائق
في البيوت ومرافق في الأسواق نافست بها بلاد الأغصان والأشجار.

أم أنه النوم العميق الذي إذا ران على الأوطان اخلدت إليه كما يخلد
الوسنان إلى إغفاءة السهران لايتغى بها بدلاً، ولا يريد عنها حولا، ولو كان
حوله حريق لكونه لا يريد أن يفيق؟

ورحت أبحث عن قبر تيمور فاذا بقبته لا تزال شاخصة فقلت في نفسي
ماذا لو خرج تيمور فرأى من عجائب المقدور ما انساه ماذكره عنه ابن
عربشاه في كتابه «عجائب المقدور في نوائب تيمور»؟

وازدحمت الأفكار في ذهني وانا اعجب من تدني احوال المسلمين بعد
العز المكين واذا بأحد الأصحاب يطرق الباب ويقول: ان القوم حضور فها
إلى الفطور.

وكان الفطور في مطعم (سمرقند) على مائدة خاصة فصلتنا عن جمع كبير من السياح الأوروبيين وذوي المظهر الأوروبي جاؤا إلى سمرقند لمشاهدة آثارها وتلمس أخبارها وربما لرؤية إديبارها والله في خلقه شئون وإذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون.

و يقال ان سمرقند مدينة قديمة يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ سنة وقد قامت بدور هام في التاريخ الإسلامي لآسيا الوسطى منذ ان فتحها العرب المسلمون في عام ٥٦هـ / ٦٧٥م وكانت عاصمة لعدد من الحكومات الإسلامية التي كان لها شأن في المنطقة بدءاً من الدولة السامانية ٢٥٢ — ٣٧٥هـ حتى الدولة التيمورية ٧٧٠ — ٩٠٦هـ وقد ازدهرت سمرقند بسبب اهتمام الملوك باتخاذها عاصمة، فتوجد فيها الكثير من الآثار الإسلامية الرائعة والتي بدونها تكون سمرقند قرية من القرى المنسية تلك المباني الجميلة تعكس حضارة الإسلام في هذه المنطقة وتنظر بحزن وألم لما آل إليه حال المسلمين.

ويبلغ عدد سكان سمرقند الآن ٣٤٥ ألف نسمة. وفي عهد تيمور لنك كان سكانها يبلغون ٤٥٠ ألفاً هبط عددهم إلى أقل من ١٠٠ ألف بعد ذلك.

قبر تيمور لنك

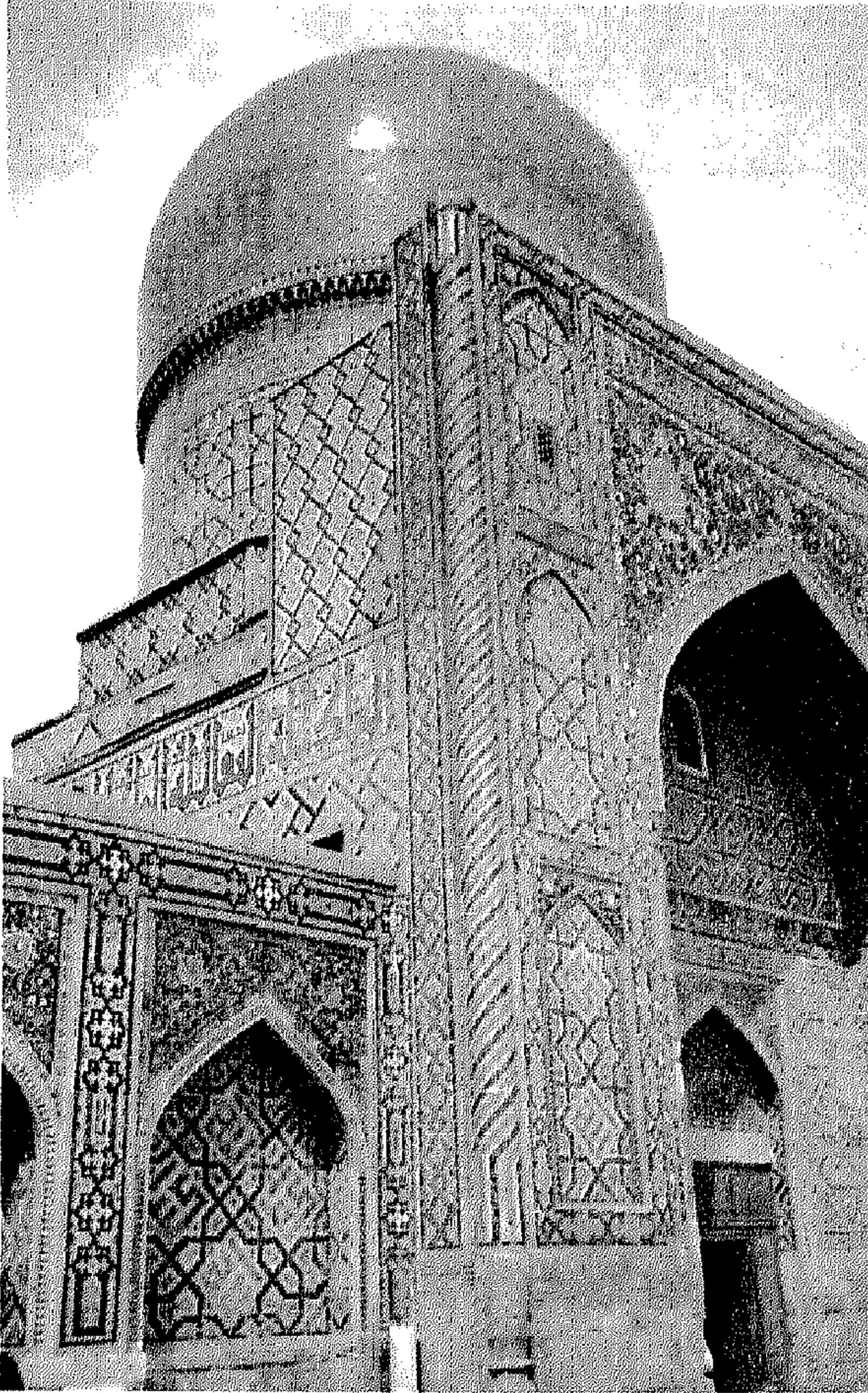
ولنك أو لنق بجيم مصرية معناها: الأعرج بالتركية ولتيمور في عرجه قصص طريفة رغم أن أكثر قصصه مخيفه.

بدأ برنامج اليوم بفقرة مثيرة هي زيارة ضريح أكثر الملوك الذين أتخذوا سمرقند عاصمة لهم إثارة هو تيمور لنك الذي غزت جيوشه أكثر البلدان الإسلامية ومنها الأمصار العربية كما كان غزا حدود روسيا وألح على أبناء عمومته الترك الذين تقع بلادهم على حدود روسيا يغزوهم ويمعن فيهم قتلا وتشريدا حتى زعم بعضهم أن غزواته تلك لبلادهم ربما كانت سبباً من اسباب تغلب الروس عليهم، لأنهم انقسموا وضعفوا بعدها.

ثم عزم على غزو الصين فتوجه إليها غازياً ولكنه مات في الطريق عن
عمر لم يتجاوز ٤٢ سنة في عام ٨٠٧هـ.

وقد سار الموكب إلى الضريح مع شوارع لا بأس بها وإن كانت دون
شوارع طشقند بكثير ليس من حيث السعة فحسب، وإنما من حيث العناية
والتعمير والتشجير.

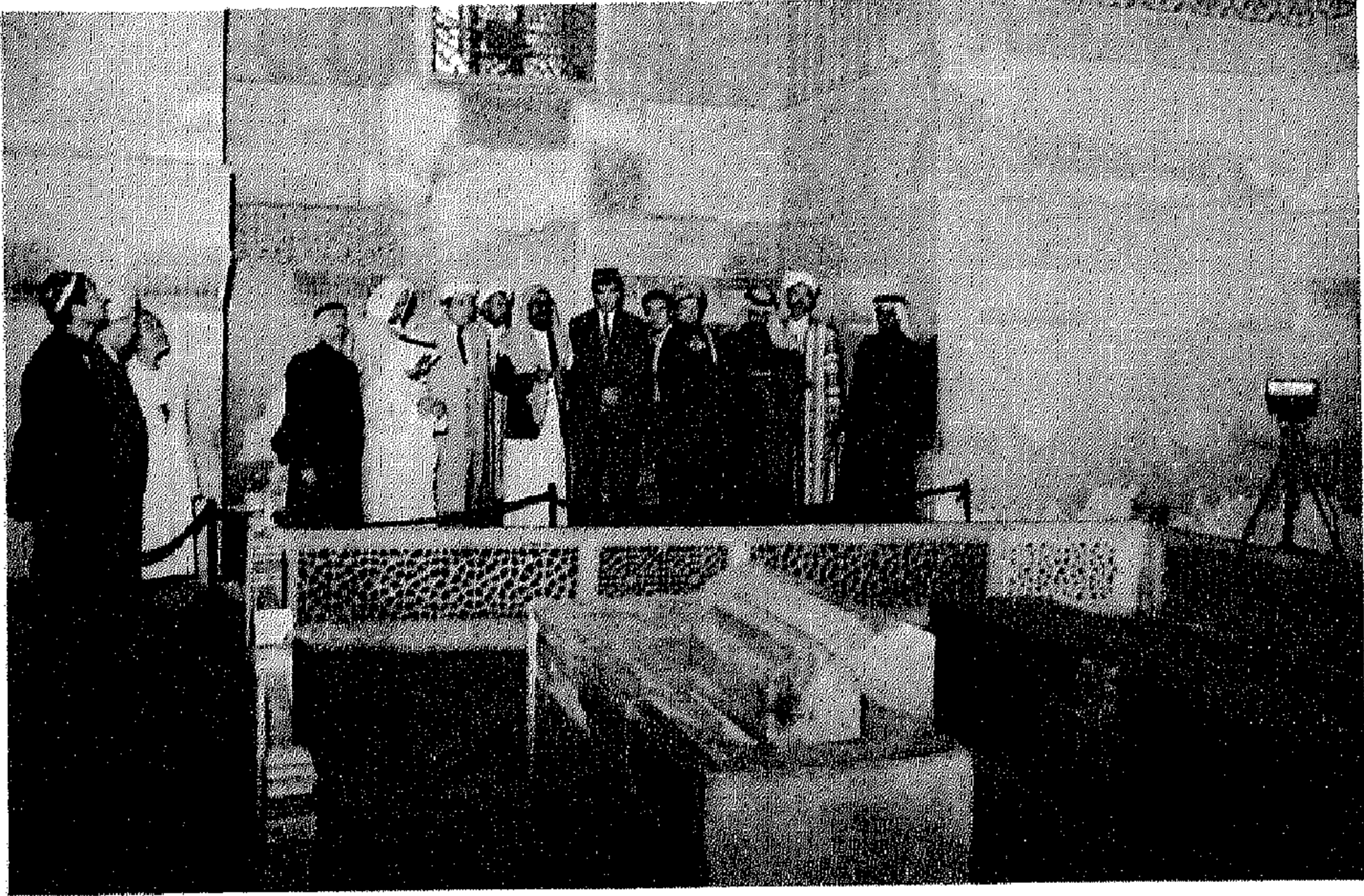
ويرى المرء البيوت عليها طابع القدم والأزقة التي لم يكد يطرأ عليها تغيير
فيسر بذلك إذا كان مثلى يعشق الآثار القديمة ويحب أن يرى كيف كان
المسلمون يعيشون في المدن الإسلامية في القديم.



رأينا القبر عندما
رأيناه ذا قبة شاهقة
ومنظر خطير وعرفنا
السبب في ذلك عندما
علمنا من الدليل
الذي كان في انتظارنا
عند القبر وهو مسلم
من أهل سمرقند اسمه
موسى بن نورسن أن
تيمور لنك نفسه هو
الذي بنى هذا الضريح
لنفسه من أجل أن يدفن
فيه هو وأولاده ولكنه
مات قبل أن يتم
بناؤه بسنتين فأكملاه
خلفاؤه من بعده.

منظر خارجي لمقبرة تيمور لنك

دخلنا إلى القبر الذي يقع تحت القبة العالية من باب مواز لأرض الشارع تقريباً فرأينا قبر تيمور وقبر ابنه مهران شاه وشاه رخ بجانبه وقبر حفيده واسم أحدهما محمد سلطان والآخر (ميرز ألق بك).



الوفد عند قبر تيمور لنك في سمرقند

ويقع قبر تيمور في وسط هذه القبور وقد جلى بمرمر أسود ورفعت القبور حوالي نصف متر عن سطح الأرض.

وعند رأس تيمور قبر استاذة المسمى (مير سعيد بركات) او بركة وذكروا أنه كان قد توفي قبله ونقل رفاة إلى هنا وقد زينت القبة التي تعلو القبر بنقوش وزخارف بديعة من النقش الأصيل في البلدان المسلمة في ذلك الوقت واستعمل الذهب في زخرفتها ونقشها وكتبت عليها آيات قرآنية عديدة.

الخداع حتى في القبور :

المعروف عن تيمور أنه مخادع ماكر في الحرب و(الحرب خدعة) كما يقولون وقد استفاد من المخادعة والمراوغة في حروبه وان كان في كثير من

الأحيان لا يرى نفسه بحاجة إلى ذلك فيصارع أعداءه بأنه سيهجم عليهم أو يبادرهم بالهجوم العلني ثقة منه بقوة جيشه وضعف أعدائه.

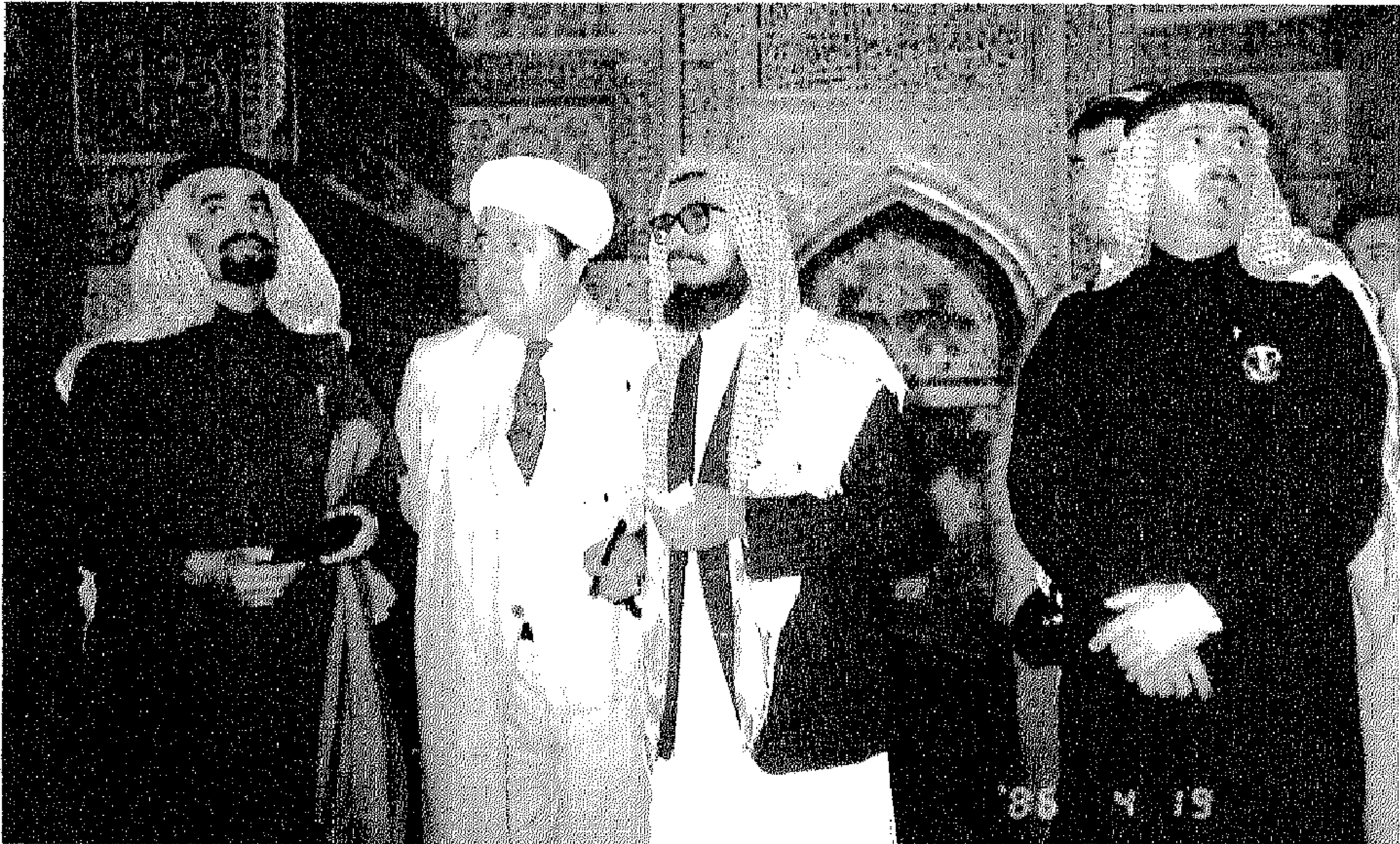
ولكنني لم أظن أن (تيمور لنك) مخادع حتى في موته اذ قلت لأحد الرفاق مداعباً ماذا لو خرج تيمور من قبره فرأى ما عليه بلاده الآن؟

فأجاب ضاحكاً: إنه لن يخرج من قبره هذا حتى ولو نفخت فيه الروح وأن هذا القبر ليس قبره.

فقلت : كيف يكون ذلك؟

فأجاب : لأن هذه القبور هي مزيفة وليست حقيقية وإنما هي نسخة للقبور الحقيقية الموجودة في طابق اسفل من هذا القبر تحت الأرض سنمضي لمشاهدتها بعد قليل.

وعجبت من ذلك لأن هذه القبور التي نشاهدها لها مظهر القبور الحقيقية تماماً وحتى المكان المحيط بها لا يبعد عما كان يحيط بقبور الكبار عند الناس من الحكومة ومن يعتقدون فيه الصلاح في ذلك الحين.



داخل ضريح تيمور لنك (من اليمين) الدكتور سعيد محمد باديب فالملوف والدكتور شمس الدين فالشيخ سالم بن عبدالله السالم

ولذلك رأيناهم يرممون القبر، ويعيدون لنقوشه رونقها أو لنقل إنهم يعيدون البناء الذي على القبر لأن القبر نفسه لم يمس.

وذكروا أنهم استعملوا في إعادة النقوش والزخارف إلى طبيعتها داخل المبنى كيلوين ونصف كيلو من الذهب إضافة إلى الأصباغ والمواد الأخرى التي استعملت في هذا الغرض وذلك في عام ١٩٧٥م.

ولا يزالون الآن يواصلون ترميم المبنى من الخارج والداخل. وذلك وفق خطة للمسؤولين السوفييت هنا في ترميم الأضرحة والمباني العامة على القبور والمشاهد لأغراض سياحية لأنها تجتذب السياح الذين تحصل منهم السلطات الحكومية على أموال بالعملة الصعبة من جهة ومن جهة أخرى لخداع السذج من العامة الذين يتوهمون أن هذه المشاهد والمقابر هي آثار إسلامية وشواهد تاريخية على تقدم أسلافهم وأنه لذلك تجب العناية بها ويحمدون للدولة تلك العناية.

القبور الحقيقية :

خرجنا من الضريح بقبوره الوهمية إلى خارج المبنى ثم عدنا إلى دخوله من باب جانبي متطامن يقع أسفل من أرض الشارع غير مواز للباب الظاهر الذي دخلنا منه ويقع في مكان من الجدار ويؤدي إلى طابق سفلى ينزل إليه بدرج حيث يوصل إلى ساحة في الأسفل تشبه القبو أو (البدروم) وفيها القبور الحقيقية قبور تيمور لنك وأولاده.

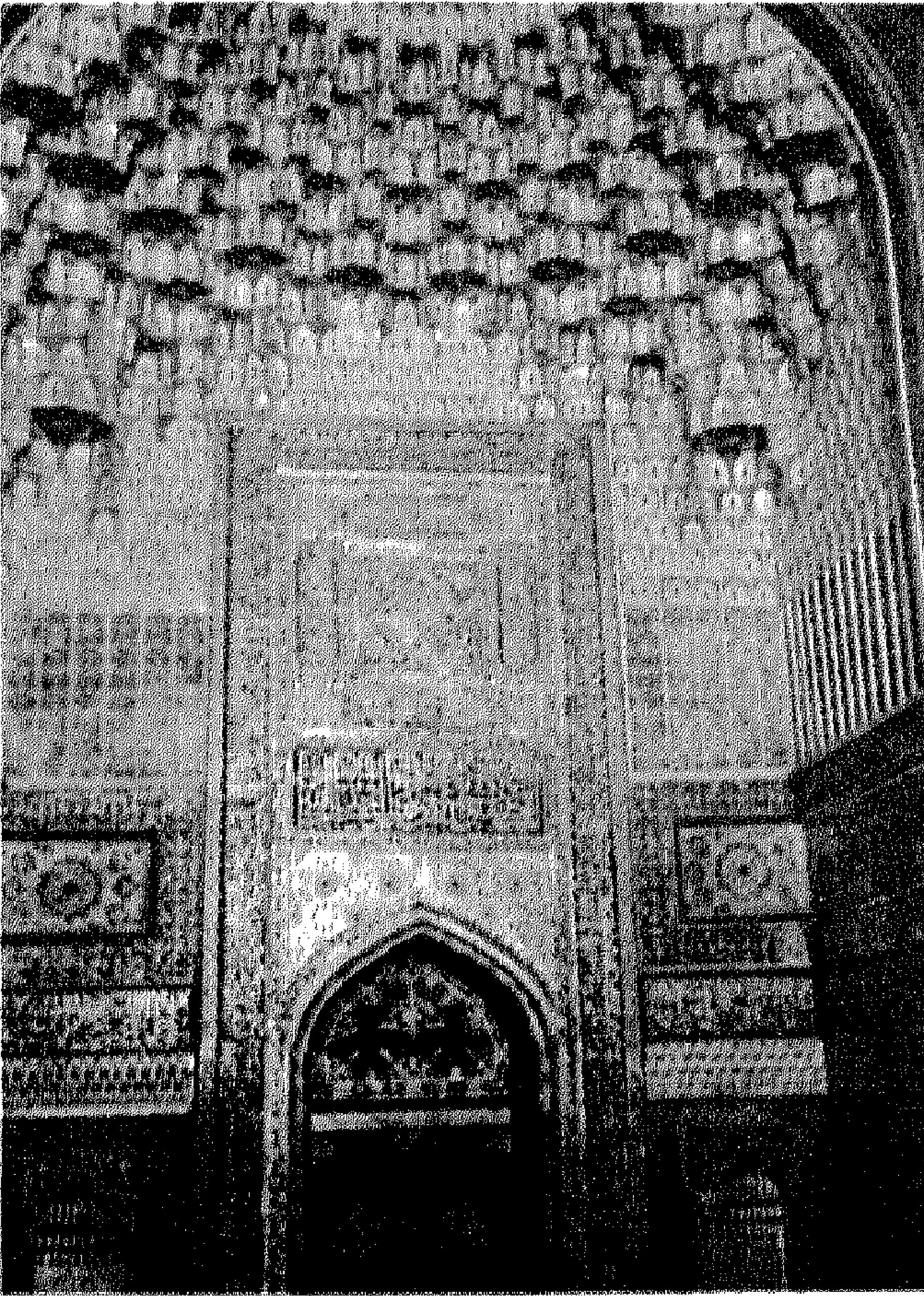
وقد فعل تيمور لنك ذلك أو فعل بناء على وصيته خشية على قبره أن ينبشه أعداؤه بعد موته فيشمتوا به.

وقد تحقق ما رمى إليه، إذ بقيت هذه القبور الحقيقية مجهولة للناس عبر القرون حتى تحققت منها السلطات المسؤولة عند ما فتحتها في عام ١٩٤١م فوجدتها قبوراً حقيقية وفيها الجثث لم تمس منذ أن دفنت.

والقبور الحقيقية هذه تشبه في مظهرها القبور الوهمية والمزيفة الموجودة في الطابق الذي هو أعلى منها وهو الموازي للأرض الا أنها أقل تزويقاً.

وقد كتب عليها بالعربية تاريخ الأمير تيمور واسماء اهل القبور.

ومما يذكر هنا انه حتى مع هذا الاحتفاء بقبر تيمور لنك حتى قبل وفاته ثم بعدها فانه توفي بعيداً عن وطنه، وعن مكان قبره هذا ثم أكمل حفيده قبره الذي لم يكن قد تم قبل موته ونقله جثمانه إليه.



وقد ذكرتني طريقة إخفاء القبور تحت قبور وهمية ما كان يفعلها الفراعنة في قبورهم إذ كانوا يضعون نسخة من التابوت الخالي في قبر زائف ويخفون القبر الحقيقي خوفاً على القبر من لصوص المقابر الذين كانوا يسرقون ماتحتويه قبور الفراعنة من كنوز لا تقدر بثمن من الذهب فما دونه.

منظر من داخل ضريح تيمور لنك

وسألت نفسي عما إذا كانت هذه الفكرة معروفة لتيمور ومن هم في عصره أو أنها كانت بمحض المصادفة؟

وتجدر الإشارة إلى أن تيمور لنك استمر أميراً أي في السلطة مدة خمس وثلاثين سنة امتدت سلطنته أو امبراطوريته في الحقيقة وإن لم يسم نفسه امبراطوراً فشملت مساحات واسعة من قارة آسيا إلا أن سلطته لم تكن تستقر كثيراً في البلدان البعيدة التي يفتحها.

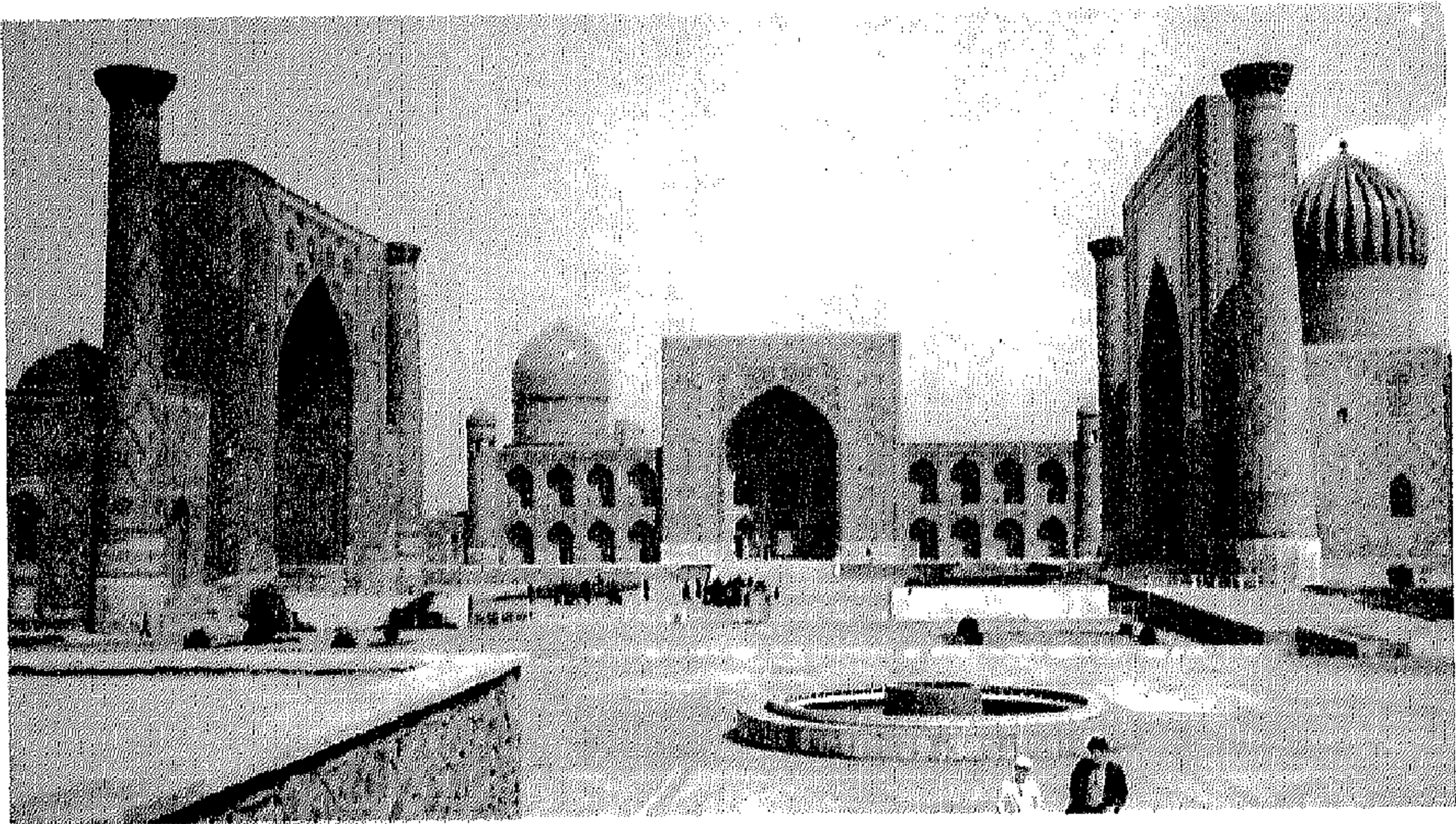
وكانت مدينة (سمرقند) هذه خلال حكمه تعتبر عاصمة دولة كبرى بمقاييس الدول في ذلك العصر.

إلى ميدان المدارس :

تركنا القبور إلى مسارج تيمور بل إلى ميادين انتصار الإسلام قبل ثلاثة عشر قرناً من الزمان لنرى من أمر سمرقند هذه ما يستحق أن يرى.

فكانت الجولة الأولى في ميدان وسيع، بل عظيم يسمى (ميدان ريجستان) وتحيط بهذا الميدان مدارس ثلاث سميت بهذا الاسم. وإن كانت الواحدة من المدارس هذه تشتمل على عدة أبنية هامة مثل المسجد والمكتبة.

ومعنى كلمة (ريجستان) بلغتهم الأرض الكثيرة الرمل مما يظن معه أن هذا الميدان عندما أقيم في أول الأمر خلال القرن التاسع الهجري كان



صورة التقطها المؤلف لجزء من ميدان ريجستان تحيط به المدارس

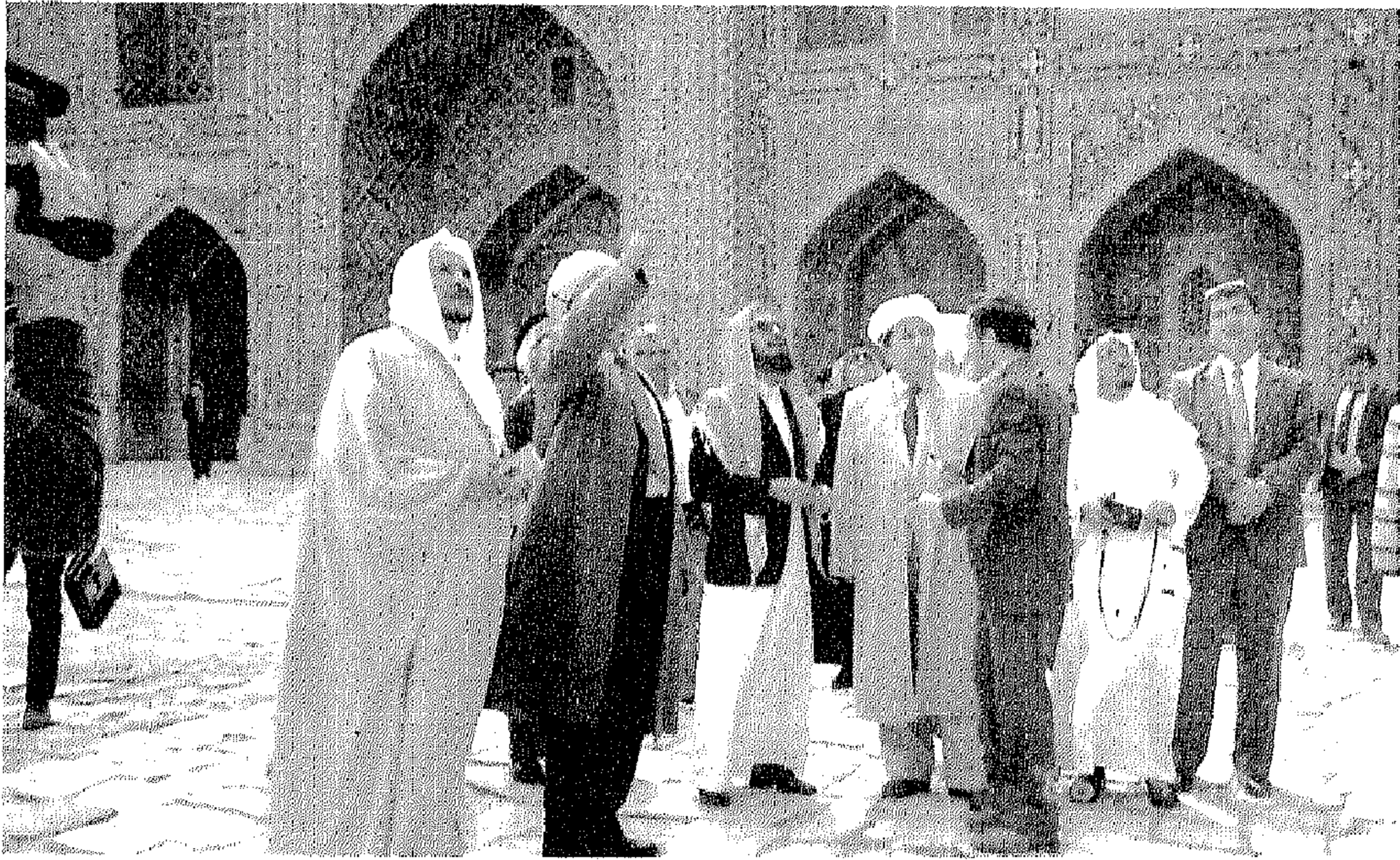
كذلك او كان جزء منه يتصف بهذه الصفة ثم صار كله بعد ذلك ساحة واسعة بالغة السعة مفروشة كلها بالحجارة المهذبة الغالية الثمن، الكثيرة التكاليف.

ويتوسط ميدان (ريجستان) مجموعة من المدارس هي ثلاث تحيط به من جهات ثلاث أما الجهة الرابعة فإنها مدخل هذا الميدان العظيم.

وهذه المدارس الثلاث ذات بناء فخم ضخم يمثل — بحق — ما كان قد وصل إليه فن البناء في البلدان الإسلامية في ذلك التاريخ القديم من اتقان، وما بلغت الزخرفة من فن دقيق يتجلى فيه الذوق الرفيع.

فهى في حد ذاتها مدارس او بنيت لتكون كذلك ولكنها في الوقت نفسه هي مدارس للباحثين من حيث التصميم والبناء والإتقان.

وقد حفلت بالآيات القرآنية الكريمة المكتوبة بخطوط غاية في الجودة والاتقان وزخرفت بالنقوش التى تسمى النقوش الإسلامية لكونها هى التي كانت شائعة في العالم الإسلامي في القديم وكونها خالية من صور الأحياء من أناس وحيوان.



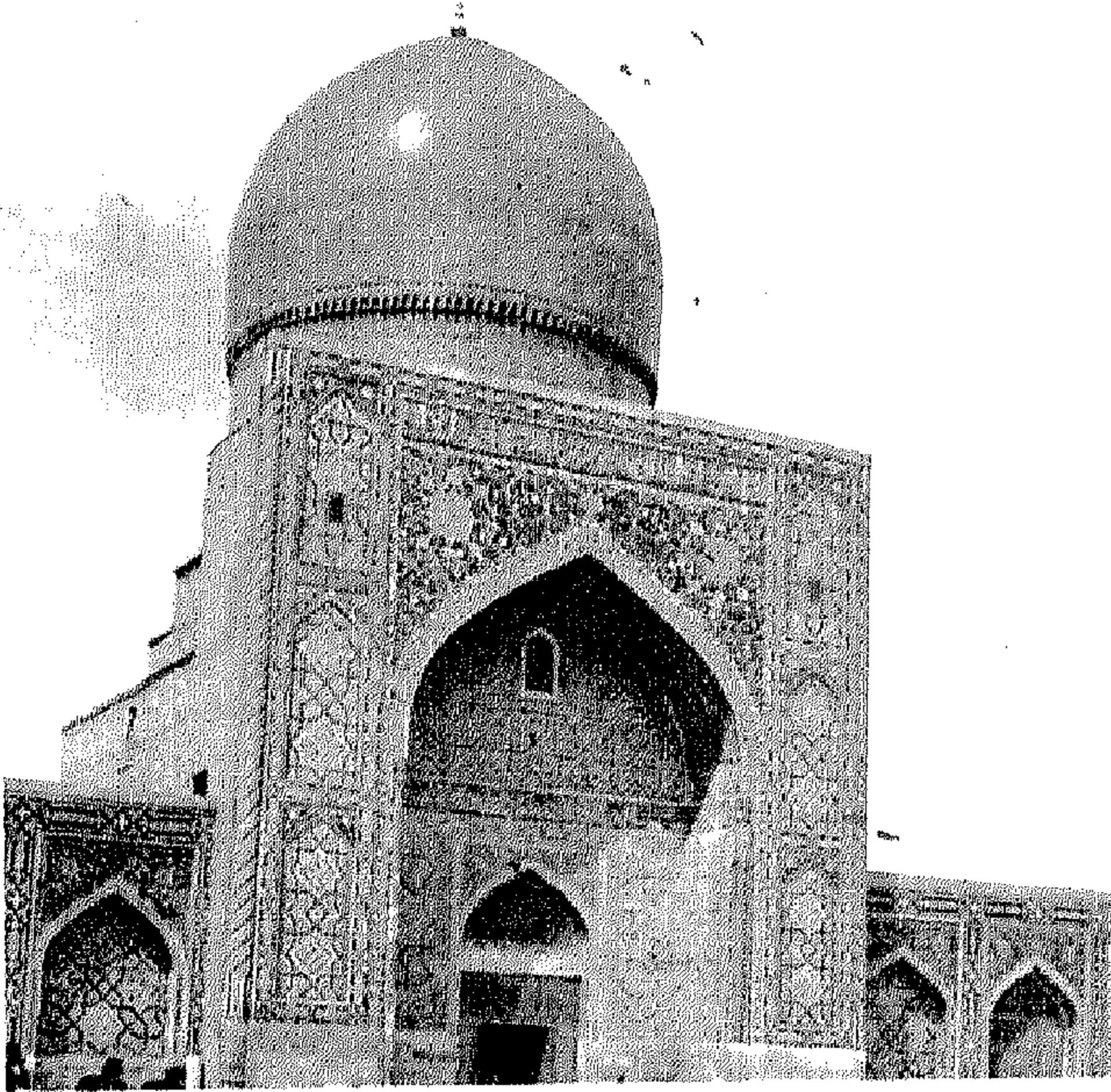
الوفد في ميدان ريجستان أمام إحدى المدارس

والمدرسة الأولى التي بناها (أولغ بك) حفيد تيمور ودرس فيها هو نفسه وهو معروف بمحبته للعلم وشوقه إلى المعرفة حتى إنه أنشأ مرصداً عظيماً في سمرقند سيأتي الكلام عليه عندما نزروره فيما بعد ان شاء الله كما نوه الدليل والحاضرون بان الشيخ (عبدالرحمن الجامي) المشهور عند المتأخرين بمؤلفاته المختصرة في النحو والصرف قد درس في هذه المدرسة مما أعاد إلى ذاكرتي ما كنت قد اقتنيته في أول عهدي بطلب العلم من مؤلفات هذا العالم الجليل التي هي متون مختصرة قد حوت معلومات مركزة من العلوم.

وكان الشيخ عبدالرحمن الجامي قد درس فني النحو والصرف في هذه المدرسة.

واخبرونا انها بنيت ما بين عامي ١٤١٨ — ١٤٢٢ م.

قلت ان بناء المدارس هذه هو ضخم فخم ولعل مما يقرب ذلك إلى ذهن القارئ الكريم ان يعرف ان ارتفاع القوس المثبت بالجدار والذي يعلو المدخل الرئيسي للمدرسة يبلغ ٣٤ متراً اي ما يزيد على ارتفاع بناء مؤلف من عشر طبقات.



والثانية : مدرسة
(شيردار) وترجمتها مدخل
الأسد وقد بنيت في عام
١٦١٩ — ١٦٣١ م.

والثالثة: مدرسة تلا قارى
ومعناه: العمل المذهب،
لأن هذه المدرسة طليت
اجزاء منها بالذهب وبنيت
ما بين عامي ١٦٤٦
و١٦٦١ م.

وقد نال الخراب هذه المدارس الفاخرة وما ألحق بها من أبنية فاخرة البناء أيضاً كما لحق الخراب بأجزاء من ميدان ريجستان الذي تقع عليه ومعنى اسمه الموضع الكثير الرمل كما قيل لنا.

وإلى هذا السبب أي كون الميدان كان فيه رمل يرجع — فيما يعتقد — من كون منارتين في هذه المدارس قد مالتا عن الاستقامة التي كانتا عليها بمقدار مترين مع أن ارتفاعهما يبلغ ٣٢ متراً ويظهر الميل واضحاً حتى للرجل غير البصير بهذه الأشياء.

تجولنا في المدارس الثلاث وهي غاصة بالسياح من اجناس مختلفة ترجع اكثرها إلى الأصول الأوروبية، كما يوجد من بين السياح طائفة من أهل المناطق الإسلامية في هذه الجمهورية جمهورية أوزبكستان وماجاورها جاؤا لمشاهدة الآثار الرائعة التي خلفها اجدادهم المسلمون في هذه البلاد.



صورة تذكارية للوفد مع الأخوة المرافقين أمام إحدى المدارس في ميدان ريجستان بسمرقند

ولا تزال اعمال الترميم جارية على قدم وساق في ترميم هذه المدارس وما يجاورها من أماكن وهو ترميم صعب لأنه لا بد أن يكون مطابقاً لما

كانت عليه اول الامر من تزويق ونقش حتى لا يتنافر التجديد فيها مع الأصل القديم.

وقد أدمجت الآيات القرآنية والعبارات الإسلامية في النقش حتى صارت قطعة رائعة منه لاسيما مع خطوطها العربية الفنية الرائعة.

وفي تلك العبارات الإسلامية (البقاء لله) (المملك لله) (الحمد لله) ثم تكرر هذه الجمل وقد يكتب غيرها كل ذلك في كتابة منسجمة مع النقوش والتزيينات الموجودة على الجدران.



عند مدرسة أولغ بك

وبعض العبارات كتبت بالفسيفساء ونحوها والفسيفساء كما هو معروف قريبة الشبه بما يعرف بالسيراميك من قطع صغيرة تكون ملونة بهيجة المنظر وتصنع منها وبألوانها اشكال جميلة ورسومات عديدة في الحوائط وجدران الأبنية.



الوفد في مسجد إحدى المدارس في سمرقند (من اليمين) الدكتور سعيد باديب فالمؤلف بجانب الدكتور شمس الدين فالأستاذ سالم السالم فالأخ رحمه الله بن عناية الله.

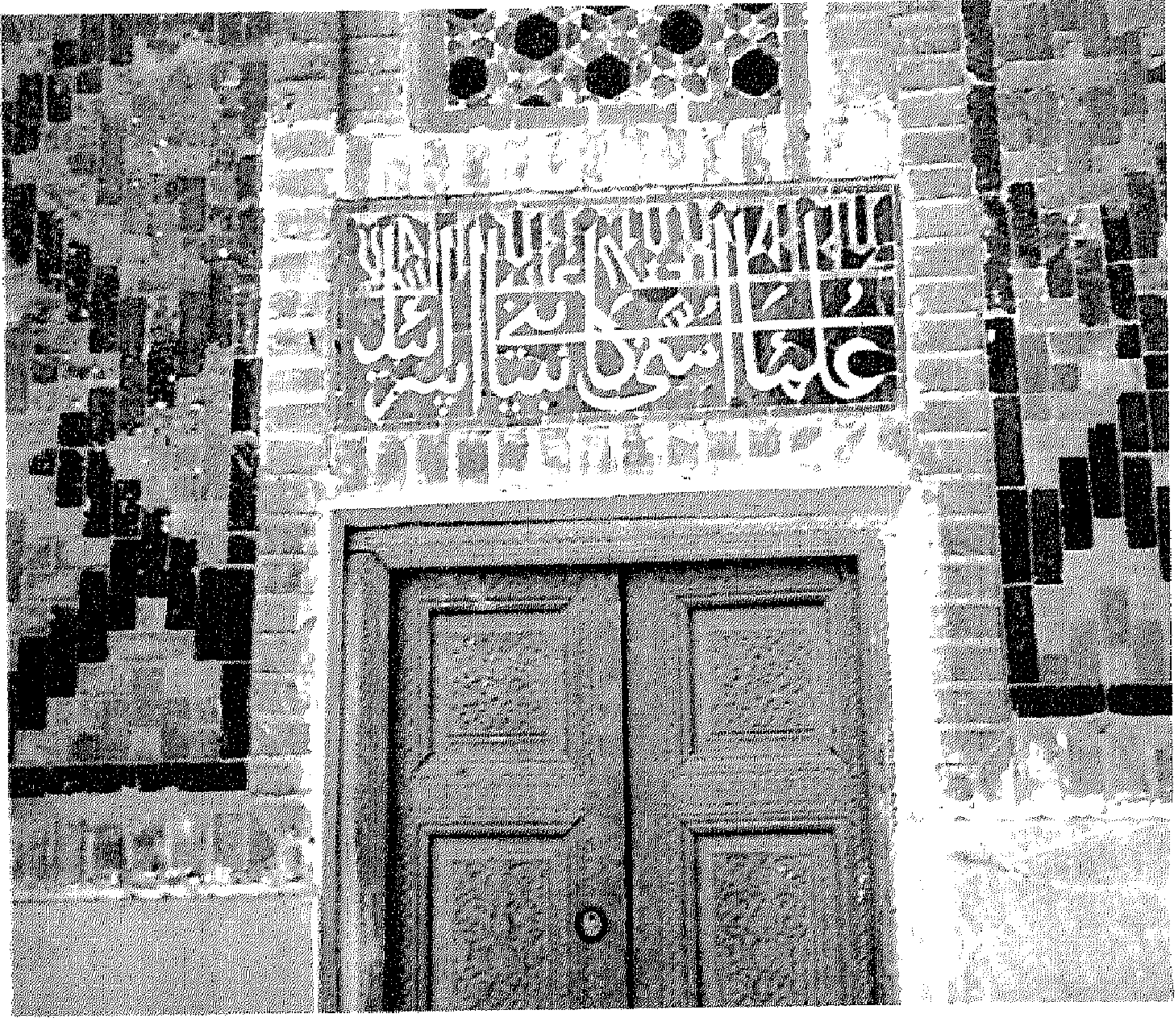
ودخلنا المسجد فاعجبت بمحرابه وباطن القبة العالية التي اقيمت فوق المحراب. قد كتبوا على محراب المسجد بخط رائع الآية الكريمة (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع)..

وبلغ ارتفاع قبة المسجد من داخله ٢٧ متراً وقد صمدت لزلازل عديدة اصابت المنطقة فهدمت كثيرا من ابنياتها ولكن هذه القبة سلمت حتى من التصدع ومن اللطيف انهم كتبوا على باب إحدى غرف الدراسة : قال عليه السلام: «علماء أمتي كانبيااء بني اسرائيل».

مع أن هذا الحديث ليس من الأحاديث الصحيحة.

في سوق سمرقند :

غادرنا هذه المدارس الرائعة بأبنيتها المحكمة التي هي بزخارفها ونقوشها تعد تحفاً ثمينة من تحف التراث الحضاري للمسلمين في هذه البلاد وخرجنا



باب غرفة الدارسة بجانب المسجد في ميدان ريجستان

من ميدانها الواسع (ميدان ريجستان) فتوجهنا بناء على رغبتنا إلى (سوق سمرقند) ولم يكن ذلك في البرنامج من قبل ولكننا أردنا رؤيته لأن هذه المدينة التاريخية العريقة في الإسلام قد رأينا فيها أشياء لم يفسدها التحديث فتخيلنا ان سوقها سيكون كذلك.

ثم ان دخول السوق فرصة ثمينة لرؤية الناس من عامة الشعب على طبيعتهم من غير تكلف او استعداد للقاء الضيوف كما يكون عند الاشخاص الذين يكون لديهم علم سابق بالزيارة.

ويقع السوق قريباً من ميدان المدارس هذه الا أنها كلها داخلية في منطقة مدينة سمرقند القديمة التي كانت في الماضي من دون شك اكبر مما هي عليه الآن كما سبق.



شارع في سمرقند

وجدنا السوق مزدهماً بالمارة من رجال ونساء وهم الجنس التركي او لنقل التركستاني الأصل فهم انقى من الموجودين في أسواق مدينة طشقند بكثير لأن أولئك خلطوا بروس واورانيين من ذوي المظهر الأوربي ورأينا الأخوات المسلمات من المسنات ومن هن في منتصف العمر وقد غطين رؤسهن بمناديل وهو أمر لا يحافظ عليه في الغالب الا المسلمات.

اما الشبابات فإنه لا شيء على رؤسهن ولكن ملابسهن مع ذلك ليست متبرجة تبرج الأوروبيات الغربيات او من قلدنهن من نساء البلدان النامية.

ورأينا الناس من مظاهرههم وما توحى به الوانهم وأثوابهم على درجة متوسطة من المعيشة فليس عندهم مظاهر الفقر الموجودة في الهند أو بعض أنحاء إفريقية ولاهم على جانب من الترف الموجود عند الأوروبيين.

حتى حالة الشارع فإنها وسط بين حالتين ممتازة وريئة فالنظافة في الشارع جيدة ولكن الأرصفة ليست بهذه الجودة وان لم تنحدر إلى درجة رديئة.



جزء من شارع في سمرقند والدكتور سعيد باديب غارق في تأمله

أشجار السوق من العنب :

من لطيف مآرائته في هذا الشارع وهو شارع ممتد وليس سوقاً مغلقاً انهم قد غرسوا أشجار العنب على أرصفة الشارع واقاموا لها عرائش عالية من الخشب او الحديد لا ادري لارتفاعها ورأيناها وقد أورقت اشجارها فصار لها ظل وارف وأخبرنا اخواننا أنها في الصيف تتدلى عنا قيدها فوق رؤس المتسوقين ولانقول البائعين والمشتريين لأنه ليس في هذه الأسواق الشيوعية ان صبح أن للاسواق مذاهب وهي المؤلفة من حوانيت كبيرة أي بائعين بل الجميع مشتررون والبائع الوحيد فيها هو الحكومة لأن جميع الحوانيت والمحلات التجارية مملوكة للحكومة والبائعون فيها هم من الموظفين.

وإنما يوجد البائعون في أماكن أخرى حيث يسمح للفلاح أن يبيع ماتنتجه أرضه الصغيرة بنفسه ولايجوز له ان يضم اليه مما ينتجه غيره شيئاً لأنه يصبح آنذاك تاجراً والتجار مستغلون والاستغلال ممنوع في الاتحاد السوفيتي إلا إذا كان استغلال الحكومة المنبثقة عن الحزب الشيوعي فإن ذلك جائز قانوناً بل هو الجائز وحده.

لقد تخيلت مذكره الإخوة أهل سمرقند عن حالة هذه الأعناب ذات الظلال الوارفة وقد تدلت منها عناقيدها على رصيف الشارع بل على جانبي الشارع فأثبت ذلك عندي مذكره بعض مؤرخينا العرب عن فواكه سمرقند ووفرة بساطينها وجمال منظرها.

ثم دخلنا حانوتا اي دكانا كبيرا من بين حوانيت الشارع فرأينا حافلاً ببضائع أكثرها صالح للنساء من العطور غير الفاخرة موضوعة في زجاجات صغيرة ومن الملابس والحقائب اليدوية وبخاصة النسائية ومن أنواع الاقمشة الأخرى، ورأينا البائعة فيه امرأة فالتمسنا مانشترية منه فلم نجد فيه ما يستحق ذلك لأن بضائعه بالنسبة إلينا إما أن تكون معتادة المنظر أو تكون غالية الثمن وفي كلتا الحالتين فإنه يوجد في بلادنا ما هو أجود منها نوعاً، وأرخص ثمناً حاشا المناعة أي طول الصبر على الاستعمال فإننا لانعلم عنها شيئاً.



مع اثنتين من الاخوات المسلمات القرويات في متجر في سوق سمرقند

واكتشفت في هذا المحل التجاري الحكومي شيئاً ثميناً، إنه امرأتان أو ثلاث من الريفيات المسلمات البعيدات عن المدينة وعليهن لباسهن الوطني الموروث بل الأصيل واسرعت أرجو أحد اخواني أن يلتقط لي معهن عدداً من الصور فكان منها ماتراه هنا.

أما هن فقد بدا العجب والارتباك على وجوههن لأنهن لم يعرفن الأمر على حقيقته فطلبت من أحد الاخوة المرافقين من أهل البلاد أن يخبرهن بجملة الأمر فأخبرهن بذلك وذكر لهن أننا من مكة المكرمة فزال عنهن ماران على وجوههن من حيرة وانقلب ذلك إلى عجب على محياهن عجيب.

ومن الطريف أن كل واحدة منهن تضع على رأسها غطاء من الشال لا يبعد كثيراً عما كان على رؤسنا لولا أن فيه ألواناً قليلة للزينة وفوقه ما يشبه العمامة الصغيرة أو العصاة قد احاطت بالرأس.

ثم انتقلنا سيراً على الأقدام إلى سوق للخضروات مجاور وهو مسقوف ليس فيه حوانيت — دكاكين — وإنما جميع البضائع فيه معروضة على موائد من الخشب مرفوع عن الأرض كما هو المعتاد.



داخل سوق سمرقند للخضروات

ومعظم الباعة في أكبر أقسامه من النساء وفيه قسم باعتته من الرجال ولم يفعلوا ذلك فصلاً للرجال عن النساء وإنما هذا من باب المصادفة أو نحو ذلك ولأنني رأيت في مكان آخر من السوق باعة من الرجال بين النساء. وأخبرنا المرافقون أن كل ما في هذا السوق خصوصي بمعنى أنه لفلاحين أو منتجين محليين أنتجوه بأنفسهم ويبيعونه بأنفسهم وليس للحكومة. وربما يشهد لصحة ذلك كون الأسعار فيه غالية لأنه يباح للفلاح الصغير أن يبيع ما ينتجه بالسعر الذي يريده وكل الناس هنا فلاحون صغار أو أجراء عند الدولة، ولا يوجد فلاح كبير لأنه لا يجوز في الاتحاد السوفيتي أن يستأجر إنسان إنساناً آخر إلا للحكومة التي يصح أن يقال: إنها تستأجر الجميع.

والحكومة كما هو واضح هي مجموعة من الأشخاص الذين ينتمون إلى الحزب الشيوعي أو يطبقون أوامره وينفذون ما يصدره من قوانين وإن كانوا يقولون إن ذلك من أجل مصلحة الجمهور.

ويقبل الناس على شراء هذه البضائع أو لنقل المنتجات الزراعية الخصوصية لكونها أسهل في الشراء وأجود في النوع وإن لم تكن أرخص من مثيلاتها التي تبيعها المحلات الحكومية المحددة الأسعار.

فتلك عادة تكون رديئة وقد تكون شحيحة والأقبال عليها شديد لرخص أسعارها فيحتاج المشتري إلى إضاعة وقت في الوقوف في صف (طابور) أمام المحلات التي تبيعها.

مع أنه ما تجدر ملاحظته أن هذه الأشياء المعروضة ليست هي من السلع الضرورية الاستهلاكية كالخبز اليومي والسكر والارز فتلك موجودة في المحلات الحكومية المحددة الأسعار.

وقد أخبرنا إخواننا المسلمون أنها صارت موجودة بوفرة في السنوات الأخيرة في الاتحاد السوفيتي حتى كادت تختفي الصفوف الطويلة

(الطواير) التي كانت مألوفة لسنوات طويلة أمام تلك المحلات إلا ما كان من البضائع أو المأكولات الكمالية غير الضرورية.

ورأيت في هذه السوق أشياء ملفته للنظر فأردت ان أعرف أسعارها فكانت كلها غالية بالنسبة إلى أسعارها في بلادنا وبخاصة اذا قسنا قيمتها بالقيمة الرسمية لعملتهم وهي الروبل بالنسبة إلى قيمة الدولار. وإذا أضفنا إلى ذلك مستوى الأجور والدخول المحددة في بلادهم فإن غلاءها يبدو أكثر.

من ذلك أنهم يبيعون حبات الليمون الأربع بروبل واحد ويساوى ذلك دولاراً وثلاثاً أو حوالي خمسة ريالات سعودية وصرة صغيرة من الجزر مما يباع في بلادنا بنصف ريال قيمتها هنا روبل واحد. وطماطم غير ممتازة يبيعون الكيلو الواحد بأربعة روبلات اي حوالي عشرين ريالاً وفجل ضخم الرأس يبلغ الرأس منه حجم الكمثرى يباع الواحد منه بثلاث روبل.

وعلى هذا تقاس بقية الأسعار.

وعندما أبدينا عجبنا من غلاء هذه الخضروات قال اخواننا من اهل البلاد إن السبب في ذلك هو كوننا الآن في اعقاب الشتاء حيث لا توجد الا نادرة ومزروعة في بيوت محمية بالزجاج أو نحوه.

أما في الصيف فانها مع سائر الخضروات تكون رخيصة رخصاً بالغاً لأنها تزرع على وجه الأرض دون الحاجة إلى حماية.

وفي هذا السوق رأينا عنايتهم بسكر النبات أو السكر النباتي كما يفعل اخوانهم في تركستان الشرقية حيث يكثرون من تقديمه في حفلات الشاي وفي مقدمات الموائد.

ومن الطريف الذي حصل لي أنني رأيت الخبز السمرقندي الذي سمعت عنه كثيراً وهو كبير الحجم مستدير وغليظ ويصنع بطريقة خاصة بحيث يخزن لعدة أيام وربما لأشهر كما أبلغونا ولا يفسد فأردت ان أفحصه

فأخبر احد المرافقين البائعة أننا من مكة المكرمة ولم يكن بحاجة إلى أن يخبرها أننا من الزوار الأجانب لأننا كنا نرتدي الملابس العربية الكاملة ولا يوجد من يلبسها غيرنا في هذه البلدة وربما يكون بعضهم قد رآها لأول مرة في حياته لأن كثيراً من الزوار العرب للاتحاد السوفيتي يرتدون الملابس العالمية المسماة بالافرنجية.



خبز سمرقند الذي لا يتغير بمرور الوقت كما تعرضه البائعة

فسارعت البائعة تقطع من الخبزة الكبيرة قطعة وتعطيني إياها وهي تقول لي: كل وتذوقتها ثم وضعتها لأنني أفطرت قبل قليل. ولكن ذلك أفسد الخبزة كلها على البائعة فلم تعد صالحة للعرض فابعدتها ووضعت غيرها مكانها وأسرعت اعطيها روبلا واحداً سائلاً عن قيمتها فامتنعت عن أخذ شيء من الثمن وراجعتها بواسطة المترجم فلم تقبل أن تأخذ عوضاً وانتهز سياح أوروبيون كان يحفل بهم السوق فرصة وجودي بملاهي العربية أمام خبز سمرقند فصاروا يلتقطون من الصور ما رأوه ثميناً بدون استئذان.

المسجد المهجور :

رأينا قريباً من سوق الخضروات والمأكولات الخفيفة بناء قديماً يظهر من

البعد كأنه القلعة العظيمة الحربية و يرتفع سوره الغليظ ارتفاعاً غير معتاد إضافة إلى أرض تقع على مرتفع أشار إليه الأخوة المرافقون وقالوا: هذا مسجد (بيبي خانم) امرأة تيمور، وذكروا ان معنى (بيبي) هو أم وقال أحدهم بل هي ابنة تيمور وذكروا أن هذا المسجد كان خرباً منذ سنين طويلة، ولذلك لا يمكن الدخول اليه غير أنهم الآن يرمونه على اعتباره أثراً من الآثار القديمة التي اخذوا يحرسون على المحافظة عليها لفائدتها السياحية.

ولم يقل الإخوة شيئاً عن الوقت الذي لحق فيه الخراب هذا المسجد بحيث صار لا يصلى فيه مع أنه كبير، ويقع في داخل المدينة القديمة وهل ذلك حصل قبل استيلاء الشيوعيين على مقاليد الأمور في البلاد أم كان بعد ذلك.

أصررت على الاقتراب من السور العظيم المتهدم للمسجد لأن ما بقي منه هو شاهد حي على عظمة البناء في هذا المسجد.

وقلت في نفسي وأنا أشاهد هذه الآثار التاريخية التي خلفها المسلمون وبعض الأزقة والبيوت التي لم يفسدها التحديث والوجوه البخارية نسبة إلى بخارى الاصيللة إنه يوم ليس كيوم طشقند الذي لا يرى فيه إلا الشوارع الحديثة الواسعة عليها الأبنية الحكومية الضخمة (العمارات) ذات الشقق السكنية الحديثة وليس فيها من رائحة التاريخ شيء بل ان المسلم الغيور يحس أنها قد أريد منها أن تكون ناسخة لذلك الماضي الإسلامي العريق حالة محله في بناء تاريخ جديد للمدينة يبدأ حسب زعمهم مع تاريخ الشيوعية فيها.

ضريح قثم بن العباس :

اخترت كلمة (ضريح) هنا بديلة من كلمة قبر لأن الأولى صار لها مصطلح خاص أخذ يطلق على القبر وما فوقه من بناء وما حوله من ذلك مما يتعلق به مع الكراهية الشديدة لهذه الكلمة (ضريح) التي اشتهرت بالبدع

والمسكرات بل الشراكيات في بعض الأحيان التي تؤتى عندها اذ صار كثير من الجهلة والضلال يقصدون أضرحة الأولياء والصالحين، أو من يعتقدون فيهم ذلك ولو لم يعرفوا شيئاً عن ذلك في حياتهم عن العدول الشقاة من الناس فصاروا يتبركون بتلك الأضرحة ويخصصونها بالندور يرجون منها أو بواسطتها حصول الخير لهم أو دفع الضرر عنهم.

حتى صار يفعل عند بعض الأضرحة ما كان يفعله اهل الجاهلية عند أوثانهم أو قريباً من ذلك كتعظيم صاحب القبر والخضوع له والخشوع عنده وعدم القسم به كذباً.

وقد كاد هذا البلاء يعم بلاد المسلمين الا من رحم الله، وفي هذا الزمن الأخير كثر ذوو البصيرة من العلماء الموحدين وازداد اتباعهم على الخير فصاروا ينكرون على اهل البدع والضلال مايفعلونه عند قبور الصالحين واضرحتهم وان كان ذلك على قلة.

ولكن زيارتنا لقبر قثم بن العباس أو ضريحه هي للسلام عليه والدعاء له وزيارته الزيارة الشرعية ومع ذلك رؤية الوضع الذي عليه الضريح الآن بعد القرون الثلاثة عشر التي مرت على استشهاد قثم بن العباس رضي الله عنه.

ويسمونه هنا (شاه زنده) ومعناها: الملك الحي بكسر اللام وترجمتها احد المرافقين بالسلطان الحي ولكن (شاه) بمعنى ملك هي لفظة فارسية مشهورة دخلت في لغات عدة من اللغات التي جاورتها أو أخذت منها كالأوردية وبعض اللغات التركية وأقرها إلى الذهن استعمالاً (شاه ايران) بمعنى (ملك ايران).

وقف الموكب عند درج حجري عال، صعب المرتقى صعدناه راجلين فافضى بنا صعوده إلى منطقة مرتفعة تشرف على ماحولها من مدينة سمرقند القديمة، إلا أن المنطقة المرتفعة هذه كلها مشغولة بأبنية أثرية قديمة.



في حي شاه زنده بسمرقند في الطريق إلى ضريح قثم بن العباس

وقال لنا المرافقون إن هذه الأبنية الأثرية بنيت على أنقاض مدينة (افرا
اسياب) القديمة التي كانت في موضع سمرقند، وورد ذكرها في التاريخ
القديم.

وان هذه المنطقة حتى بعد أن سميت بسمرقند في العصور الإسلامية
الوسيطة قد خربها جنكيز خان وجنوده من المغول عندما خربوا مدن الحضارة
الإسلامية في هذه المنطقة ومنها فيما يقولون هذا القبر المنسوب الي قثم بن
العباس رضي الله عنه.

وبقيت بعد ذلك خرابا يبابا حتى جاء تيمور لنك وخلفاؤه من بعده
فأعادوا بناء الأضرحة القديمة فوق الأنقاض وبنوا معها اضرحة جديدة
لأقاربهم او العظماء من بني قومهم ومن الاضرحة التي بنيت في عهد تيمور
لنك ضريح قثم بن العباس الموجود الآن وضريح لابن عم تيمور لنك واسمه
(شادي ملك اغام) الملك السعيد والأخ الأكبر لأن (أغا) هنا تعني الأخ
الأكبر في اصطلاحهم في ذلك الزمان.

وضريح شادي ملك هذا ضخم عليه بوابة كبيرة تشبه بوابات القصور القديمة الواسعة ولكن الضريح لم يقتصر الدفن فيه على شادي ملك بل دفن فيه ثلاثة من اخوته وأقاربه وبينها قبر مزوق مزين لامرأة اسمها رقية من اسرة تيمور التي كانت حاكمة في ذلك الزمان.

وكل هذه الأبنية من عهد تيمور لك اي من أواخر القرن الثامن الهجري.

دخلنا بعد ذلك مع بوابة صغيرة كبوابة الأبراج القديمة سوداء الحيطان مظلمة نوعاً، أرضها مفروشة بحجارة قوية صارت ملساء من مر القرون ثم دخلنا إلى القبر المرفوع قليلاً عن المقدار الشرعي لرفع القبر وهو قدر شبر فهذا مرفوع عن الأرض حوالي نصف متر وهو اي هذا القبر المرفوع مبني من حجارة منقوشة ومرمر صقيل وحوله سياج صغير وفوقه قبة محكمة البناء هي التي ترى من مسافة بعيدة من مدينة سمرقند.



السلام على قبر قثم بن العباس في سمرقند

وقد رأيناهم يعيدون ترميم المنطقة يزوقون منها ماعا الدهر تزويقه
و يرمون من حجارته ماتزحزح عن موضعه.

والحكومة تفعل ذلك كما قلنا لغرضين كلاهما غير شرعي أولهما جذب
السياح للحصول على المال من التفرج برؤية هذه الأبنية البديعة والثاني
التقوية على السذج من عامة المسلمين المتدينين الذين يرون او يتوهمون ان
ترميم هذه الأضرحة والقبور هو من الدين لأنها مقابر لقوم صالحين.

وقد قلت للقوم المرافقين: إذا كان جنكيز خان وقومه من المغول قد
هدموا هذه المنطقة التي فيها قبر قثم بن العباس وماحوله في عام ٦١٧هـ
وتركوها خرابا يبابا لسنوات طويلة إلى ان أعاد بناءها أو بناء بعضها تيمور
لنسك ومن جاؤا من بعده من خلفائه كيف نحكم بأن هذا القبر هو قبر قثم
بن العباس رضي الله عنه وإذا حكمنا بأنه قبره وعرفناه فإن الأولى بنا أن
نزِيل عنه كل محدث حوله مما يخالف الدين ونتركه للناس يزورونه الزيارة
الشرعية ويدعون له ويأخذون العبرة والموعظة من اجتهاده في جهاده وطلبه
الشهادة في سبيل الله حتى قتل في هذه البقعة البعيدة بل النائية عن
بلاده.

ومما تجدر ملاحظته أن المؤرخين ذكروا ان قثم بن العباس ابن عم رسول
الله صلى الله عليه وسلم قد استشهد في معركة سمرقند التي قاد المسلمين
فيها سعيد بن عثمان بن عفان في عام ٥٦هـ.

ومما يذكر ان بعض العلماء دفنوا في هذه الأمكنة إما لإعتقادهم خطأ
بأن الدفن فيها مما يقرب إلى الله لأنها بجوار مدفن قثم بن العباس رضي الله
عنه وأما أن يكونوا دفنوا من غير وصية وإنما هو تصرف لمن قاموا على
تجهيزهم ودفنهم ومنهم العلامة قاضي زاده الرومي المشهور عند علماء
الأحناف وكان موته في القرن التاسع الهجري.

كما توجد في هذه المنطقة الأثرية بقايا مدارس قديمة خربة.

مرصد أولغ بك :

انحدرنا من منطقة (شاه زنده) المرتفعة أي الملك الحي بالعربية وهي تسمية غير صحيحة لأن قثم بن العباس رضي الله عنه لم يكن ملكاً في حياته بل ان كلمة (ملك) كما هي معروفة الآن لم تكن قد استعملت في اللغة العربية لمن يلي الأمر او يتولى على السلطة في عهده وإنما كان يسمى الخليفة التي أصلها خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما كونه حياً فان ذلك لا شك فيه لأنه شهيد والشهداء أحياء في قبورهم كما قال تعالى: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون» ولكنها حياة برزخية ليست كحياة اهل الدنيا ولذلك قال تعالى «بل أحياء عند ربهم يرزقون».

واخترق الموكب حياً من أحياء سمرقند الأصيلة وكل أحيائها أصيل جليل. ومن أجل مافيه رؤية الأخوات (البخاريات) المسلمات وعلى رؤسهن المناديل الساترات. والبيوت المنفردة المبنية من الطين يتطاير منها غبار التاريخ.

قصدنا (مرصد اولغ بيك) الذي يقع في حي يسمى (كوجاق تيه) من مدينة سمرقند وهو منسوب إلى (ميرزا اولغ بك) حفيد تيمور لنك وكان ملكاً وعالمًا وحكيماً بل محبا لجميع فنون العلم المعروفة وسبق ان ذكرنا المدرسة التي بناها في (ريجستان) وصار أحد المدرسين فيها.

وكان الى ذلك فلکيا محبا لرصد النجوم.

وصلنا إلى آثار المرصد فدخلنا من حديقة صغيرة ثم صعدنا درجا مرتفعاً ولكنّه اقل ارتفاعاً من الدرج الحجري الذي يوصل الى منطقة (شاه زنده) المرتفعة ولم يكن ارتفاعه عن وجود منازل تحته هدمت وبقيت انقاضها في مكانها وإنما هو ارتفاع طبيعي لتل ذي طين وحجر هش وبني المرصد فوق هذا المكان المرتفع في المدة الواقعة مابين عامي ١٤٢٥ و ١٤٢٩ م.

وجعل فيه أجهزة رصد وساعة شمسية وكان عمل جدولاً للنجوم التي انشأ هذا المرصد من أجل رصد حركاتها وبلغ مارصده بنفسه من النجوم والكواكب ووصفه وصفاً دقيقاً ١٠١٨ نجماً.

وقدر ان طول السنة الشمسية هو ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات و١٠ دقائق و٨ ثوان لي بنقص دقيقة واحدة وثانيتين عما هو معروف علمياً الآن.

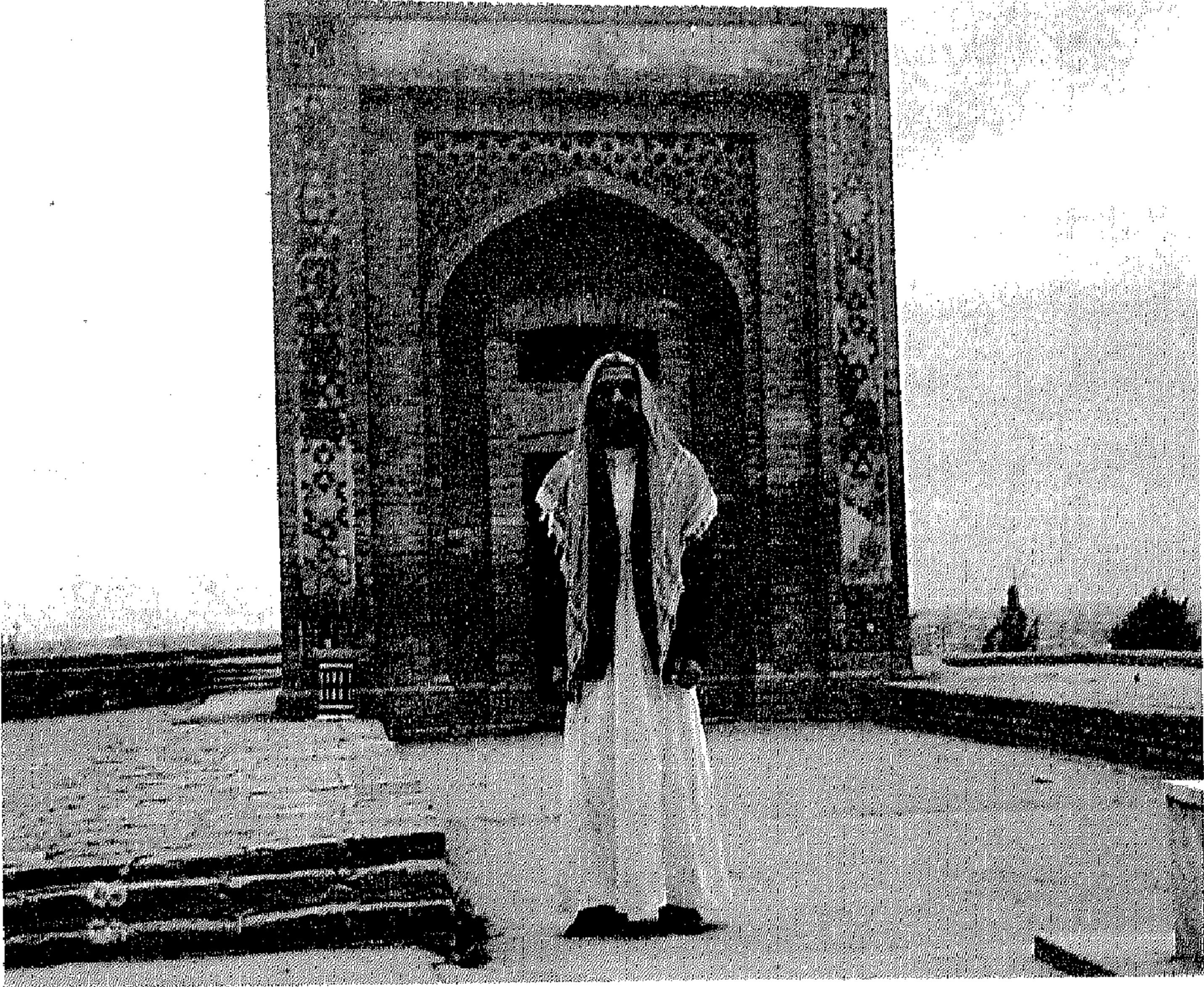
كما صنع جدولاً فلكياً سمي بالزيج السلطاني صار أساساً للدراسات الفلكية عند المتأخرين من المشتغلين بالفلك في الشرق المسلم. وكان يعمل معه في هذا الفن أحد علمائه وهو (علي قوشجي) الذي توفى في اسطنبول عام ١٤٧٤م.

ويبلغ طول المرصد ٥٠ متراً وارتفاعه ٢١ متراً على ثلاث طبقات، رأينا الدرج العظيم الذي يصعد من الطبقة السفلى إلى مافوقها ثم إلى أعلى المرصد الذي تعلوه قبة بلغ ارتفاعها ١٠ أمتار فوق نهاية الممر ويبدو هذا الدرج وماحوله كالطريق المنحوت في ممر جبلي إلا أنه مؤلف من جزئين بينهما ممر فيه مكان لآلات وأدوات مفقودة الآن. ثم شاهدنا غرف البحوث والمكتبة فيه.

وكل ما ذكرناه هو آثار ذلك المرصد لأن أهل زمنه اهتموه بالزندقة والالحاد، والتقرب إلى النجوم وتآمروا عليه وقتلوه وقيل ان الذي قتله هو ابنه عبداللطيف وذلك في عام ١٤٤٩م وكل هذه المعلومات أو أكثرها مما أفضى به لنا دليل سياحي من الإخوة المسلمين أو من ابنائهم ثم من معلومات حصلت عليها من المتحف الآتي ذكره.

وبعد قتله هدم مرصده واخفى امره ولم يهتد أحد إلى مكانه حتى كان عام ١٩٠٨م حيث بدأت حفريات علمية في مكانه واستمرت إلى ان اكتشفت من أمره ما كان خافياً على الأولين.

ثم دخلنا الى متحف هناك خاص بالمرصد بالدرجة الأولى وان كان يحوي معروضات ويتضمن معلومات متعلقة بغيره من أمور هذه البلاد.



المؤلف عند مدخل مرصد أولغ بك في سمرقند

وقد انشيء هذا المتحف في عام ١٩٦٥م وفيه رسوم لما كان عليه المرصد مأخوذة من المعلومات التي اكتشفت فيه ومنها هيكله العام الذي كان عليه رسوم توضيحية لمجرى العمل فيه والآت وادوات فلكية قديمة وكتب مما ألف عن (أولغ بك) صاحب المرصد.

ومن ألطف ما فيه وان شئت قلت إنه من أهم ما فيه وان لم يكن في الأمر لطافة لكونه يتعلق بموتى وهو تمثال لجمعتين بشريتين احدهما جمجمة (أولغ بك) منشئي هذا المرصد والثانية لجمجمة جده (تيمور لنك) الشهير الذي دوخ كثيراً من بلدان العالم في وقته.

اما تمثال جمجمة تيمور لنك فيكاد يكون حقيقياً لأن الرسام الذي نحته حصل على جمجمة (تيمور لنك) من قبره فرسم لها هذا الرسم الذي يزعمون انه حقيقي او كالحقيقي ثم عمل تمثالاً له من ذلك الرسم ولكن بمقاييس دقيقة كما يقولون بحيث لايزيد عن الحجم الطبيعي للجمجمة الحقيقية.

وذكر مدير المتحف ان الذي رسم الجمجتين هو عالم روسي اسمه (حيزا سموك) وعاونته على ذلك علماء من ازبكستان من الاكاديميين.

ولم يخبرونا عن الطريقة التي رسم بها الرسام او المثال جمجمة (أولغ بك) وربما كان عثر عليها في قبره أيضاً لأنه مدفون بالقرب من جده (تيمور لنك).

وشاهدنا في المتحف رسوماً كثيرة تتعلق بهذه البلاد ومنها رسوم للملابس القديمة التي كان يلبسها الازبكيون في القديم وان لم تكن فيه منها نماذج محفوظة.

إلى خرتنك او خوجا امام اسماعيل :

خرتنك اسم قديم لبلدة قديمة مذكورة في كتبنا العربية الجغرافية واسمها الحالي عند العامة من أهل البلاد هو (خوجا امام اسماعيل) اي العالم الإمام اسماعيل والمراد به الإمام محمد بن اسماعيل البخاري صاحب صحيح البخاري وقد سمى العامة باسمه الذي اثبتوا فيه اسم ابيه اسماعيل جهلاً منهم بأن اسمه المجرد هو (محمد) وان اسماعيل هو اسم والده، أو ظناً منهم بأن محمد اسماعيل اسم واحد مركب كما صارت الأسماء في بعض البلدان هذه الأزمان وتبعد بلدة (خرتنك) عن سمرقند بحوالي ثلاثين كيلومتراً.

وهذا أمر مرغوب فيه عندي بل انني طلبته لأنه يتيح لنا مشاهدة ارباض سمرقند اي أريافها القريبة منها إلى جانب رؤية مسجد كبير قديم البناء في بلدة خرتنك.

سار الموكب من سمرقند في الثانية الا ربعا من هذا الظهر قاصداً
خرتنك مع طريق إزفليستية متوسطة الجودة ان لم تكن إلى الرداة أقرب
وبخاصة عند مقارنتها بما في أذهاننا عن الطرق الحديثة في الدول الغربية
وفي بلادنا السعودية.

ولما خرجنا إلى الريف صار الطريق يسير على الضفة اليسرى لنهر
يسمونه نهر سمرقند الأبيض أو (زارفشان) وهو شحيح المياه رغم ان مجراه
واسع مما يدل على انه يشهد في وقت من الأوقات امتلاء بالمياه.

وأما ضفافه فانها تبدو كضفاف الوديان الصحراوية ليس عليها خضرة
تذكر ولكن الخضرة والعمارة بالمزارع كانت موجودة خارجه مما يدل على أنها
تشرب إما من الآبار أو من قنوات خاصة من مياه هذا النهر في الأماكن
المنخفضة.

ومن هذه المزارع عدد من المزارع التعاونية الجماعية التي يسمونها
الكلخوز.

ثم دخلنا الريف الحقيقي بعيداً عن المدينة وصار الخط يمر فيه وهو
ريف تنقصه بهجة المنظر، وان كانت تظهر عليه المهارة الزراعية فالتربة لونها
أشهب والاشجار قد اورقت ولكنها لم تنضج كلها وبعض المزارع لم تنضج لأن
الوقت مبكر على ذلك.

ثم مررنا بالنهر الأسود (قراسو) وهو نزر المياه رغم سعة مجراه كالنهر
الأبيض، واخبرونا ان سبب قلة المياه فيه في الوقت الحاضر انه يستمد
مياهه في هذا الفصل من السنة من ذوب الثلوج في الجبال، ولم تغزر مياه
الذوبان وأنها تكون غزيرة في أشهر الصيف حيث يذوب الثلج كله بعد ان
كان يتحلب من الجبال شيئاً فشيئاً.

وهذا ذكرني بما رأيته تماماً في تركستان الشرقية وبخاصة في عاصمتها
(اورومسي) التي تشرب من ذوب الثلوج التي تبدأ مياهها في الذوبان في

فصل الربيع الذي يحين عندهم في أواخر ابريل مثل هذه البلاد او بعدها بقليل.

ثم صارت أشجار التوت التي عمتها الأوراق الوليدة من الربيع تحف بالطريق من جانبيه وحقول كثيرة ترى من الطريق وهي محروثة ولم تزرع بعد وذكروا انها تهيأ لزراعة القطن التي تنتج منه هذه الجمهورية مقادير كبيرة.

والأراضي المعدة لزراعة القطن هي أراض حكومية تزرعها الحكومة وهي تحصدتها وتجنني ربحها والأراضي في الاتحاد السوفيتي كلها مملوكة للدولة ماعدا قطعاً صغيرة جداً، أعطيت للفلاحين لكي يزرعوها بما لا يكاد يزيد عن حاجتهم وأسرهم غير المستقلين عنهم وإذا زاد شيء من انتاجها عن حاجتهم او احتاجوا هم النقود باعوا من انتاج أراضيهم بما يشاؤه شرط الا يفضي ذلك بهم إلى المتاجرة به بحيث يضمنون إليه مثلاً ما يشترونه من جار أو فلاح آخر لأن ذلك يعتبر من الربح الشخصي المحرم في الاتحاد السوفيتي.

وترى من الطريق أشجار مورقة بل مزهرة بزهور بيض صغيرة ذكروا لنا أنها أشجار السفرجل.

ثم مررنا بقرية تسمى (داغ بيك) فيها مساحات واسعة مغروسة بأشجار الفاكهة المتنوعة عرفنا منها اشجار التفاح والسفرجل ومزارع العنب الذي لم تكمل اوراقه ظهورها بعد وليس كالعنب الموجود في سوق سمرقند الذي اكتملت اوراقه لأنه في موقع أدفأ من موقع هذه الأشجار المغروسة في الخلاء.

ورأينا ما ذكرنا بالمزارع في بلادنا وهو حقول غير واسعة من البرسيم وهو الذي نسميه في بلادنا (القت) وهي تسمية عربية فصيحة بل هي افصح من كلمة برسيم الشائعة له. وذكروا ان هذا البرسيم من العام الماضي فهو عندهم كالذي عندنا يزرع ويظلون يحصدونه فتطلع له اوراق جديدة وهكذا

إلى نهاية عمره الذي يبلغ من سنتين إلى ثلاث عندهم وهو عندنا كذلك على اختلاف في طول عمره وقصره.

ورأينا (سَرَح) البقر وهي البقر التي يذهب بها احد الرعاة إلى المرعى يجمعها من البيوت والبساتين.

وذكر المرافقون انها أبقار شخصية اي مملوكة لأشخاص وليست مملوكة للدولة وكل واحد له في الغالب بقرة واحدة او بقرتان إذا كانت الأرض لأكثر من أسرة واحدة وقد يكون للشخص الواحد بقرتان وهذا قليل.

قالوا: واما الأبقار التي تكون للدولة فهي تربي في المزارع المملوكة لها وتكون بأعداد اكبر وكذلك النسبة للأبقار التي تربي في المزارع التعاونية والجماعية.

واستمرت أشجار الفاكهة في التزايد مع امتداد الطريق وظهرت بيوت الريف مبنية بالطين وبعضها ذو سقوف مسنمة وأخرى سقوفها ممالة على جهة واحدة لي أنها أتخذت شكل نصف السنام وليس كله وذلك هو مارأيناه في تركستان الشرقية قبل ذلك.

وبعض هذه البيوت الطينية مطلي كله أو جهته الأمامية وحدها بطلاء أبيض هو الجص أو مادة قريبة من الجص.

ثم وقف الموكب عند البوابة الخارجية لفناء مسجد خرتنك و يسمى جامع الإمام البخاري وحتى الساحة الخارجية المكشوفة تتميز بسعتها الزائدة ووجود أشجار ضخمة من أشجار الدلب معمرة ذكروا ان اكبر واحدة منها غرست عند أول بناء المسجد قبل خمسمائة سنة.

وجدنا في الاستقبال طائفة من الاخوة المسلمين منهم الشيخ عثمان بن رحيم جان إمام جامع الامام البخاري وخطيبه.

فقصدنا المسجد الذي هو المصلى في ركن من هذا الفناء الواسع ذي الأشجار العالية الضخمة فوجدنا في المسجد جماعة من المسلمين يبلغ عددهم حوالي ١٥٠ كلهم من كبار السن.

وبعد الصلاة تحدث اليهم الدكتور/ شمس الدين بابا خانوف مبينا لهم مهمة وفد رابطة العالم الإسلامي في هذه البلاد.

اعقبه الشيخ عثمان امام المسجد بكلمة قال فيها موجهها كلامه الينا: لقد اخبرت المسلمين في صلاة الجمعة أمس عن قرب وصول وفد من بلاد الحرمين الشريفين ومن موطن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إننا ونحن نراهم هنا نشعر كأننا رأينا اهل الرسول صلى الله عليه وسلم.

فعقبت على كلام الاخوين بالشكر على الترحيب، موضحاً هدف زيارة الوفد لبلادهم وتكلمت عن الرابطة وانها هيئة شعبية عالمية ثم توجهت إلى المسلمين بالنصيحة التي تتضمن الحرص على تربية أبنائهم على الإسلام حتى يكون فيهم من يعيد للمسلمين سيرة الامام البخارى في خدمة الثقافة الإسلامية والمسلمين في هذه الديار وتستعيد سمرقند وبخارى وغيرها من المدن الإسلامية مجدها الإسلامي الخالد.

ثم علق امام المسجد الشيخ عثمان جان على كلمتي بالشكر والتقدير ودعا الى العمل على وقف الحرب بين ايران والعراق وقال: قتلى العراق وايران قتلانا، وطلب العمل على تحقيق السلام العالمي، ونبذ الخلاف بين الدول وتوثيق العلاقات الثقافية والودية بين الشعوب والدول في العالم ثم اختتم تعليقه برجاء أن يكرر الوفد زيارته لهذه المنطقة وان يعمل على زيادة الصلات الاخوية مع المسلمين في هذه البلاد.

وفي نهاية الاجتماع في المسجد قرأ صبي حفيد للشيخ عثمان جان إمام المسجد آيات من القرآن الكريم فأداها اداءً متوسطاً.

والمسجد ليس فاخر البناء وهو قديم باق على قدمه الا تجديد الطلاء ونحوه الذي ادخلوه عليه في عام ١٩٧٣م قبيل الاحتفال بمرور الف ومائتي عام على مولد الامام البخاري الذي احتفلوا به في هذه البلاد ودعوا وفوداً اجنبية للإشتراك في ذلك الاحتفال.

ويتميز بأعمدة غليظة متقاربة وسقف ليس بالعالي فهو مسجد معتاد وليس بالذي تأنق بانوه في بنائه ونظراً إلى كونه أصبح مقصداً للزوار من البلدان الإسلامية فقد رأيناهم يرمون اجزاء اخرى منه.

السلام على الإمام البخاري :

انتقلنا بعد ذلك للسلام على أبي عبدالله البخاري الامام العظيم الذي يكن له المسلمون الاحترام والتعظيم في جميع اقطارهم وامصارهم كيف لاوهو الذي جمع الأحاديث التي صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتهد في ذلك حتى غدا كتابه أصبح الكتب بعد كتاب الله عز وجل.

وذكرت في نفسي وانا امشى معهم قاصدين السلام عليه سنوات مضت عندما كنت في أول عهدي بالطلب فكنت أقرأ صحيح البخاري وحدي أحياناً وأحياناً اتذاكر فيه مع بعض الزملاء من طلبة العلم حتى كدت احفظه عن ظهر قلب وهو سهل الحفظ لأن أحاديثه عليها الاشراف والبهاء حتى يجزم المرء بأنها خارجة من مشكاة النبوة.

والشيء الذي آلمنا ان نجدهم قد جعلوا على قبره بناء مخالفين في ذلك ما رواه الامام البخاري نفسه الا أن الذي يخفف من وقع الألم في النفس انه لم يُبن على قبره بناء شاق كالذي على اكثر قبور الأولياء والصالحين من القباب والابنية المعنى بها وان كان ذلك لايعنى ان الذي عليه هو شيء يمكن السكوت عليه ولكن بعض الشر أهون من بعض.



السلام على الامام البخاري في قبره في خرتنك

فقد بنوا على قبره رواقاً متطامناً صغيراً. لذلك يصل المرء إلى القبر من دون باب وقد سلمنا عليه سلاماً شرعياً ودعونا له بالمغفرة والرضوان والثواب الجزيل من الله تعالى قائلين السلام عليك يا محمد بن اسماعيل البخاري، السلام عليك ورحمة الله وبركاته اللهم اغفر له ونور ضريحه واجزه عن الاسلام والمسلمين خيراً..

مائدة بخارية :

والنسبة هنا إلى البخاريين اهل منطقة بخارى هذه التي نحن فيها وليست للإمام البخاري نفسه الذي مائدته أفخر الموائد وهي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد تركنا قبره في ركن من هذا الفناء الواسع الذي يضم المسجد، ويضم في احدي زواياه قبر الإمام البخاري منفصلاً عن المسجد، ثم غرفاً وملاحق للمسجد وأماكن متعددة للوضوء وفي قسم منه غرفة كبيرة للمكتبة وغرفة أكبر منها لاستقبال الضيوف.

وسرنا ذاهبين إلى غرفة الضيوف فأشار الرفاق إلى زهور كبيرة نامية قد غرسوها أسفل حيطان الفناء الواسع وقالوا: هذه هي شقائق النعمان المذكورة في كتب التاريخ.

وكنت اعرف انها منسوبة للنعمان بن المنذر ملك الحيرة في الجاهلية.

ثم اجتئزنا بظل شجرة ضخمة من أشجار الدلب العظيمة التاريخية ان صح ان من الأشجار اشجاراً تاريخية ولكن هذه كما قالوا هي تاريخية حقاً لأنها غرست عند انشاء المسجد قبل خمسمائة سنة.

ووسط الفناء الضخم بركة واسعة ليس فيها ماء كثير ومقاعد مرتفعة عليها المرافق وقد وضعت تحت الدلبة — شجرة الدلب — الكبيرة ليجلس عليها من يريد الجلوس في الهواء الطلق في فناء المسجد والجلوس في هذا المكان الأخضر الذي زاد من حسنه وقوعه بالقرب من نهر صغير اسمه (باي أريق) اي النهر المبارك.

دخلنا غرفة الضيوف فوجدنا فيها مائدة حافلة بالأطعمة من مقدمات المائدة وغيرها ومن ذلك أنواع من النقل — المكسرات — وعنب من ناتج العام الماضي وحمص وزبيب إلى جانب مياه غازية وعصير فواكه وشاي اخضر حليناه بالسكر النباتي.

ثم توالى أطباق المائدة والشيخ عثمان بن رحيم جان إمام المسجد يعلننا ببنكته وطرائفه فهو خفيف الظل حاضر النكتة ذكرني ببعض الظرفاء الذين سجل التاريخ الأدبي العربي أقوالهم وأشعارهم من أهل هذه البلاد.

ثم جاؤا بخروف كامل مصلي اي منضج بتقريبه من النار دون أن يدخل فيها فجعل الشيخ عثمان يقطع منه ويوزع على الآكلين. وقد بدأ بألية الخروف يقطع منها قطعاً صغيرة ويوزعها عليهم فيأكلونها على الطعام وقد اخبرناهم معذرين أننا لانطيق أكل الشحم.

وكان نجم المأدبة هو الرز البخاري الأصيل لأنه مصنوع في البلاد البخارية العريقة ثم اتوا بعد العشاء بالحلوى والفاكهة وكانت مائدة شهية وزادها هناء ماثر عليها الشيخ عثمان من ظرفه ولطفه رغم ما قيل عن اسم عثمان أنه ليس من الأسماء الظريفة.

عقد النكاح الشرعي :

انقضت مائدة الغداء التي تباطأ القوم حولها من أجل الطعام والراحة. فقالوا : إلى حضور حفلة الزواج الشرعي وكنا عند الدخول إلى غرفة الطعام رأينا فتاة في ثياب العرس البيضاء بيدها باقة ورد وبجانها شاب قد أخذ زينته وحولها عدد من المرافقين من رجال ونساء وكانوا جالسين في كرسي امام أحد المقاعد العالية تحت شجرة الدلب الضخمة في فناء المسجد وقالوا لنا: انهم أتوا لعقد الزواج الشرعي في المسجد.

وكان الشيخ قد خرج لبعض أمره اثناء الغداء فظننته خرج لعقد الزواج ولكن تبين أن القوم يريدون أن نرى كيفية عقد النكاح الشرعي عندهم وحسنا فعلوا جزاهم الله خيرا، فقد جلسنا مع الشيخ على المقاعد الكبيرة العالية أمام الزوج وزوجته وكانا فرغا من عقد الزواج في المكتب المدني الحكومي المختص بذلك ثم جاءا إلى المسجد ليعقدا الزواج الشرعي فيه وهذه عادة متبعة عندهم وسبق ذكر أنموذج منها وهو ان يبدأ بالعقد القانوني المدني الحكومي الذي لايعترف بعقد شرعي بل لايعترف بأي شرع او دين ولكن توثيق الزواج فيه أمر ضروري لأنه يثبت به عند الحكومة تسجيل الزواج.

واسم الزوج (محي الدين خدای جايدة) واسم الزوجة (نزاكه بنت رحمن أو عبد الرحمن) وقد بدت الزوجة خجلة إذ استمرت خافضة رأسها وقد غطت وجهها بغطاء من قماش أبيض خفيف.

بدأ الشيخ عقد الزواج الشرعي بتلاوة خطبة النكاح المعهودة التي نعرفها في بلادنا لا تختلف عنها بشيء اذ تلا الآيات التي تحت على الزواج او

تذكره ومنها قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً».

وقوله (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة). وقوله تعالى . (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها).

ثم ذكر فضل التزاوج بين المسلمين وأسماء النكاح وانه من السنة ولذلك يجب على الزوج الا يترك زوجته ستة أشهر من دون مضاجعة.

وبعد الإيجاب والقبول المعهود في الزواج وكان مصوروا التلفزة المرافقون والمصورون والصحفيون يصورون ذلك مثلما كانوا يصورون جميع خطوات الوفد وحركاته دعا الشيخ عثمان دعاء لم يكن من المألوف لنا سماعه بخلاف ماسبق من اجراءات الزواج الشرعي فقال: اللهم ألف بينهما كما الفت بين آدم وحواء، ومحمد وخديجة الكبرى وعلي وفاطمة الزهراء.

ثم نصحها بالائتلاف وعدم الاختلاف وقال اعلموا أن اولادكما يتعلمون منكما الاخلاق فلتكن اخلاقكما حسنة فيما بينكما ثم التفت إلى الزوج وقال: لا يجوز لك ان تمد يدك إلى زوجك بالضرب.



العروسان وذووهما والزوجة مغطية وجهها في مسجد الإمام البخاري في خرتنك

وطلب منى الشيخ عثمان الدعاء لهذين الزوجين فدعوت لهما بدعاء مناسب وقال انه من يمن الطالع لزواجهما هذا ان يحضره قوم من اخوتكم المسلمين من جيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان الشيخ قد تحدث عن المهر بلغتها بما لم نفهمه وعن رضا ولى امر الزوجة وقد علمنا بعد ذلك ان الشيخ الذي يعقد الزواج في المسجد يتقاضى عن ذلك من الزوج مبلغا يتراوح بين ثلاثين روبلاً وخمسين روبلاً.

الحديقة الكبيرة :

جلنا في حديقة كبيرة قريبة من المسجد خارج فنائه الذي هو كبير واسع وفي هذه الحديقة قاعة مبنية على الطراز التقليدي الفاخر في بناء هذه البلاد ومن ذلك ان جدرانها قد كسيت كلها بالفسيفساء حتى صارت تعطى لن يجلس فيها انطباعاً بأنه قد عادبه التاريخ إلى عنفوانه القديم في هذه البلاد لاسيما ان المقاعد نفسها كانت قد صنعت وصفت على طراز قديم.

وشربنا الشاي في هذه القاعة وسألته عن هذه الحديقة، فذكروا ان أرضها للمسجد، وقد علمت بعد ذلك أن هذا صحيح ولكنها الآن جزء من مزرعة جماعية وقد اخذت الأرض من المسجد على اعتبار أنها زائدة عن حاجته فأصبحت أرضاً حكومية ثم جعلتها الدولة مزرعة جماعية.

العودة إلى سمرقند :

بدأنا العودة إلى سمرقند مسرعين لأن لدينا موعداً مع جماعة من الاخوة المسلمين لصلاة العصر في مسجد هناك.

واعترض الطريق طريق آخر عليه لافتة مكتوب عليها انه يتجه إلى بخارى وتمنيت ان اسلكه لكي أرى بلدة الإمام البخاري التي طلبنا من السفارة السوفيتية في عمان عندما قدمنا جوازاتنا لاختد السمات منها ان

تجعل بخارى في قائمة المدن التي سنزورها ولكنها لم تفعل ذلك، كما كنا ابرقنا لمكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية أن يضيفوا زيارتها إلى برنامج الزيارة المقترح من قبلهم فلم يفعلوا أيضاً واعتذروا بضيق الأيام المحددة للزيارة عن ذلك.

مسجد خوجة زد مراد :

قصداً مسجداً اسمه (مسجد خوجه زد مراد) فاستقبلنا عند مدخل فناءه الواسع جماعة من أهله وحدثونا عن بنائه فذكروا أن الذي بناه هو السلطان عبدالله خان في القرن السادس عشر الميلادي وهو من سلالة تيمور لنك وجرى ترميم المسجد في عام ١٩٨٠م فأدى وفد الرابطة صلاة العصر جماعة خلف امام المسجد الحاج مصطفى قل ثم تحدث الدكتور/ شمس الدين بابا خان رئيس الادارة الدينية عن نشاط واعمال الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان ثم تطرق إلى الصلات والعلاقات مع الرابطة واستضافتها السنوية لبعثة حج الاتحاد السوفياتي وعن اعمال الرابطة المختلفة لمساعدة المسلمين في كل مكان.

وردت عليه شاكراً وموضحاً الهدف من زيارة الوفد لبلادهم وشرحت لهم الصلات الثقافية الإسلامية التي تربط المسلمين ببلادهم ثم دعوت إلى أن تكون تلك الأعمدة التاريخية الإسلامية حافزاً لهم على تربية ابنائهم واجيالهم على الإسلام واحكام الدين الحنيف وقد بكى بعضهم اثناء اللقاء كلمتي وبخاصة عند ما ذكرت الاخوة الإسلامية والدعاء لهم بزيارة الحرمين الشريفين.

وذكر الامام مصطفى قل والمصلون معه يسمعون ان عدد الذين يحضرون للصلاة في الأوقات الخمسة المعتادة هو قليل في العادة ماعدا صلاة الفجر فيحضرها حوالي ١٢٠ مصلياً وذلك لكونها لا تصادف وقت عمل وأما الجمعة فانه يحضرها جمع عظيم يقدر بحوالي أربعة آلاف كما قال.

وقبل الصلاة كان الإخوة اهل المسجد قد دعونا إلى مائدة من موائد الشاي التي تكون حافلة عندهم بالمكسرات والمشروبات والمأكولات الخفيفة وذلك في غرفة ملحقة بالمسجد واقعة في ركن من فناءه الواسع.

وقد جعلوا لغير المسلمين مائدة أخرى منفردة وهم المرافقون الاعلاميون وعددهم خمسة وذلك في غرفة أخرى ملحقة بالمسجد.

واحتجنا الوضوء فوجدت أماكن للوضوء صفا طويلاً جداً يدل على صحة ماذكروه من كثرة الذين يشهدون صلاة الجمعة في المسجد ويحتاجون لاستعمال هذه الصنابير الكثيرة فوق محلات الوضوء ومن الطريف ان بعضهم لحق بمن أراد الوضوء من أعضاء وفدنا ومعهم أوراق التنظيف إلى جانب أباريق الوضوء المتوفرة في المكان يريدون ان يستعملها من يجمع بين الاثنين.

وقد تبادلنا الهدايا مع إمام المسجد وأهدينا أيضاً هدايا للمسجد نفسه منها تسجيل آيات القرآن الكريم وجهاز التسجيل الذي يصعب الحصول عليه في بلادهم.

وكانت صلاة الشيخ الإمام (مصطفى قل) خفيفة ولكنه أطلال التسبيح والدعاء بعدها فكان يقول مثلاً: (سبحان الله) يمدّها مداً ثم يقول بعد سكتة قصيرة الحمد لله ثم الله أكبر ثم الدعاء الذي تكرر أكثر من مرة ثم قراءة آيات من القرآن الكريم فدعاء آخر بعده.

وهذه الأمور بعد الصلاة قد التزموا بها، أو التزم بها أكثرهم لا يكادون يخلون بها حتى عدتها العامة منهم من الأمور التي لا تصح الصلاة كاملة إلا بها.

والواجب على العلماء منهم ان يفهموهم ان المفروض هي الصلاة المكتوبة وحدها ومابقى فهو نفل يجوز فعله ويجوز تركه وان يتركوه هم

أنفسهم في بعض الأحيان تأكيداً لذلك حتى لا يفهم القوم أن الصلاة طويلة ثقيلة بهذا الذي أدخلوه عليها.

وفي واجهة المسجد كتابات ظاهرة بالعربية منها (حسبنا الله ونعم الوكيل) و(نعم المولى ونعم النصير). وتحتها بالتركية: جزاع مسجد ومنبر. و(ابوبكر عمر عثمان وحيدر).

وهذه شعارات من شعارات اهل السنة التي أخذوا بكتابتها عندما ظهر التحدي الشيعي لأهل السنة على أيدي الصفويين واتباعهم في إيران واتخذت بعد ذلك تقليداً قديماً دون ان يكون هناك تحد.

مسجد خوجه أحرار :

أخذ الموكب يتأهب للتحرك من هذا المسجد واذا بأحد الشيوخ الطاعنين في السن يوقف الموكب ويمد يده التي بشيء ملفوف في قرطاس فأسرع اليه المرافقون يستفسرون فقال: هذا زبيب من بيتي أحب أن اهديه إلى رئيس وفد القوم الذي جاؤا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرجو قبوله.

فتسلمته وطلبت منهم ابلاغه شكرى له وتقديرى لهديته.

وصلنا إلى مسجد خوجه أحرار في الساعة مساء ولم يكن الوقت وقت صلاة وإنما كان المقصود من الزيارة هو رؤية المسجد والاجتماع بالمسؤولين عنه ومنهم امامه (رجب علي كرم) الذي كان في الاستقبال مع جماعة المتولين على المسجد وبعض المسلمين الذين يعتادون المسجد وتجولنا في المسجد الذي يتألف من قسمين احدهما بناء مفتوح من جهة الشمال الشرقي يسمونه: مسجد الصيف لأنهم يصلون فيه في وقت الصيف والثاني محجوز بحيطان مغلقة من كل الجهات يسمون مسجد الشتاء ويصلون فيه في فصل الشتاء.

وبجانب المسجد بجزئيه آثار بناء قديم لمدرسة كانت تعرف ايضاً كما يعرف المسجد باسم مدرسة خوجه أحرار.

وينبغي التذكر هنا أنه لاجمال لوجود المدارس الإسلامية الخاصة او التابعة للجماعات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي ولا يوجد في طول البلاد وعرضها أية مدرسة مسلمة ولو صغيرة ماعدا مدرسة مير عرب في مدينة بخارى وعدد طلابها ثلاثون طالباً لايزيدون لان الزيادة لا بد لها من موافقة عليا في الاتحاد السوفيتي وتلك الجهة لا تريد ذلك.

وغير معهد الإمام البخاري في طشقند الذي زرناه وتكلمنا على شيء من أمره في هذه اليوميات وعدد طلابه من أهل البلاد خمسون لايزيدون الا زيادة جاءت بقرار من السلطات العليا تضمنت أربعة طلاب من افغانستان ذات النظام الشيوعي الحالي وطالبين اثنين من ابناء المسلمين في بلغاريا ارسلوا بطلب من مفتى بلغاريا وبموافقة من حكومة تلك البلاد.

ثم تجولنا في حديقة المسجد الواسعة المزدانة بأشجار الفاكهة المورقة ومنها أشجار التوت والخوخ والمشمش والذي عجبت من ضخامة أشجاره هناك العناب وشجر من شجر الدلب الضخم المعمر.

وخارج عن المسجد ولكن داخل الفناء الملحق فيه قبر (خوجه أحرار ولي) الذي نسب إليه المسجد وقد كتب عليه تاريخ وفاته في عام ١٠٠٠هـ وحوله قبور بعض مشايخه وخلفائه.

وتجدر الإشارة إلى أن (خوجه) هذا هو زعيم صوفي مشهور وكان شيخاً لطائفة النقشبندية الصوفية المعروفة وذلك حسبما قاله لنا امام المسجد (رجب علي كرم).

وفي النهاية دعونا إلى مائدة في إحدى الغرف الملحقة بالمسجد وهي التي تشبه موائد الشاي في كونها تضم أطعمة غير الأطعمة الرئيسية إلا انه

لابد ان يكون فيها الخبز من أجل أن يأكل منه من يكون جائعاً من المدعوين وهنا رأيناهم وضعوا على المائدة خبزاً من خبز سمرقند المشهور وذكروا أنه لا يفسد بمرور الأيام عليه حتى قالوا: إنه يؤكل حتى بعد مرور سنة على إعداده. واعلاه منقوش بنقوش بديعة هي في حد ذاتها يصح أن توصف بكونها لوحة فنية.

والواقع انها كذلك لأنهم فيما يظهر يطبعون على وجه الخبزة بمطبعة منقوشة فتنتبع تلك النقوش عليها.

وعاد الموكب إلى الفندق تتقدمه سيارتان عسكريتان احدهما السيارة المعتادة والثانية من أجل ان تفسح الطريق لمروره وهي تطلق النفير المميز الذي يجعل السيارات في الشوارع تخلي الطريق له.

وقد الغينا رحلة كانت مقررة إلى بلدة تبعد ٤٠ كيلو متراً من سمرقند اسمها (أورد) وذلك بسبب ضيق الوقت إذ قاربت الشمس ان تغيب.

وعدنا إلى فندق سمرقند الذي تركناه في الصباح فكان ما استرعى انتباهي فيه ان العاملات فيه من الروسيات الثقيلات الأجسام اللاتي لا يعرفن من الانكليزية شيئاً، ولا يعرفن كذلك من مجاملة السكان شيئاً بل انهن يؤدين واجبهن من دون ان يلتفتن ليرين أثر ذلك في وجوه نزلء الفندق.

ومن الطريف في الأمر أنني عند ركوب المصعد وكان معنا بعض السياح وكان عددا خمسة وقد كتبوا على المصعد انه لا يحمل أكثر من اربعة اشخاص وفيه ثلاثة مصاعد متجاورة صغيرة من هذا النوع فقال لي الأمريكي انهم يريدون اربعة من وزن مثل نسائهم الروسيات العاملات في الفندق أما مثلي ومثلك فيمكن ان يحمل المصعد ستة.

مأدبة رئيس الطباخين :

ومن أولى من رئيس الطباخين بأقامة مأدبة حافلة؟

كان موعد العشاء في التاسعة قالوا إنه في بيت احد المسلمين من مواطني هذه البلاد وقد وصلنا إلى منزله الذي يقع في حي قديم لذلك لم تقف السيارات عند بابه تماماً بل سرنا على أقدامنا قليلاً فاستقبلنا الأخ الحاج (أحمد جان) وسلم علينا عدد من أولاده وأحفاده فهو في حدود السبعين من عمره وله عدد من الأولاد والأحفاد كما اخبرنا بذلك.

وجلسنا إلى مائدة طويلة في غرفة مستطيلة غير معتادة في مثل هذه البلاد السوفيتية التي تقدر الحكومة مساكن المواطنين التي تؤجرها لهم بالتر مما استرعى انتباهي وجعلني أسأل الأخ أحمد جان عن سر حصوله على هذا المكان الواسع على أنني لم أر من بيته غير غرفة الطعام هذه فقلت له: ان بيتك واسع إلى حد يلفت النظر؟ فأجاب بأن عدد اولاده واحفاده يبلغ اربعين شخصاً وإذا حضر الجميع في الأعياد فإنه يلزمهم مكان واسع.

وهذا لم يجب الأخ أحمد جان على السؤال بطريقة واضحة لأنه في مثل هذه الظروف التي تكثر فيها الآذان المصغية لا يمكن أن يكون الجواب الا بمثل ذلك.

وعندما أبديت اعجابي بالطعام الذي قدمه الأخ أحمد جان فضلاً عن وفرفته وتنوعه أجاب المرافقون: لا عجب في ذلك لأنه رئيس الطباخين وقال آخر: إنه رئيس الطباخين في مطعم حكومي كبير.

مؤتمر صحفي :

كان الاخوة المضيفون وعلى رأسهم الدكتور/ شمس الدين بابا خانوف قد عرضوا على وفدنا عقد مؤتمر صحفي ولم أكن منشراحاً إلى ذلك لأنه سيضطرننا إما للمجاملة وهو مالا نريده وبخاصة أنه سيكون له وقع سيء

في نفوس إخواننا المسلمين من أهل الإتحاد السوفيتي وهذا ما لن نفعله مختارين أو للخشونة في التعبيرات ونحن ضيوف زوار في الإتحاد السوفيتي في أول اوقات الزيارة قد بقيت علينا أقاليم وجمهوريات ومدن عديدة في أنحاء بلادهم.

وعندما عدت للفندق هذا المساء في حوالي الساعة الحادية عشرة وجدت عدداً من الصحفيين ومراسل وكالة الأنباء السوفيتي وقال الاخوة انهم صحفيون محليون يرجون منك ان تعقد لهم مؤتمراً صحفياً في الفندق.

فكان الحديث في غرفتي وانصبت اسئلتهم على الهدف من الزيارة والانطباعات التي خرجنا بها ونحن نغادر جمهورية ازبكستان حيث يؤلف المسلمون الأغلبية من السكان حسب قولهم فأخبرتهم ان الزيارة جاءت استجابة لدعوة قدمتها الادارات الدينية في الإتحاد السوفيتي إلى رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة فلبت الرابطة الدعوة شاكرة حيث جئت على رأس وفد منها ونحن نأمل ان يكون في هذه الزيارة الأولى لأول وفد من رابطة العالم الإسلامي الأثر الحسن في التعاون الإسلامي الثقافي وتوثيق الروابط بين الجهتين وبخاصة أن رابطة العالم الإسلامي منظمه شعبية عالمية.

أما عن انطباعاتنا عن هذه الزيارة فالواقع أن هذه أول زيارة لنا للإتحاد السوفيتي ونحن نرجو ان تعقبها اتصالات عديدة حتى تكون الانطباعات أكثر شمولاً وأكثر الماماً بالتفاصيل.

وسأل أحد الصحفيين الحاضرين قائلاً: أنا فلان من مجلة محلية هنا أسأل عما إذا كنتم رأيتم ان ما قاله بعض الناس في خارج الإتحاد السوفيتي وخصوصاً في البلدان الإسلامية من أن جميع سكان الإتحاد السوفيتي من الشيوعيين؟.

وقد اورد هذا السؤال بصيغة الإنكار فقلت له: إننا رأينا إخواننا المسلمين المؤمنين الذين ضاق بهم جامع زين الدين يوم الجمعة ولو كانوا

شيوعيين ملحدين لما حضروا إلى هذا المكان وبخاصة ان اكثرهم كانوا من كبار السن الذين يظهر التدين على وجوههم وسماتهم.

ثم إننا قرأنا مانشر في المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي من أن عدد أعضاء الحزب الشيوعي في البلاد هو قرابة ثمانية عشر مليوناً على حين ان مجموع عدد السكان قد بلغ مائتين وستة وسبعين مليوناً حسب آخر إحصاء.

ولكنني لم أسمع من يقول بأن جميع سكان الاتحاد السوفيتي هم من الشيوعيين فقال إن وفد الحجاج السوفيت ذكروا لنا أن الحجاج الذين اجتمعوا بهم في موسم الحج كانوا يعتقدون ذلك وذكروه لهم. فقال آخر: ماهي الأمنية التي تتمناها للمسلمين السوفيت؟

فقلت: أتمنى ان يتلقى أبناء المسلمين وصغارهم تربية إسلامية تربطهم بماضيهم الإسلامي المجيد وتكون عاملاً على إعادة المجد السابق لهذه البلاد لأنني لاحظت ان معظم المصلين في المساجد هم من كبار السن ويندر وجود شبان وبخاصة من الصغار بينهم.

مع العلم بأن الإسلام لا يمنع التقدم في العلوم التجريبية ولا يعارض التصنيع بل يحض عليه كما أتمنى ان يزيد عدد المسلمين الذين نراهم في موسم الحج من الاتحاد السوفيتي فقد كنت قرأت احصاء رسمياً يذكر ان عدد المسلمين في الاتحاد السوفيتي يبلغ ٣٥ مليوناً ونحن لانرى الحجاج من البلاد السوفيتية يزيد عددهم على خمسة عشر رجلاً في المتوسط.

فالحج له فوائد كبيرة وفيه منافع للناس من أهمها التعارف فيما بينهم وبذلك تتعمق الاخوة والصداقة بين الجميع لأن أول شيء مهم في هذا الأمر هو اللقاء والتعارف.

يوم الأحد ١١ شعبان ١٤٠٦ هـ ٢٠ أبريل ١٩٨٦ م

مغادرة سمرقند :

غادرنا فندق سمرقند مع انبلاج الفجر في الساعة الخامسة والنصف وقد صلى بعضنا في الفندق وبعضنا لم يصل فيه احتياطاً وإنما صلى في قاعة كبار الزوار التي يمكننا ان نصلى فيها براحة.

وقدموا لنا في قاعة المطار طعاماً مبكراً من طعام الإفطار لأنهم يعرفون أن الطائرات السوفيتية لا تقدم لراكبيها أطعمة في المسافات القصيرة مثل رحلتنا التي تقدر بساعتين ونصف والوقت وقت إفطار.

ثم كان وداع الاخوة الكرام الذين رافقونا طيلة مقامنا في هذه البلاد البخارية وعلى رأسهم الدكتور/ شمس الدين بابا خانوف رئيس الادارة الدينية.

وعند الخروج الى ساحة المطار حيث تقف الطائرة كان الهواء يهب بارداً مما يدل على تغير في حالة الجو بعد أمس فذكروا ان درجة الحرارة الآن ٨ درجات مئوية وهي ترتفع كثيراً في وسط النهار ولن تصل إلى ماوصلت إليه أمس، لأن الأرصاد الجوية ذكرت أنه سيكون في منطقة طشقند وسمرقند هذا اليوم عواصف وامطار.

ثم قامت الطائرة في الساعة السابعة والثلاث قاصدة مدينة (باكو) عاصمة جمهورية اذربيجان السوفيتية وانتهى بذلك الحديث عن الرحلة (في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر) وابتدأ الحديث في بلاد بقية من المسلمين الذين يعيشون في الاتحاد السوفيتي وذلك في كتاب آخر سميته: «جمهورية أذربيجان السوفيتية».

والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

إلى مدينة الإمام البخاري

كان أسفي بالغاً على عدم زيارتنا لمدينة الإمام البخاري (بخارى) في هذه الرحلة وان كنا زرنا الإمام البخاري في قبره في خرتنك وذلك رغم الحاحنا على مضيفينا بزيارتها وزيارة ترمذ مدينة الإمام الترمذي.

ولكن القوم هنا نقصوا عدد المدن التي سنزورها واحدة بعد أن كانوا وضعوا اسمها في جوازاتنا وقطعنا تذاكر السفر إليها وهي مدينة (قازان) عاصمة جمهورية تاتارستان التي كانت تحكم جزءاً من روسيا ومنه إمارة موسكو التي أصبحت الآن عاصمة الاتحاد السوفيتي.

وغادرنا الاتحاد السوفيتي آسفين على ذلك ولم يدر في خلدنا ان الدهر سيضرب ضرباته من قريب وان بلاد المسلمين في الاتحاد السوفيتي ستفتح كلها للمسلمين كلهم عن قريب ومنها مدينة (بخارى).

وهكذا كان.

فقد قمت بجولة ثانية في الاتحاد السوفيتي بعد الجولة الأولى بأربع سنين فزرت فيها مدناً وأقاليم لم أزرها من قبل ومنها مدينة بخارى.

وقد قيدت في مذكراتي عنها أشياء قليلة احببت نقلها إلى هذا الكتاب رغم تأخرها التاريخي عن جملة مافيه ولكن من أجل أن تصدق التسمية على المضمون فيه وهو (بخارى وماوراء النهر).

يوم الاثنين ١٨/١١/١٤١٠هـ ١/٦/١٩٩٠م

من خوارزم إلى بخارى :

أرأيت بریق هذا العنوان الذي لم يكن يخطر لي على بال قبل نصف قرن من الزمان عندما كنت اقرأ في كتب العلماء والأدباء الخوارزميين والبخاريين.

وكان الحديث عن بلادهم آنذاك كالحديث عن كوكب المريخ في الوقت الحاضر.

فلم يكن يدور في خلدي ولا في بلدي ان أرى أحداً من أهل تلك البلاد فضلاً عن أن أذهب إلى هناك.

وكان الحديث عن تلك البلاد ومن فيها من العباد كالحديث عن فعلات الأجواد التي كنا نظن ان الزمن لايسمح لها بأن تعاد.

فكم وكم عرفنا من رجال الحديث الشريف في خوارزم وبخارى وكم من رجال الأدب من الشعراء والبلغاء من قرأنا أشعارهم أو روينا أخبارهم أو طالعنا آثارهم كتباً ومؤلفات وها انا الآن متوجه من خوارزم إلى بخارى على هذه السفينة الهوائية التي لا تستطيع عفاريت الأساطير ان تجارها أو تبارها فضلاً عن ان تحمل ماتحملة من أثقال ومن نساء ورجال.

صباح خوارزم :

كان صباح خوارزم مليئاً بالأمانى التي تحققت من رؤية خوارزم والأمانى التي أرجو ان تتحقق من زيارة بخارى.

ولذلك كنت استبطني الصباح ليلة البارحة رغم حاجتي إلى النوم بسبب الجولة الطويلة في اليوم الذي سبقه في خوارزم وقد ذكرت ذلك في كتاب «يوميات آسيا الوسطى».

وقد بدأ هذا اليوم بإفطار روحي مشبع هو الاطلاع على مسجد قديم في مدينة اوركينج عاصمة إقليم خوارزم في الوقت الحاضر اسمه (مسجد أخن بابا) وأخن بمعنى إمام وهذا المسجد من المساجد التي سلمت من الشيوعية فلم يغلق كما أغلق غيره من المساجد لانه كان من عادة الشيوعيين في أوقات طغيانهم أن يتركوا للمسلمين مسجداً او مسجدين في المدينة التي تكون عامرة بالمساجد، ويكون فيها في الغالب مابين مائة إلى مائتين منها. ثم كان بعد الغذاء الروحي طعام خوارزمي لذيذ في بيت صاحبنا ومضيفنا في خوارزم الشيخ احمد جان.

فقد أجلسنا الشيخ في دكان من بيته وهو الموضع المكشوف المرفوع عن الأرض و يسمونه القسم الصيفي لأنه مفتوح الهواء إلى جهة الشمال.

وهو بخلاف سائر البيت الذي أعد للجلوس في الشتاء في هذه البلاد الخوارزمية التي ترتفع درجة حرارة الصيف فيها حتى تصل إلى ٤٤ درجة عند الظهر وقد شعرنا فيها بالحر نفسه الذي كنا نشعر به في مدينة الرياض في الصيف ثم تنخفض درجة البرودة في الشتاء حتى العشرين درجة مئوية تحت الصفر.

ولا أزال اذكر ماقاله ياقوت الحموي رحمه الله عن برودة خوارزم حين قال:

وقد اجتهدت ان اكتب شيئاً بها اي خوارزم في الشتاء فما كان يمكنني لجمود الدواة حتى أقربها من النار وأذيتها، وكنت اذا وضعت الشربة علي شفتي التصقت بها لجمودها على شفتي ولم تقاوم حرارة النفس الحار.

وقد صار الشيخ احمد جان وابناؤه يتعاونون على نقل الصحون الحافلة بالطعام حتى إذا ضاق بها الخوان على سعته وهو السفرة رفعوها فأتوا بغيرها تحوي الوائاً من الطعام غير الألوان الأولى.

وقد أحضروا توتاً احمر غضا قطفوه لتوه من شجره لأن هذا الفصل هو فصل إدارك التوت في هذه البلاد وكانوا احضروا امس توتاً آخر أبيض الثمر وقالوا ان الفرق بين التوت الأحمر والتوت الأبيض أن التوت الأحمر يخفض ارتفاع ضغط الدم وان الأبيض يرفعه مع أنها فاكهة واحدة ولكن من شجرتين مختلفتين.

في مطار اوركينج :

في التاسعة والربع من هذا الصباح كنا في مطار اوركينج عاصمة خوارزم واسمها العربي القديم كان (كاركينج) ذكرها به اهل المعاجم البلدانية من علمائنا لم تغير القرون منه إلا الحرف الأول اذ كان كافا فصار همزة ولعله كان في الأصل همزة على السنة قومه الأقدمين ولكنه صار كافا في صحائف اسلافنا المؤرخين.

فكان حاكم اقليم خوارزم الأستاذ عبدالله اسكندر في المطار يودعنا كما استقبلنا نائبه فيه عند القدوم.



مع حكام خوارزم عبدالله اسكندر في مطار أوركينج على يمينه المؤلف فالشيخ محمد صادق وعلى يساره الأستاذ رحمة الله بن عناية الله.

ووجدناهم قد أعدوا في قاعة كبار الزوار في المطار مائدة عليها الكعك اللين (الكيك) وقوارير من المياه المعدنية المحلية ومن عصير الفاكهة.

وقد جرى حديث مهم مع الحاكم عن تاريخ هذه البلاد ومن أخرجته من العلماء والأدباء والصلحاء والزهاد وكيف ان تاريخها الثقافي والعلمي في كتبنا العربية يرقى إلى أكثر من ألف ومائتى عام على حين ان الشيوعيين قد اوحوا لأهلها انه يبدأ منذ دخول الشيوعية إليها قبل ٧٣ سنة.

إلى بخارى :

ودعنا حاكم خوارزم ومعه عدد من أئمة المساجد والموظفين إلى سلم الطائرة السوفيتية وهي طائرة صغيرة ذات محركين مروحيين ولذلك تعتبر بطيئة في طيرانها وذكروا أن المسافة هي بين خوارزم وبخاري ٤٠٠ كيلو متر تقطعها الطائرة في ساعة واحدة وتحمل هذه الطائرة ٥٢ راكباً وتعمل فيها مضيئة روسية صهباء لم تؤد أي عمل للركاب وإنما رأيتها تسأل الركاب عن وجهتهم أهى بخارى ام سمرقند؟

وذلك ان هذه الطائرة ستتجه بعد بخاري إلى سمرقند ثم كانت تكتب العدد على كفها لتخبر به الطيار أو ربما تخبر به في اللاسلكي.

وكان معنا طول الرحلة في هذه البلاد المسلمة العريقة الشيخ الجليل المفتي محمد صادق محمد يوسف رئيس الادارة الدينية لآسيا الوسطى وقازاقستان وهو إلى ذلك عضو في مجلس السوفيت الأعلى وهو مرجع لجميع أئمة المساجد والعاملين في الحقل الإسلامى في هذه البلاد ويجيد العربية وصديق لنا قديم.

ومن الطريف في الأمر ان أحد رفقائنا في الطائرة كان جالساً خلفى انا والشيخ محمد صادق الذي كان جالساً بجانبى فجاءت إليه المضيئة وأمرته بالقيام عن الكرسي الذي هو فيه وجلست مكانه وقد أشارت الى كرسي آخر قالت له: اجلس هناك.

ومثلها مثل سائر المضيفات في طائرات الاتحاد السوفيتي الكثيرة
لا تعرف الابتسام ولا المجاملة في الكلام للركاب مثلها في ذلك مثل
العاملات في الحقول الأخرى اللاتي يعملن وكأنهن الآلات المسخرات.

فوق نهر جيحون :

نهضت الطائرة في العاشرة ضحى من المطار فصارت تطير مباشرة فوق
نهر جيحون الذي ورد فيه الأثر «سيحون وجيحون والنيل والفرات من أنهار
الجنة».

وسيحون وجيحون كلاهما واقع في هذه البلاد البخارية وإن شئت
قلت: التركستانية وإن شئت العراق التاريخية قلت: بلاد ما وراء النهر لأن
المراد بالنهر في التعبير نهر جيحون هذا الذي يؤلف اعلاه الحدود ما بين
بلاد الاتحاد السوفيتي وبلاد الأفغان في الوقت الحاضر.

و يسمون نهر جيحون هذا (أمو داريا) ومعناها النهر..

وقد رأينا نهر جيحون من الطائرة كما رأيناه أمس من على ظهر القارب
جسم المياه واسع المجرى يسير في أرض صحراوية لولا وجوده فيها لما اختلفت
عن الصحاري الأخرى إلا بالأشجار الكثيرة المتفرقة التي تتغذي جذورها
على ذوب الثلوج عندما يسيلها وقت الربيع.

وتنطلق من نهر جيحون قنوات عديدة بعضها كبير واسع يكاد يكون نهراً
صغيراً في حجم نهر بردى في دمشق وبعضها صغير. وللحكم الشيوعي في
آسيا الوسطى وإن كانت هذه التسمية ليست دقيقة كل الدقة باع ظاهر في
شق القنوات ومجاري المياه إلى حيث الأماكن المحتاجة للمياه.

وقد قال القوم الخبيريون إن القنوات التي أخذت من نهري جيحون
وسيحون قبل أن يصلا إلى منتهاهما في بحيرة خوارزم التي يسميها المتأخرون
من مشققي قومنا المقلدين بحيرة (أرال) قد أثرت على هذه البحيرة التاريخية

بل الأزلية فصار لايردها إلا أقل من نصف ما كان يردّها من مياهها على مر العصور وكان للسدود التي أقيمت أيضاً على النهرين ماحجز مياهها عظيمة عن الوصول إلى تلك البحيرة إضافة إلى ما عمر حولها من أراضٍ بالزراعة أو بالقنوات فحجز ذلك ما كان يأتي إليها و يغذيها من مياه ذوب الثلوج.

حتى أثر ذلك في محتوياتها وهي مليئة بالمعادن فصار ماتبخره الشمس في الصيف أضعاف أضعاف ما يصل إليها من ذوب ثلوج الشتاء.

فتركزت فيها المعادن وتبخرت غازاتها فأشاعت في الهواء التي حولها السموم ولوثت الهواء الطلق.

وانضاف إلى ذلك ما كانت التجارب الذرية السوفيتية تسببه من غبار ذري ومن غازات سامة إذ كانت منطقة التجارب الذرية السوفيتية في (فازاقستان) لا تبعد كثيراً عن منطقة البحيرة.

وقد أخبرنا اخوتنا المسلمون عن التقارير التي صدرت عن جهات مختصة عارفة وتتضمن احصاءات مرعبة عن انتشار الأمراض الناشئة عن التلوث في هذه المنطقة من الأمراض السرطانية إلى امراض الأطفال ولو كانت مثل هذه الأمور في بلاد ديمقراطية متقدمة كالبلدان الأوروبية الغربية لما وصلت الأمور فيها إلى هذا الحد لأن الصحافة ووسائل الاعلام ومثلي الشعب يشيرون ذلك و يضغطون على الدولة لايقافه.

ولذلك لم يعرف عامة الناس بحجم هذه الكارثة التي تتعلق بتلويث البيئة في هذه المنطقة منطقة بحيرة خوارزم (أرال) إلا بعد ان خفت قبضة الإرهاب الشيوعي عن رقاب الناس ورفعت الكمادات عن افواههم.

وينبغي الانتباه الى أن كلمة (ارال) في اسم هذه البحيرة ليست لها علاقة بجبال اورال فهي بعيدة عن تلك الجبال وليس في ارال اسمها واو.

وعندما اوغلنا في الطيران فوق منطقة جريان نهر جيحون ظهرت لنا
مستنقعات منه في هذه الأرض الصحراوية.

كان بالسيارة أفضل :

عندما رأى الاخوة من أهل خوارزم شغفي في الاطلاع على كل
مايتعلق بحاضر هذه البلاد ومقارنة ذلك بما كنت قرأته او اطلعت عليه من
أخبارها في صغري اشاروا على بالسفر إلى بخارى بالسيارة وقالوا وهم
يشيرون إلى السيارة التي كنا نتنقل عليها وهي سيارة حكومة رسمية سوداء
اللون ان الطريق هي ٤٠٠ كيلو متر يمكنكم ان تقطعوها اذا اسرعتم في
اربع ساعات.

وكان عرضا سخيا، لولا ان الوقت كان ضيقا بالنسبة إلي.

وقد تمنيت ان أكون بالفعل سافرت بالسيارة لأنني من اطلالة في
الطائرة بعد سحب حجب الرؤية بعض الوقت رأيت الأرض صحراء تشبه
أرض الصحراء عندنا وكل أرضنا صحراء الا أنها اكثر منها اشجاراً سواء منها
الاشجار الكبيرة كالطلع وما اشبهه من الأشجار او الاشجار الصغيرة
اللاصقة بالأرض.

وتخيلت هذه الصحراء تدوسها أقدام العلماء والصلحاء من اعلام الإسلام
وهم يغذون السير لطلب العلم، و يرحلون في ابتغاء المعرفة أو يهجرون
ملذات البقاء عند أهل والعيال لمجرد ان يلتقوا بمحدث رفيع الاسناد أو
ليظفروا برواية جزء فيه حديث من أحاديث الغرائب او حتى من أحاديث
العوالي وهي الاحاديث التي تروى بسند عال بمعنى ان عدد الرواة الذين
يكونون بين الراوي من المحدثين وبين الرسول صلى الله عليه وسلم يكون
اقل من عدد الرواة الذين يروون الحديث غيرهم.

اما الشعراء البلغاء والأدباء فان أبياتاً قالها أحدهم كانت لا تزال ترن
في أذني وقد حفظتها منذ مايقرب من نصف قرن وهو يتشوق إلى خوارزم

عندما كان مقبلاً في نجد وها أنا الآن أفعل عكس مايفعله فأتشوق في نفسي إلى نجد ونحن في خوارزم قال:

أبكاك لما أن بكى في ربي نجد سحاب ضحوك البرق، منتحب الرعد
له قطرات كاللاكئي في السدى ولى عبرات كالعقيق على خدي
تلفت منها نحو خورزم والهاً حزيناً ولكن اين خورزم من نجد؟

وبينا كنت غافياً عما في الطائرة في استعراض هذه الأجداد التاريخية للثقافة العربية الإسلامية لم اشعر الا بالمضيعة الروسية معها الضيافة الوحيدة وهي كأس عصير الفاكهة تناوله لي وعلى وجهها عبوس غريب ولم تنتظر حتى انتبه إليها وآخذه منها وإنما ناولته لجليسي المفتي الشيخ محمد صادق ليناولني إياه مع ان يده اليمنى كانت مشغولة بكأسه.

أما الركاب فانهم مختلطون مابين روس واوكرانيين وكلاهما من الأوروبيين بل ان بعضهم يجعل العنصرين الروسى والاوكراني كليهما من السلافيين وبين وطنيين بخاريين وإن شئت الدقة قلت آسيويين أو سطين نسبة إلى آسيا الوسطى التي تضم خوارزم وبخارى.

والفرق ظاهر بين الأوروبيين وهؤلاء الآسيويين الاوسطين اكثرما هو ظاهر بين العرب الشماليين كالسوريين اللبنانيين والتونسيين مثلاً وبين الأوروبيين الجنوبيين كالاسبانيين والبرتغاليين.

فالمسلمون هنا يتميزون عن الأوروبيين بالسمره الواضحة إضافة إلى التقاطيع التي يمكن ان نوضحها لبني قومنا الذين يعرفون البخاريين بأنها بخارية.

فوق بخارى :

تدنت الطائرة قليلاً إلى الأرض وهي لا تزال بعيدة نسبياً عن مدينة

بخارى وذلك لكونها مروحية صغيرة ذات سرعة بطيئة بالنسبة إلى الطائرات
النفاثة وهذا من حسنات الركوب فيها فرأينا آثار زراعة حقليّة واسعة ربما
كانت للقمح الشتوي وهو الذي بذر في أول الشتاء في مثل هذه الأرض
التي ينزل عليها الثلج فيغمره حتى إذا ذاب الثلج في الربيع نبت القمح
وقد أكسبه الثلج خصوبة إضافة إلى الندى.

والقرى الريفية طينية لا تكاد تميز البيوت فيها من الأرض العارية من
النبات لأنها مبنية من طين الأرض نفسها.

ثم كثرت القرى المزروعة التي تكثرت فيها المساحات الخضراء وصارت
تتكاثف كلما قاربنا الوصول إلى بخارى حتى صارت القرى الزراعية متصلة
وكلها تكون البيوت فيها مجتمعة متلاصقة تحيط بها المزارع فصدق ذلك
ما كان في ذهني مما ذكره مؤلفونا القدماء عن القرى الكثيرة التي تتبع
مدينة بخارى.

وتبدو الطرق الزراعية في هذه القرى ترابية وسط خضرة الأشجار.

ثم ظهرت قناة واسعة تحمل المياه إلى هذه القرى الزراعية البخارية
وعندما قربت الطائرة وهي تتدلى إلى قرب المدينة ظهرت حقول القمح
الذي أدرك فصارت ذا لون أصفر ولم تحصد بعد.

وقبل أن تلامس الطائرة المدرج رأينا السيارات في شوارع المدينة كثيرة
على البعد بالنسبة إلى السيارات القليلة التي تكون موجودة في العادة في
مدن الاتحاد السوفيتي مثله في ذلك مثل البلدان الاشتراكية الأخرى.

الوصول إلى مطار بخارى :

بدت الأرض التي تحيط بمدرج المطار بعد أن نزلنا فيه كأنها الصحراء
في آخر وقت الربيع فالأعشاب اليابسة والأشجار الصحراوية اللاطئة
بالأرض كشجر الهرم ونحوه موجودة بقرب المدرج وهي خضراء خضرة
كاملة.

وقد هبطت الطائرة في مطار بخارى في الحادية عشرة والنصف بعد طيران من اوركينج عاصمة خوارزم الى بخارى استغرق ساعة واحدة.

وكان أول ما لاحظناه أن الهواء في هذه الساعة المبكرة من القائلة فيه سموم حار يشبه السموم الذي يكون في بلادنا في مثل هذه الساعة من نهار الصيف.

وذلك رغم الفارق في مقادير المياه والأراضي المزروعة في هذه المنطقة وفي بلادنا الا أن بعد هذه المنطقة عن البحار وغلبة الجو الصحراوي عليها جعلها تبدو كذلك.

وجدنا في الاستقبال عند سلم الطائرة حاكم بخارى الأستاذ عبيد الله ناصروف.

والشيخ مختار عبدالله مدير مدرسة ميرعرب في بخارى.

ولم نتأخر في المطار وإنما اركبوني سيارة رسمية سوداء وركب معي حاكم بخارى، والمفتي الشيخ محمد صادق محمد يوسف وتبعتنا سيارة أخرى فيها بعض الرفاق.

في مدينة بخارى :

سارت السيارة على طريق مزدوج لا بأس به من حيث الزفلة إلا أنه غير واسع ويفصل بين طريق الذهاب والآيب مجرد خط وقد زرعوا جانبيه ببعض الحشائش التي تزينها بعض الأشجار ولم ار فيها زهوراً.

وكان أول ما استرعى انتباهي في الطريق امرأة مسلمة كبيرة السن قد وضعت على رأسها (غتر) مثل التي على رأسي.

وقد دخل الطريق إلى المدينة بسرعة لأنه قريب منها ولذلك رأينا الابنية السكنية الكبيرة التي تتألف من شقق عديدة وهي حكومية تبنيها

الحكومات الشيوعية وتؤجرها على الناس لأنهم لا يستطيعون ان يبنوا لهم مساكن بأنفسهم. ثم كثرت رؤية المارة في الشارع من الروس والاكرانيين وتبين بعد ذلك ان عددهم في مدينة بخارى كثير بخلاف قرى بخارى فعددهم فيها قليل.

والمدينة جميلة مرتبة الشوارع كثيرة الأشجار الخضر التي يؤلف بعضها حدائق في المدينة رغم كونها لا تقع على نهر كبير وإنما تقع على نهر زرفشان الذي اصبحت مياهه لا تكفي ولا تصل المدينة كلها وقد مدت لها قناة من نهر جيحون (اموداريا) منذ عهد قريب.

واللباس الغالب على الناس الذين رأيناهم في المدينة هو العالمي المسمى بالافرنجي.

فندق بخارى :

انزلونا في غرف من فندق بخارى وهو فندق جيد ذو مداخل فخمة تتقدمه باحات مكشوفة واسعة.



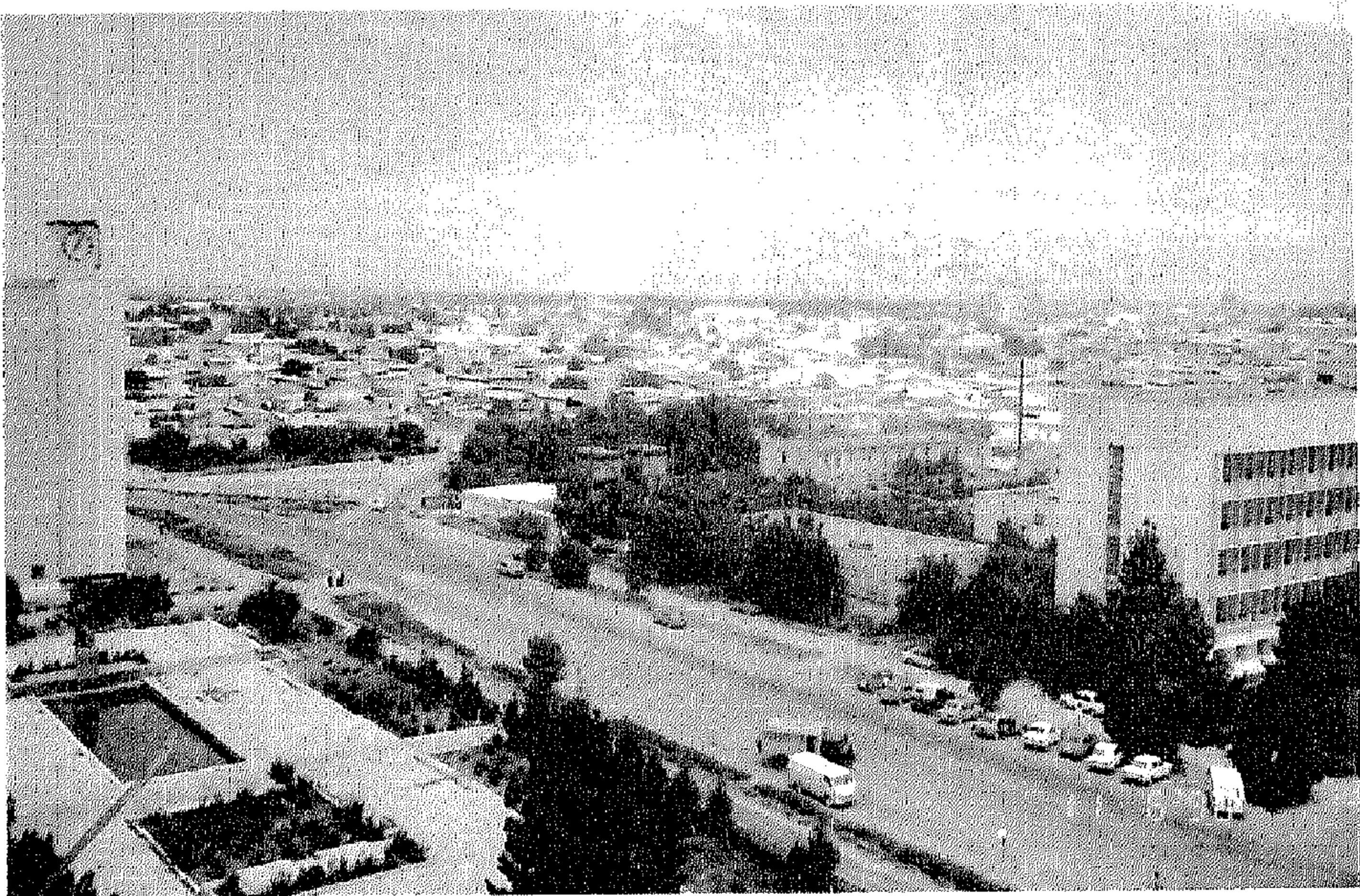
المؤلف واقف في شرفة فندق بخارى التقطها أحد المرافقين ويبدو جزء من المدينة من النافذة

أما غرفه فإنها ليست واسعة وقد انزلوني في جناح مؤلف من غرفة للنوم وغرفة استقبال مؤثثة تأثيثاً لا بأس به ولا طابع له في مدينة تاريخية مسلمة كنت اتوقع ان يكون كل ما فيها مستوحى من ذلك.

والشيء الوحيد الذي يدل على عراقها وطابعها الخاص صحنون وإباريق واكواب من الخزف التركستاني قد وضعوها في خزانة في الغرفة.

وفي الغرفة ثلاثة كبرى فيها ماء معدني وعصير من عصير الفاكهة وقد وضعوا في مائدة في الغرفة فاكهة من فاكهاتهم المحلية التي ادركت الآن وهي المشمش والكرز جرياً على عادتهم في تقديم فاكهة من فاكهاتهم للضيف إذا كان الوقت وقت وجود فاكهة والا قدموا له نقلاً وهو المكسرات كالفسق والبندق ومعه الزبيب.

وتقع غرفتي في الفندق في الطابق التاسع وتطل شرفتها على منظر أنيق من ساحة واسعة مشجرة جميلة التقطت لها من الشرفة عدة صور.

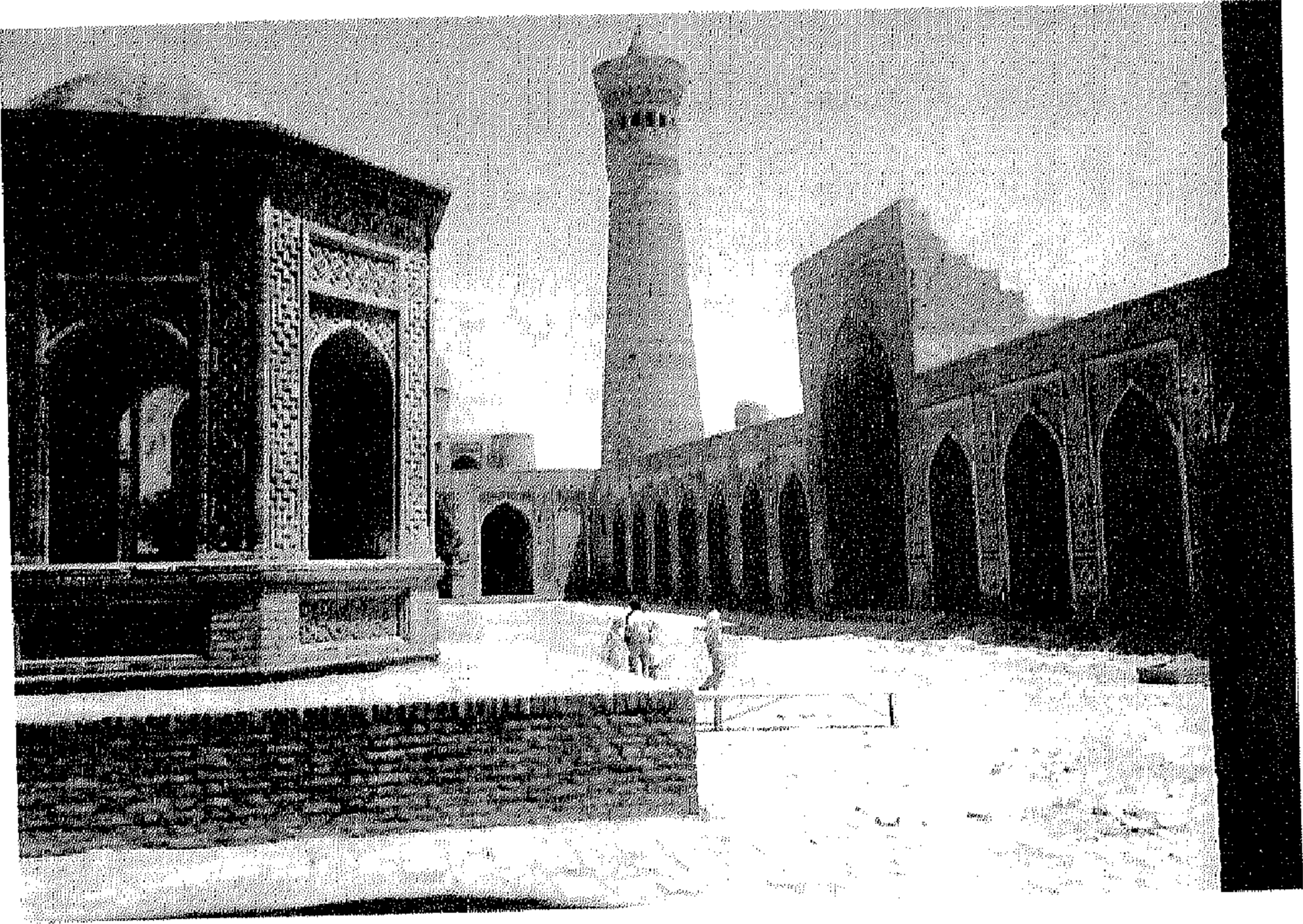


التقط المؤلف هذه الصورة للقسم الفاخر من مدينة بخارى كما يبدو من شرفة الفندق

جولة في مدينة بخارى :

لم نستطع أن نخصص لمدينة الإمام البخاري إلا سحابة هذا اليوم وذلك بسبب ازدحام البرنامج واتساع هذه البلاد المسلمة العريقة.

لذلك لم نلبث الا قليلاً في الفندق حتى غادرناه في جولة في مدينة بخاري صحبنا فيها عدد من أهل بخارى المشايخ ومعنا أيضاً في طول الرحلة وعرضها المفتي الشيخ محمد صادق محمد يوسف رئيس الادارة الدينية في آسيا الوسطى وقازاقستان وهو خير بهذه المنطقة لأنها من ميدان عمله.



داخل جامع كالان وتبدو منه منارة كالان شائعة

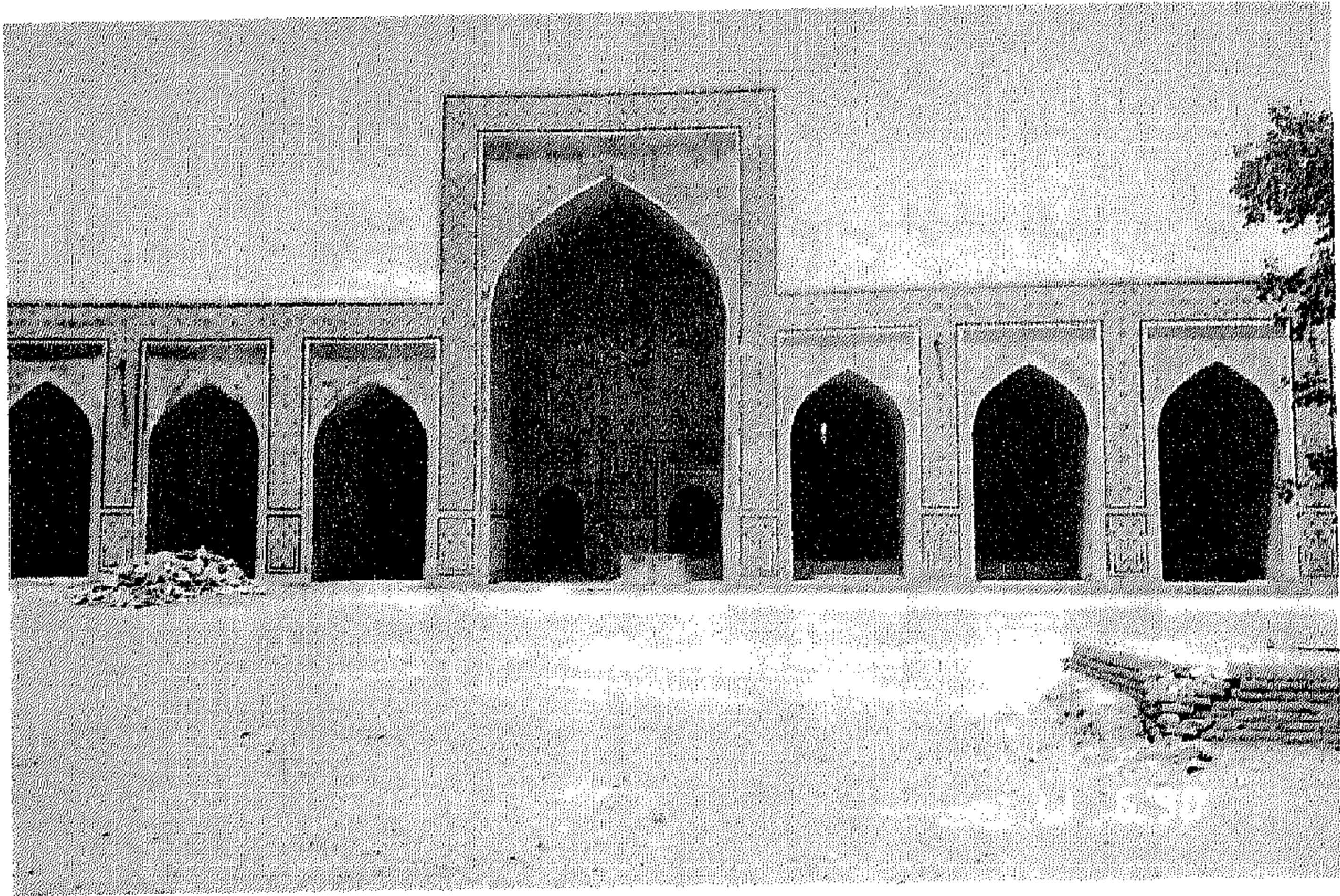
الجامع الكبير :

وهذه ترجمة لاسمه ويلفظون بها (جامع كالان) وكالان معناها الكبير وقد يسمونه جامع بخارى الكبير.

وهو كبير حقاً ويكفي أن تعرف أنه يتسع لتسعين ألف مصلى مع أنه الآن أصغر مما كان عليه في الماضي.

وكبره يعطيك دليلاً واضحاً على كبر مدينة بخاري في القديم بل ضخامة حجمها بالنسبة لما هي عليه الآن فساكنها الآن يبلغون ٢٨٠ ألفاً أي أن عدد الرجال الذين يصلون في الجامع اذا كان جميع الرجال يؤدون الصلاة واذا كانوا يؤدونها فيه دون غيره من المساجد هم أقل من العدد الذي كان يستوعبه هذا الجامع الكبير القديم.

عندما دخلنا لهذا الجامع هالنا صحنه الواسع المستطيل باتساعه وإحاطة الاروقة التي تقام فيها الصلاة ومع ذلك كان في القديم اكبر مما هو عليه الآن.



إحدى بوابات جامع كزالان كما تبدو من الداخل

وقد ذكروا ان طوله البالغ وازدحامه بالمصلين كان إبان ازدهار مدينة بخارى قبل أن يخرها التتار عند هجومهم على هذه البلاد المسلمة الواقعة فيما وراء النهر عام ٦١٦ هجرية وقد خربوه فيما خربوه من مدينة بخارى فتقلص عدد سكان المدينة حتى لم يكذب فيهم منها أحد ومن لم يمت هرب منها إلى الأرياف أو إلى أماكن أكثر منها أمناً ثم جدد بناؤه أكثر من مرة حتى صار على ما هو عليه الآن من الروعة والعظمة وبناؤه الحاضر كان على يد

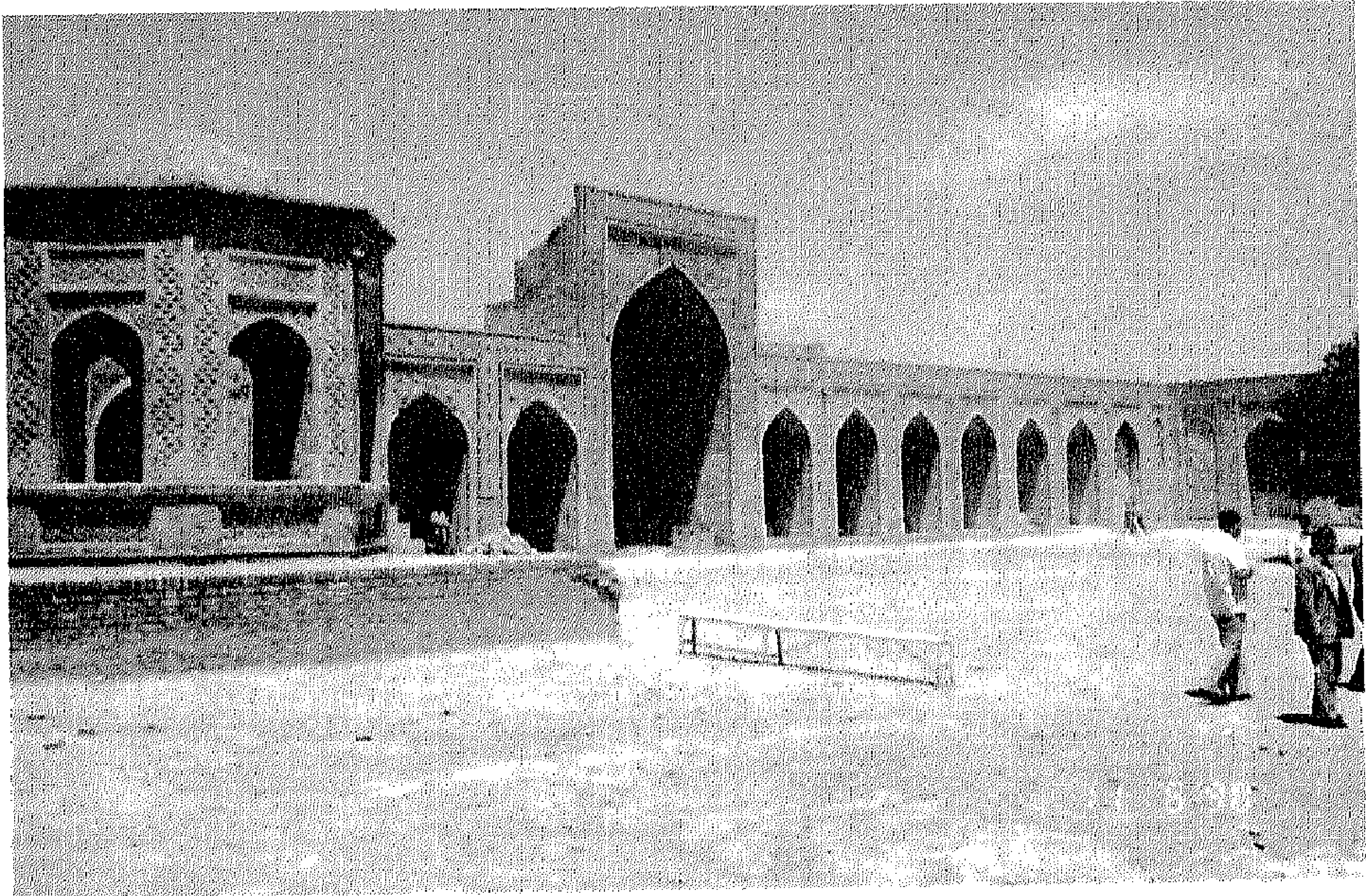
الأمير عبدالله الشيباني من ذرية تيمور لنك في القرن العاشر الهجري.

فالصحن الواسع محاط بأروقة واسعة من جميع الجوانب، إلا أن بعضها أوسع من بعض فثلاً الجزء الشمالي الشرقي الذي يقابل القبلة أكثر عمقاً وأكثر اتساعاً للمصلين من الجوانب الأخرى.

وقد بني في عقود إسلامية الطراز مما تميز به طراز البناء في تلك المنطقة وبخاصة بواباته ذات العقود العالية، وأعمدته الرشيقة وكان موضعه مسجداً صغيراً أسس في عهد قتيبة بن مسلم الباهلي في أواخر القرن الأول الهجري.

جامع الإمام البخاري :

ويصح أن يسمى هذا الجامع الكبير بجامع الامام البخاري أيضاً فقد كان البخاري يحدث الناس فيه، اي يروي لهم الأحاديث التي ضمنها كتابه (الجامع الصحيح) وغيره من كتبه.



جانب من الساحة الداخلية لجامع كالان في بخارى

وكان الناس الذين يتلقون عنه الحديث من الكثرة بحيث لا يستطيع صوته ان يبلغهم فكان له ثلاثة من المبلغين وهم الذين يتلقون مايقوله ويعيدونه لسمعه الناس الذين لايجدون مكاناً بالقرب من الامام البخاري لكثرة المجتمعين حوله وقد قيل ان الإمام البخاري حدث في هذا الجامع الكبير بأكثر من ٩٠ الف حديث من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وطبيعي أنه ليس كل تلك الأحاديث من الأحاديث الصحيحة المذكورة في صحيحه لأن أحاديث الصحيح كلها مع المكرر منها لايزيد عددها على ٧٣٩٧ حديثاً.

ولكن الإمام البخاري له مؤلفات غير الجامع الصحيح المعروف بصحيح الإمام البخاري بلغنا منها عدة منها: التاريخ الكبير والتاريخ الصغير، والأدب المفرد، وكتاب خلق أفعال العباد.

خروج الإمام البخاري من بخارى :

لخروج الإمام محمد بن اسماعيل البخاري من مدينة بخارى التي اكتسبت فخراً به على العصور بل اكتسبت كل هذه المنطقة من بلاد ماوراء النهر وحتى بلاد تركستان كلها مجداً بهذا الإمام العظيم لم تمحه الدهور علاقة بسماع الحديث في هذا الجامع الكبير.

فقد كان الإمام البخاري يحدث الناس فيه مجتمعين لافضل لأحد على أحد عنده الا بمقدار ما يحصله من العلم. وما يصدق علمه من العمل بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يثمره ذلك من صلاح وتقوى للمرء ينعكس على اعماله وسلوكه.

فأراد أمير بخارى أن يجعل أولاده يسمعون الحديث على الإمام البخاري فأرسل إليه يسأله ذلك.. فأبدى الإمام البخاري ترحيبه بأولاد الأمير كما

كان يبدية بغيرهم فهدفه هو إبلاغ الحديث إلى كل من يستطيع إبلاغه إليه. غير أن الأمير استنكف أن يحضر أولاده مع ذلك الجمع العظيم الذين يسمعونهم الإمام البخاري حديثه، ورأى في نفسه أنه وهو الأمير جدير بأن يأتي الإمام البخاري إلى قصره معزراً مكرماً حتى يسمع منه أولاد الأمير ومن أراد الأمير أن يكونوا معهم من حاشيته.

فامتنع الإمام البخاري عن القدوم إلى قصر الأمير، وقال: العلم يؤتى إليه ولا يأتي إلى الناس ثم إذا ذهبت إلى قصر الأمير وقصرت سماع الحديث على أولاده ومن يريد معهم كيف يصنع سائر الناس الذين حضروا إلى بخاري من اقاصي البلاد وادانيها إذا ما تركت إقراء الحديث في المسجد الكبير وهل يقبل الأمير أن احضرهم إلى قصره ليسمعوا مع أولاده ان كان في قصره متسع لهم مثل المتسع الذي في المسجد الجامع؟

قالوا فغضب الأمير على الإمام البخاري، ومنعه من إسماع الحديث في المسجد الجامع نكايه به حين لم يخص أولاده بوقته دون سائر الناس فلم يسمع الامام البخاري لقوله، فتوعده الأمير وعرف الامام البخاري بصدق وعيده. فخرج مغاضباً له من مدينة بخاري قاصداً مدينة سمرقند ولكن واليها منعه من الإقامة بها مجاملةً للأمير بخاري فذهب إلى أقارب له في (خرتنك) حيث مرض ومات هناك في عام ٢٥٦هـ عن ٦٢ سنة. وقد زرنا قبره في خرتنك كما سبق.

عود إلى الحديث عن الجامع الكبير:

بقي هذا الجامع الكبير (جامع كلان) بمثابة الجامعة الإسلامية يقصده الناس للصلاة ويتجه إليه طلبة العلم حتى حل البلاء الشيوعي الملحد بالبلاد فصادره من بين مصادره من جوامع ومدارس وأماكن يذكر فيها اسم الله.

واتخذوه الشيعيون مستودعاً لاشيائهم وقالوا للناس ما اعتقدوه بأنه لن يعود جامعاً يذكر فيه اسم الله ولا جامعة تدرس فيها العلوم الإسلامية كما كان من قبل.

ولكن الله خيب ظنهم وكذب قائلهم فعاد الجامع إلى المسلمين جامعاً يشهد بعراقته هذه البلاد في الإسلام ويذكر فيه اسم الله أثناء الليل وأطراف النهار.

وذلك حين استعاده المسلمون قبل أقل من سنة واحدة ولكن الشيعيين كانوا قد خربوا منه ما خربوا وما لم يخربوه منه أهملوه حتى خربه الزمان.

فأخذ الاخوة المسلمون الآن في إصلاح ما أفسده الإلحاد منه ولكن ذلك يحتاج إلى جهد ومال تقصر قدرتهم عن توفيره.

فأخبرناهم ان في امكان رابطة العالم الإسلامي ان تساعد في تعميره وترميمه وما عليهم إلا ان يقدرُوا ما يحتاجونه من مال لذلك الغرض وأن يفصلوا الغرض منه تفصيلاً ثم يعطونا ذلك أو يرسلونه إلينا في الرابطة ونحن سنقدم ان شاء الله إسهاماً طيباً في ذلك.

وقد أخبرونا ان المسجد صلي فيه صلاة العيد بعد اعادته للمسلمين لأول مرة فبلغ عدد المصلين ستة آلاف وفي العيد الذي بعده صلي فيه ثمانية آلاف مصل.

هذا وقد صلينا الظهر في الركن الشمالي من الجامع المسقوف ووجدناهم فرشوه بمطارج وهي التي تحشى بالقطن وببسط صوفية وذلك اتقاء للبرد كما أنهم جعلوا فيه مداقي تعمل بالنفط.

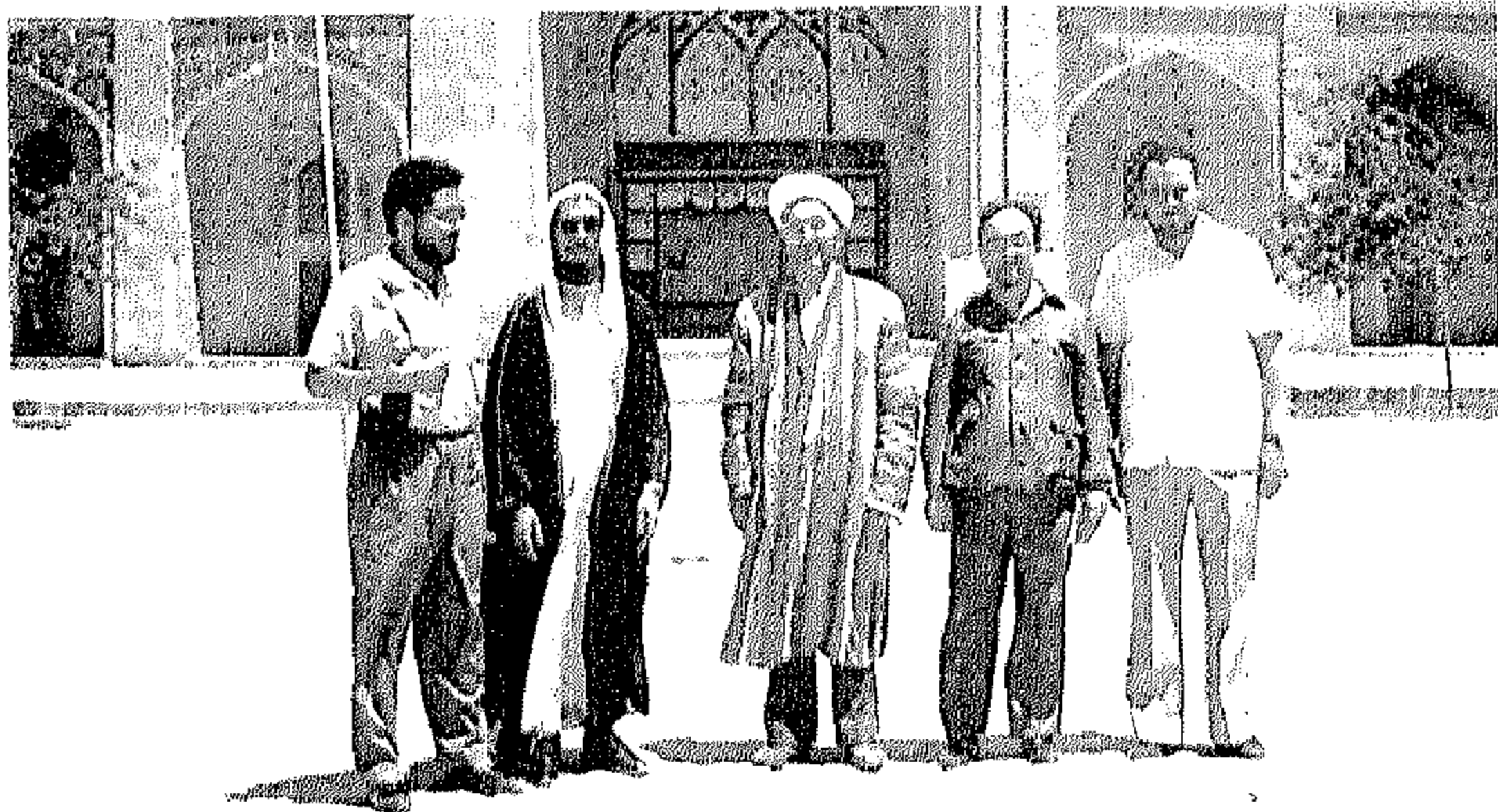


المؤلف أمام موضع المحراب في جامع كالان

وذكروا بهذه المناسبة ان درجة البرودة تنزل في الشتاء الى ٢٠ درجة تحت الصفر وحياناً تنخفض إلى ٢٥ درجة وهم يصلون الصلوات الخمس في هذا الجزء الصغير المفروش في المسجد واما سائره فإنهم يعملون في ترميمه وجعله صالحاً للصلاة أيام الجمع والأعياد.

منارة كالان :

والمراد بكالان كما سبق الكبير فهذه المنارة عجيبة فهي عالية يبلغ ارتفاعها ٤٨ متراً وفيها ١٠٨ درجات يحتاج من يصعد من اجل ان يؤذن فيها إلى ان يصعد كل هذه الدرجات و ينزل منها.





منارة كالان في بخارى

وهى مدورة منقوشة بل مزوقة، وقد قاومت القرون فلم تؤثر فيها وقد صارت الآن معلماً من معالم مدينة بخاري توضع على البطاقات والمنشورات السياحية

وهي واقعة خارج المسجد الجامع الكبير ولكنها ملاصقة له.

مدرسة مير عرب.

ومعناها مدرسة الأمير العربي:

وهو أمير عربي كان وزيراً للسلطان عبيد الله الشيباني الذي هو من خلفاء التيموريين فليس له رغم اسمه علاقة ببني شيبان من العرب وكان

الأمير العربي هذا رجلاً عمرانياً كما كان أسلافنا العرب يقولون عن أمثاله فهو يحب العمارة وذكروا من مآثره أنه حفر موارد كثيرة في الصحراء لكي يتزود منها المسافرون الماء.

وهذه الموارد على هيئة سراديب أو برك من الماء تحت الأرض، من أجل حفظ مياهها عن التبخر وصيانتها من التلوث بالاقذار والأكدار.

وفي موقعة من المواقع بين الملك عبدالله الشيباني واعداء له من الايرانيين

قادها الوزير (مير عرب) اي الأمير العربي او بالترجمة الحرفية (أمير العرب) وان كانت هذه الترجمة غير مرادة، انتصر الوزير على الايرانيين فكافأه الملك بأن اجزل له المال الذي أراده الوزير من أجل العمارة فبنى هذا الجامع الكبير بمعنى جدد بناءه والمنارة الكبيرة ومدرسة عظيمة البناء لا تزال باقية وهي مدرسة مير عرب، وجعل المدرسة مقابلة للجامع تقع إلى الشرق منه، وبنى المنارة هذه بين الجامع والمدرسة.

مدرسة مير عرب :

بعد التجول في الجامع والالتفاف حول المنارة والتقاط الصور التذكارية حولها دخلنا إلى مدرسة (مير عرب) وهذا هو اسمها الرسمي الآن من بوابة عالية بلغ ارتفاع القبة التي تزين مدخلها (٣٠) متراً اي ميساوى ٨ طوابق تقريباً. في أقواس فوق المداخل مشابهة من حيث الهندسة لمداخل الجامع وبواباته وللأبنية التي خلفها التيموريون في سمرقند.

المسلمون أولاً :

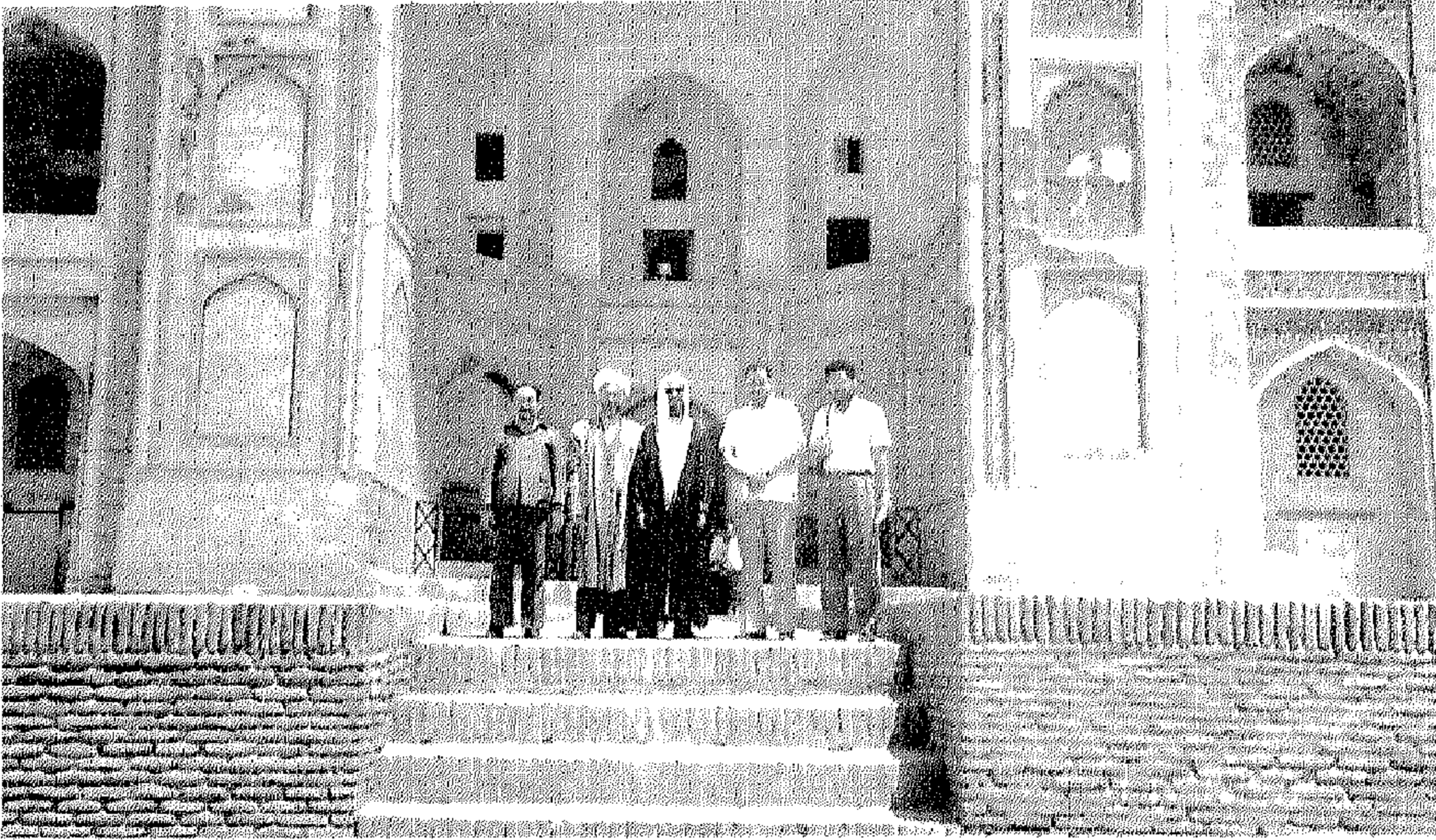
عند ماوصلنا (مدرسة مير عرب) كان هناك سياح من الأوروبيين في



صورة تذكارية للوفد داخل جامع كالان

جولة سياحية فأوقفوهم وقالوا للدليل الذي معهم: إنه لا يمكن لهم ان يدخلوا قبلنا ثم ذهبوا بهم إلى مكان آخر حتى انتهينا من زيارة المدرسة.

دخلنا مع البوابة التي يرتفع سقفها ٣٠ متراً وهي نفسها مرفوعة عن الأرض عدة أمتار إلى صحن المدرسة الذي تتربعه اربع بوابات ذات عقود عالية كلها لا يقل ارتفاعها عن ٣٠ متراً وان كان بعضها على هيئة بوابة لكنه ليس فيه باب. ووجدناهم كتبوا لافتات ترحيب بنا بالعربية والروسية.



على بوابة مدرسة مير عرب من اليمين الاستاذ ايمن حبيب فلاستاذ حاتم قاضي فالمؤلف فالشيخ مختار عبدالله فلاستاذ رحمة الله بن عناية الله

والمدرسة تدور كلها على هذا الصحن المبلط بالحجارة المهذبة دائرة بالصحن ولا يوجد غير ذلك فجميع مرافق المدرسة داخل هذه الدائرة وذلك أعطاها منظرأ أنقىأ جميلاً يجمع إلى الجمال الفخامة والارتفاع.

وكل ذلك في طراز إسلامي من الاطرزة التي اكتسبت صفات خاصة في هذه البلدان (البخارية) اي في منطقة ماوراء النهر كلها.

والغريب ان المرء إذا نظر إلى الغرف المحيطة بهذا الصحن وجدها تبدو من طابقين لكن تبين أنها من أربعة طوابق فقد جعلوا فوق كل غرفة غرفة أخرى و يبلغ عدد الغرف فيها (١٠٤) غرف ولكنها في معظمها صغيرة.

ومن الطريف في الأمر ان ابواب الغرف منخفضة يحتاج من يدخل منها إلى أن يطأ رأسه ذكروا لنا أن هذا مقصود من أجل ان يتعلم طالب العلم التواضع فينخفض رأسه عند الدخول وهي غرف صغيرة ذكروا أنها بنيت في الأصل لإقامة الطلبة.

وبعد جولة في غرف المدرسة وأركانها وجدناهم في ادارة المدرسة وعلى رأسها الشيخ الحاج مختار عبدالله مدير المدرسة قد اعدوا الغداء في مكتبة المدرسة وتضم كتباً جمّة مابين مطبوع ومخطوط باللغات الثلاث التي هي العربية والاوزبكية والفارسية. فكان غداء بخاريا وهو الذي يمتاز بالسخاء والكرم ومعها الدسم الكثير في الطعام، شأن كثير من اهل البلدان الباردة الذين عرفوا من تجاربهم ان الدسم يدفي عن طريق تكوين طبقة دهنية فوق الجلد ثم صار الاكثار منه تقليداً متبعاً وان لم يرد الا كل ذلك.

حديث عن مدينة بخارى :



الغداء في مكتبة مدرسة مير عرب والشيخ مختار عبدالله (واقف إلى اليسار)

وبينما كانت الصحون تتعاقب تترى على المائدة كان الشيخ مختار عبدالله يحدثنا حديث الخبر عن مدينة بخارى فهو وان كان أصله من فرغانه فإنه مولود في بخارى وقد سلخ من عمره احدى وثلاثين سنة في العمل وقد تقاعد قبل مدة قريبة ويتقاضى راتباً تقاعدياً عن مدة خدمته تلك يبلغ مائة وثلاثين روبلاً وكان راتبه قبل التقاعد ٢٨٢ روبلاً.

وهذا مبلغ ضئيل بالنسبة إلى الرواتب عندنا اذا نظرنا إلى القيمة المصرفية المجردة للروبل فالدولار يصرف بستة روبلات ونصف للسياح ويسمون ذلك سعراً تشجيعياً وهو في السوق السوداء اي الحرة بـ ١٥ روبلا الا أن الصرف الرسمي للدولار لا يزال من الناحية الرسمية بثلاثي روبل اي أن الروبل يساوى حوالي دولار ونصف تقريباً ولكن لا أحد يشتريه بذلك من الأجانب او السياح.

والمهم هنا قيمة الروبل داخلياً وما يوفره لحامله من خدمات حكومية في بلد شيوعي تهيمن الدولة فيه على كل شيء فهو كبير القيمة من هذه الناحية حيث يحتاج البيت المتوسط في مصاريف الماء والكهرباء إلى اربعة روبلات في الشهر واجرة البيت نفسه من ١٥ روبلاً إلى ٢٠ في الشهر وعلى هذا فقس.

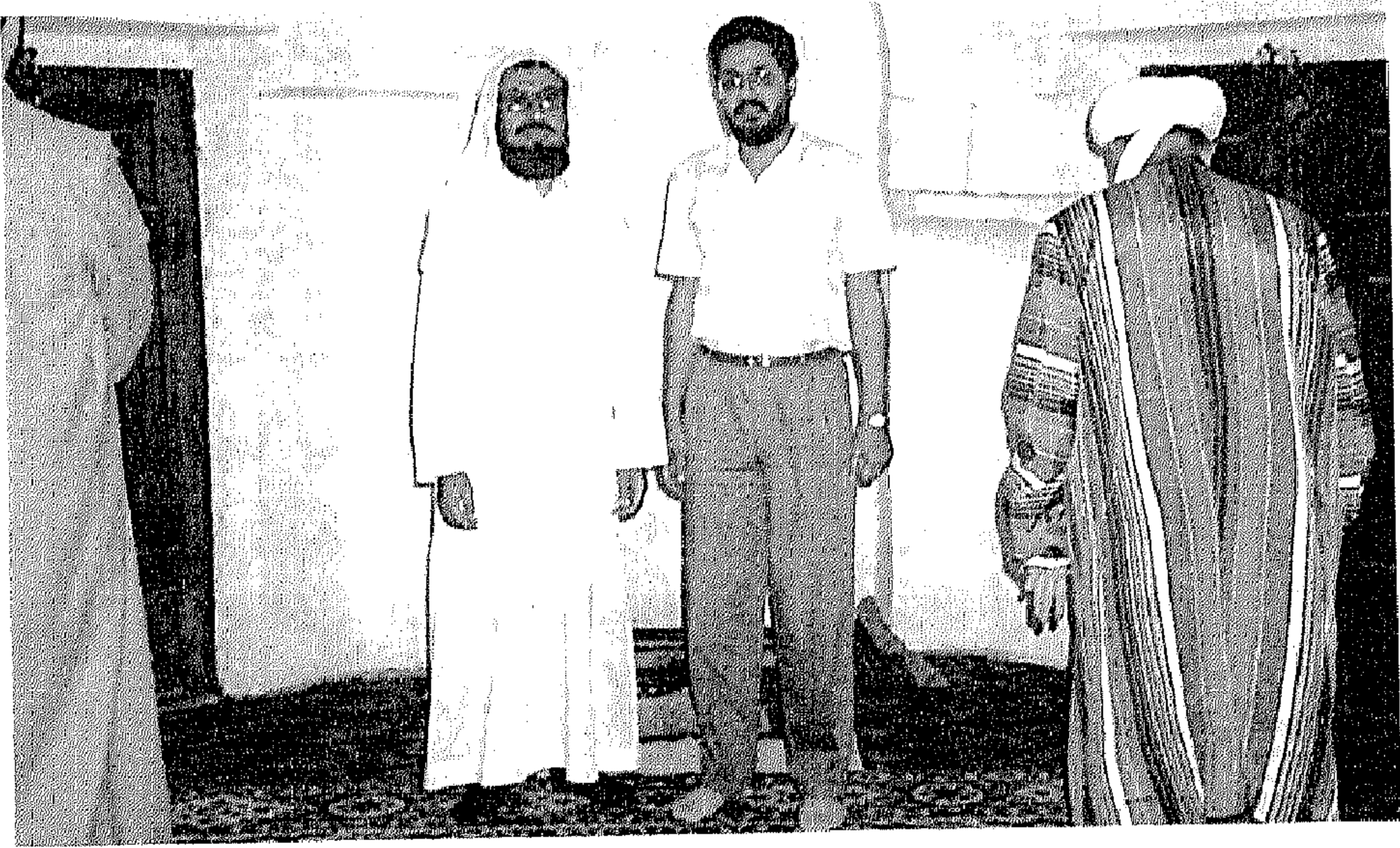
إلا أن الحال اخذت تبدل الآن بعد سياسة (البروستيريكا) التي تعني إعادة البناء فأخذت الحرية الاقتصادية تبدو قريبة وقد شمل ذلك أشياء بالفعل مثل الترخيص للفلاح ببيع انتاجه والترخيص لكل جمهورية ان تكون حرة في بيع انتاجها دون ان يشترط ذلك موافقة موسكو وكانت موسكو تتصرف قبل ذلك بالمحاصيل تنقلها من جمهورية إلى جمهورية بالسعر الذي تحدده.

ونعود إلى الحديث عن بخارى فنكرر ماذكرناه من ان عدد سكانها يبلغ الآن ٢٨٠ ألف نسمة ونذكر مالم نكرره وهي ان بخارى مدينة عريقة حتى

يقال ان تاريخها يصل إلى ألفى سنة قبل الإسلام.

وكانت قبل ذلك أكثر سكاناً مما هي عليه الآن فعلى سبيل المثال ولمناسبة الحديث عن المدارس كان في بخارى ١١٣ مدرسة والآن ليس فيها الا ٣٣ مدرسة فقط.

وبعد الغداء الهنيئ ذهبنا إلى مسجد في المدرسة وهو صغير نسبياً خاص بالطلبة الذين يقيمون داخل المدرسة رغم قربها من الجامع الكبير.



داخل مسجد مدرسة مير عرب بجاني الاستاذ أيمن حبيب

وعندما دخلناه شعرنا ببرودة داخله رغم كونه غير مكيف ولكن طريقة بنائه بالأجر الذي بنيت منه مدرسة (مير عرب) كلها وكونه ذا قبة عالية جعل الجو داخله أكثر لطفاً من الجو في المدرسة الذي كان شديد الحر مثل ما كان عليه الجو في (خوارزم) أمس.

وقد أدينا الصلاة فيه مع عدد من الاخوة الموظفين في المدرسة والقيت في المسجد كلمة بالعربية لم يترجمها أحد لأن القوم من مدرسين وطلاب كلهم يعرف العربية.

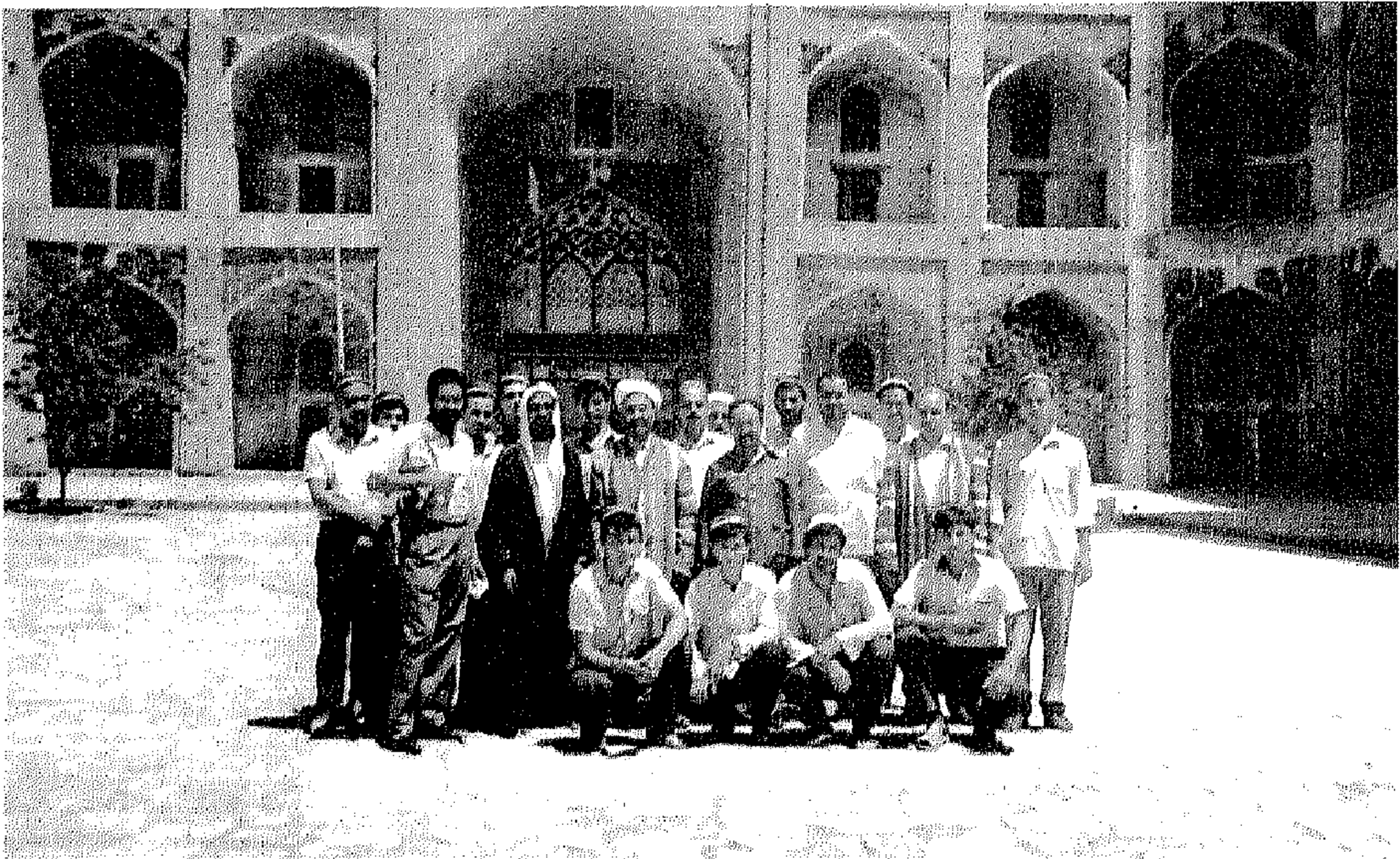
وقد اعلنت فيها تقديم خمسة الاف دولار تبرعاً فورياً من الرابطة للاسهام في ترميم هذا الجامع مع استعداد الرابطة للنظر في تقديم تبرع اكبر بعد ذلك.

و يبلغ عدد الطلاب في مدرسة (مير عرب) الآن حوالي (٩٠) طالباً وكان العدد طيلة السنوات الماضية لم يزد على ٣٠ طالباً لأن الزيادة تتطلب قراراً من الحكومة في موسكو وهي لا توافق على ذلك.

هذا مع أنه لا يوجد في الاتحاد السوفيتي في السنوات الماضية غير هذه المدرسة الا معهد الإمام البخاري الذي يضم ٥٢ طالباً.

فكيف يكفي هذا العدد الضئيل من الطلبة الذي لم يكن يتجاوز المائة لخدمة ٥٠ مليوناً من المسلمين في الاتحاد السوفيتي؟

على ان الأمر يختلف الآن ما بين زيارتنا الأولى لهذه المنطقة وزيارتنا الحالية فجرى السماح ببناء فصول دراسية في المساجد الجديدة كما بنى معهد كبير في دوشنبه عاصمة جمهورية تاجيكستان.

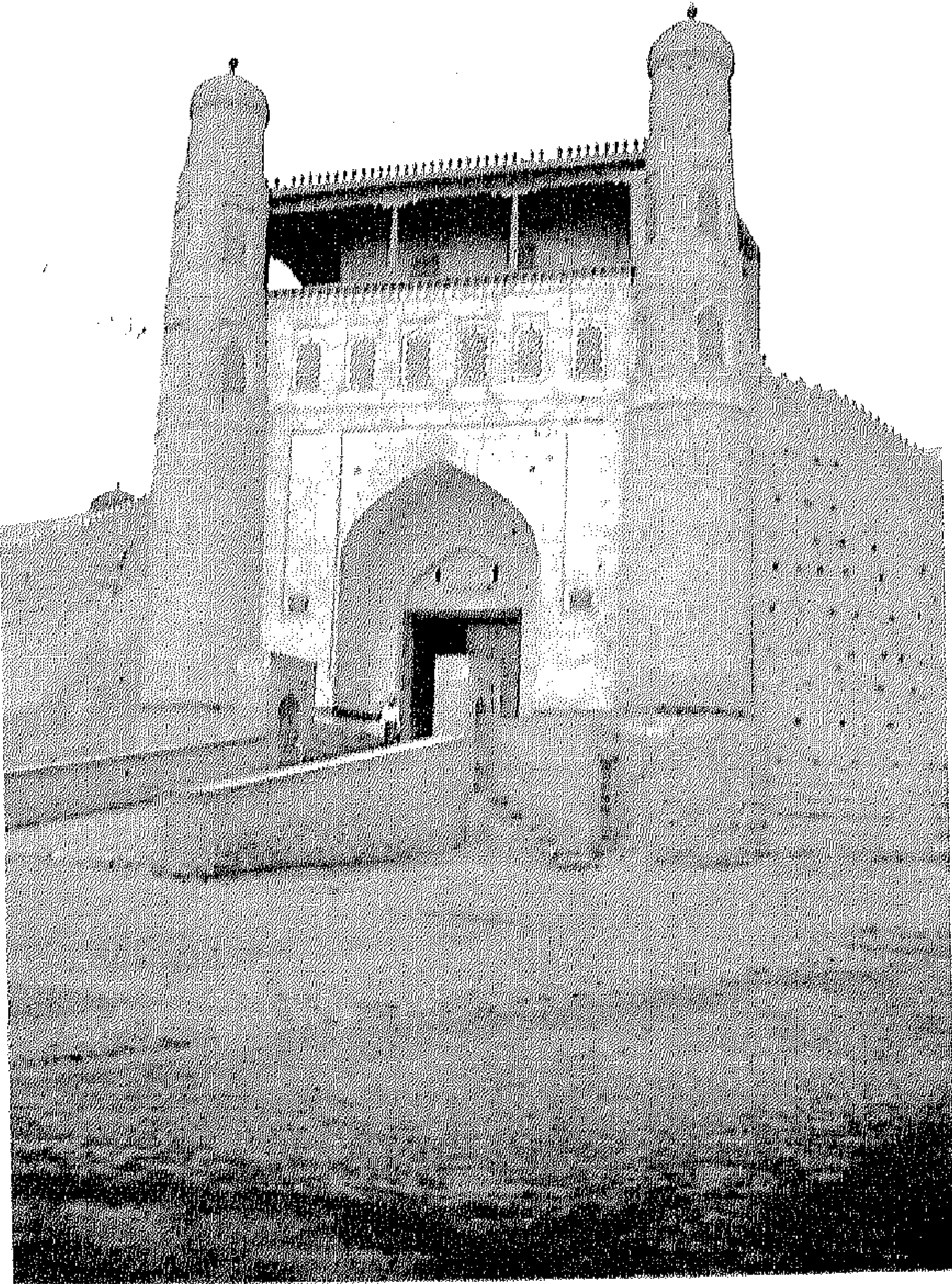


صورة تذكارية مع طلبة من مدرسة مير عرب في صحن المدرسة

واخذ الناس وبخاصة من الشبان والأطفال يقبلون على دراسة الدين الإسلامي ولله الحمد.

قلعة آرك :

وقد تسمى قلعة الأمراء وهي قلعة حصينة كبيرة تقع في مكان مرتفع وكان يسكنها حاكم المنطقة مع وزرائه وقواده وقضاة ووجهاء دولته وهي مثل من الأمثال على ما هو موجود في هذه المنطقة ومعروف عنها منذ القديم من وجود أمثال هذه القلاع التي لا يكون المعنى دقيقاً إذا قلنا انها قلعة وإنما هي مدينة للسلطان واعوانه ليكون منعزلاً عن العامة في السكن متحصناً عن البغاة والمعتدين.



وكان أسلافنا العرب يسمون مثل هذه القلعة باسمها الأعجمي (قهندز) لأنهم لم يكونوا يعرفون مردافاً له بالعربية ومنهم — على سبيل المثال — ياقوت الحموي الذي نقل قبل ثمانمائة سنة عن صاحب كتاب الصور قوله في بخارى: انك إذا علوت قهندزها لم يقع بصرك في جميع النواحي إلا على خضرة متصلة خضرتها بخضرة السماء فكأن السماء بها مكبة خضراء مكبوبة على بساط أخضر.

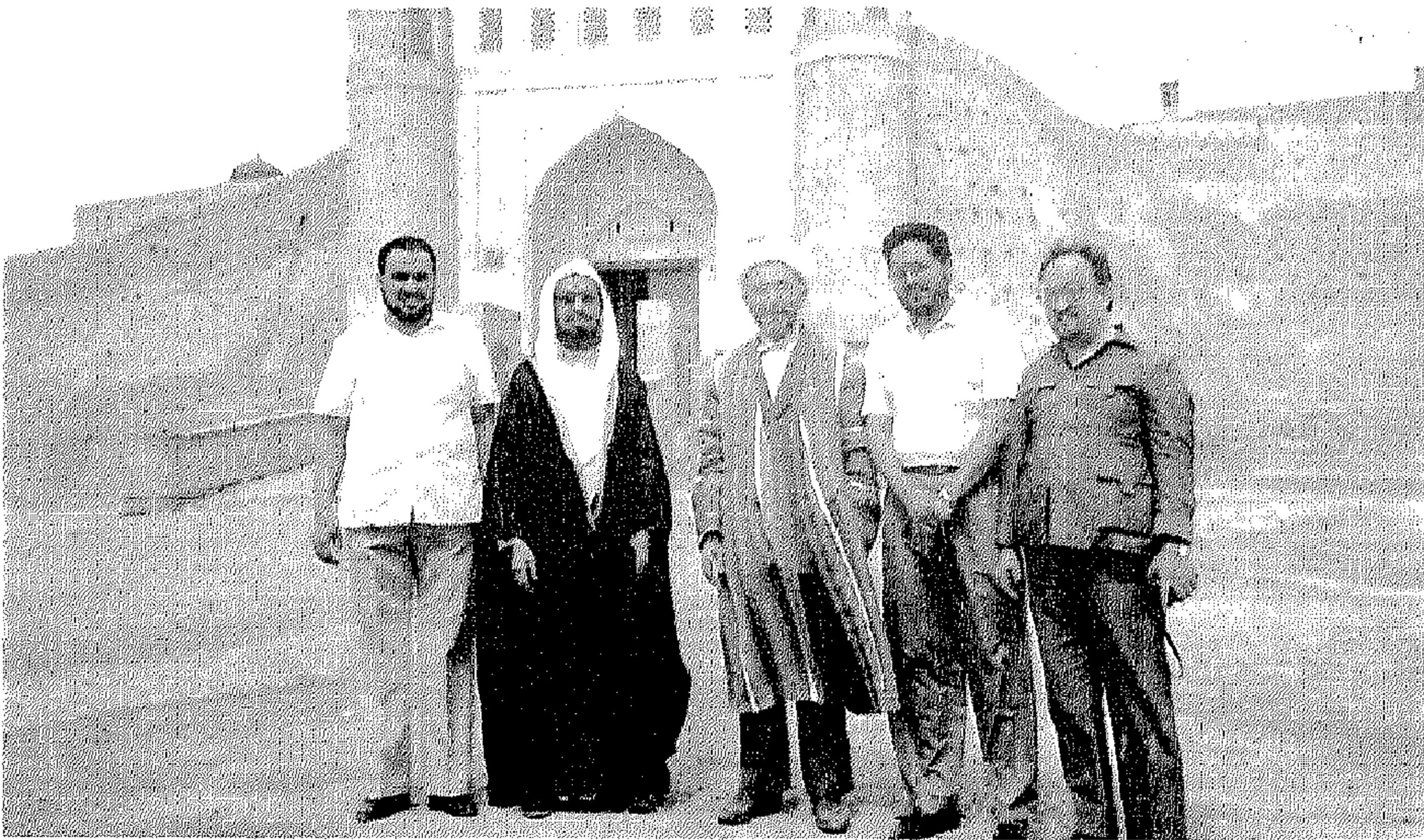
وقال ياقوت نفسه: ولها (قهندز) خارج المدينة متصل بها مقداره مدينة صغيرة وفيه قلعة بها مسكن ولاية خراسان من آل سامان وكان عدد سكان هذه القلعة يبلغ ثلاثة آلاف نسمة وفيها عدة مساجد والآن لا يستعمل منها الا مسجد واحد.

وكان آخر من سكنها من الملوكة والأمراء الأمير عالم خان بن عبد الأحد.

وتستعمل في الوقت الحاضر متحفاً ويأتي إليها الزوار لمشاهدتها هي ولرؤية ماتحتويه من المعروضات.

وبناؤها الخارجي رث ما عدا بوابتها العالية فأما سورها فإنه على طراز قديم أعلاه داخل أكثر بكثير من أسفله فيخيل إليك إذا نظرت إليه أنه مائل وهو بالفعل مائل إلى الداخل ابتغاء للقوة له.

ولم يكن الوقت يسعفنا بالدخول إليها والتجول في أنحائها ولكنني اكتفيت بما رأيته في مثيلتها أمس في مدينة خيوة في خوارزم فاكثفينا برؤية مدخلها والتقاط صور عندها.



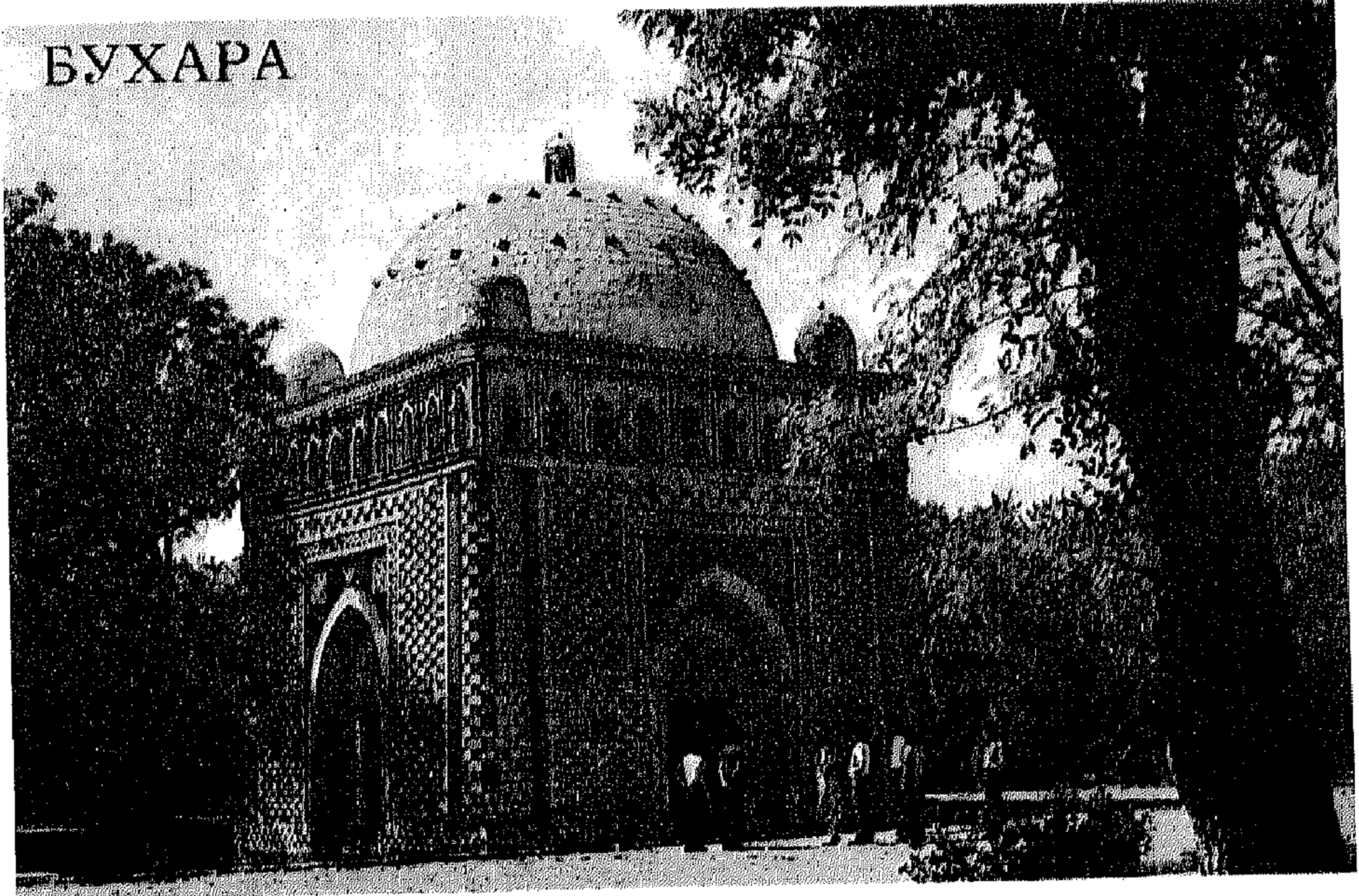
صورة تذكارية مع الشيخ مختار عبدالله أمام بوابة قلعة آرك في بخارى على يمينه المؤلف فالاستاذ حاتم قاضي وعلى يساره الاستاذ أمين حبيب فالاستاذ رحمة الله بن عناية الله

وأمام هذه القلعة (أو القهندز) ميدان واسع ذكروا أنه كان يستعمل
ساحة للأعمال التي يريد الأمراء ان ترى وتشتهر ومن ذلك قتل المجرمين
وقطع ايدي السارقين وتأديب المخالفين فكان ذلك يتم أمام أعين الجماهير
التي تأتي لمشاهدته فهي هنا مثل ميدان الصفاة في الرياض التي اعتاد
الناس على ان يروا الأحكام الشرعية في القصاص تنفذ فيه بالقتلة
والمجرمين.

وتقابل هذه القلعة في جانب الميدان الكبير مدرسة الطب التي تقع في
مبنى أثرى ذي هندسة إسلامية جميلة.

ضريح السامانيين :

واصلنا الجولة في مدينة (بخارى) العريقة فكانت الفقرة التالية من
البرنامج زيارة (ضريح السامانيين) هكذا يسمونه مع انه في الحقيقة هو قبر
الأمير الساماني اسماعيل بن أحمد الساماني المشهور الذي كان أميراً على
بخارى وماحولها من تلك المنطقة.



ضريح السامانيين

ذكروا ان هذا البناء الذي على القبر قد مضى عليه الآن قرابة الف سنة وأنه مبنى تاريخي نوهت به (اليونسكو) التابعة للأمم المتحدة وعدته من الآثار التاريخية العالمية وهو بناء غير مرتفع مبنى بالآجر المعقود وكان قبل ذلك مزخرفاً من الخارج الا ان طلاءه الخارجي قد ذهب وبقي البناء بالآجر باقياً على الدهر.

وقد نوهوا بأن هذا البناء كان قبل وصول جنكيز خان وقومه المغول إلى بخارى وتخريبهم المدينة وان هذا البناء قد سلم منهم فلم يخرب ربما كان ذلك لكونه على قبر وانهم لا يهتمون الا بتخريب الأشياء التي تتعلق بحياة الناس ومعلوم أن اسماعيل الساماني مات عام ٢٩٥ هجرية.

وقد رأينا نوعاً من الملح قد تسرب إلى اسافله فذكروا لنا أنه يشكل خطراً على هذا المبنى الأثرى وانه لم يكن موجوداً إلا في العصر الحديث حيث شقت قناة غير بعيدة منه فصار الماء يتسرب من خلال الأرض إليه ويركبه هذا الملح وهم الآن يعالجون حمايته منه.

ومن الطريف في أمر هذا الضريح — إن كان في الموت طريف — ان اسماعيل الساماني قد بناه ليدفن فيه قبل موته وانه — فيما ذكروا ذبح عجباً وامر بتوزيع لحمه على عدة أماكن في بخارى ليختار أصلحها هواء ففسد اللحم في مدة معينة الا ما كان منه في هذا المكان فبنى ضريحه فيه، واوصى ان يكون مدفنه.

ومن النواقص فيه انهم لم يذكروا على الضريح تاريخاً مكتوباً لوفاة الرجل ولا أعماله ولا حتى العام الذي تم فيه البناء قال الاخوة ان الروس لا يريدون ان يذكروا البخاريين بأبجادهم الإسلامية العريقة.

بئر أيوب :

وهي بئر تحت الأرض ينزل إليها بدرج قصير ثم يدلى إليها بدلو ليؤخذ منها الماء ولأهل المدينة فيها اعتقاد عجيب واعجاب واسع حتى قال لي

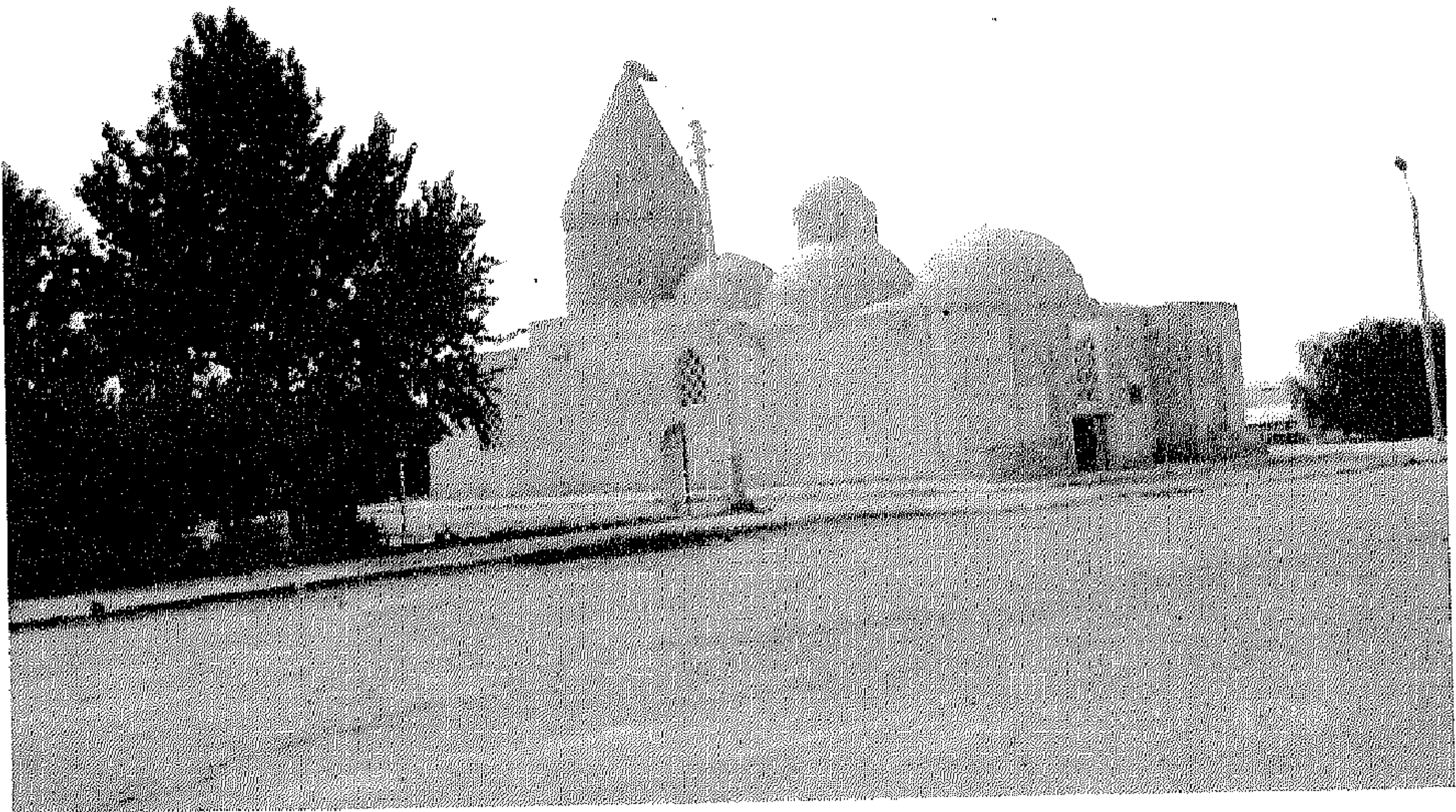
الإخوة المرافقون ان الناس هنا يعتقدون انها دواء لكل داء، وقال أحدهم :
إن ماء بئر ايوب ينفع لأي شيء يشربه الناس من أجله.

فقلت لهم: مكانهم يضاهئون بذلك ماء بئر زمزم الذي ينفع لما شرب له
كما في الأثر «ماء زمزم لما شرب له».

وعمق البئر ستة أمتار وجدنا عنده رجلاً وامرأة مكلفين به يخرجان الماء
منه ويسقيان الناس، وبعضهم يرش منه على ثيابه او بدنه.

وقد اختلفوا في (أيوب) الذي نسب هذا البئر إليه فقال بعضهم انه
النبي ايوب الصابر عليه السلام وهذا هو كلام العامة والمتعلمين وأهل
التحقيق يذكرون ان الصواب أنه طبيب اسمه ايوب كان يعالج الناس بهذا
الماء مع أدوية أخرى ولكنه كان ينسب الفعل للماء وقال آخرون انه ايوب
السختياني من أهل الحديث.

وعلى هذه البئر قبة أثرية ظاهرة وليس بقربه بناء بل هو واقع في
ميدان واسع يرى من أكثر جهاته.



المبنى على بئر أيوب من الخارج

وقد اشغلوا الساحة الصغيرة داخل هذا البئر برسوم ايضاحية واحصاءات لحالة السقيا بالمياه في مدينة بخارى في القديم فذكروا أن بعض الجهات كان يجلب الماء إليها بأنابيب من الفخار تشبه انابيب الحديد الحالية الا أنها أوسع منها وان الماء الذي يجلب بها يأتي من الوادي عندما يسيل بالسيل فيخزن في برك تحت الأرض وتستعمل طول السنة.

وأشاروا الى أن البرك والصهاريج هنا كثيرة واسعة حتى ان بعضها بلغ مبلغاً كبيراً من السعة وانه كان في مدينة بخاري وضواحيها ١١٤ حوضاً او بركة من البرك التي تخزن فيها المياه.

كما نوهوا بأن الحمامات أيضاً كانت تجلب اليها المياه من بعيد وأنه كان في بخارى ١٧ حماماً في العهود المتأخرة اما في العصور القديمة فهي اكثر من ذلك بكثير وقد أبرزوا أهمية المياه في هذه البلاد التي تعتبر صحراوية لولا وجود نهر جيحون وأنهار او ينابيع صغيرة للمياه تتكون من ذوب الثلوج فصوروا قافلة من الإبل كانت تحمل المياه وتجلبها إلى الأماكن التي لا تصل إليها مياه النهر إذا قل الماء في البرك والصهاريج.

وقد التقطت صوراً لها.



وسائل إيضاح جلب الماء في القديم في مبنى بئر أيوب في بخارى

وعلى ذكر الإبل اقول: ان ابلهم هي من ذوات السنام الواحد مثل
الابل عندنا إلا أن شكلها يشبه اشكال الابل ذات السنامين التي رأيتها في
الصين وفي تركستان الشرقية وذكرت ذلك في كتابي (داخل أسوار الصين)
(وفي مهد الترك).

فهى أكثر اوباراً من ايلنا واقصر قوائم بمعنى أنها اقل ارتفاعاً على
الأرض وهذا أمر علته في ذهني بشدة البرودة في الشتاء.

وحتى القرب — جمع قربة — وهي التي ينقل بها الماء هي تشبه القرب
التي كانت معروفة عندنا.

وكذلك وجدناهم عرضوا جراراً فخارية كبيرة كانوا يضعون فيها الماء،
ويدفنونها تحت الأرض في الصيف ليبرد فيها الماء، وذكرت هنا ما رأيته
في تركستان الشرقية المعروفة الآن بسنكيانغ وكونهم يحفظون الفاكهة كالبطيخ
ونحوه تحت الأرض فيبقى الى الموسم الآخر بدون ان يفسد.

وقد تذوقت ماء البئر فوجدته غير خالص العذوبة وقالت المرأة التي
تجذب الماء في البئر تمن أية أمنية لك عند ماتريد شرب الماء وسوف
تتحقق.

وكاد بعض الرفقة يمزح معها لولا ان الموضع لايسمح بالمزح فيقول:
أتمنى ان اتزوجك ليرى أثر ذلك عليها.

وقبل الإتهاء من حديث الماء ينبغي ان ننوه ان نهر (زرفشان) كان
يصل إلى بخارى في القديم ولكنه انقطع الآن قالوا: أهل سمرقند قطعوه.

ولاشك ان هذا ليس بالدقيق — فقد شاهدت مياهه ضحلة في
سمرقند وإنما كان سبب انقطاعه كثرة استنزافه في الزراعة قبل ان يصل
إلى بخارى.

وقد شقوا الآن قناة كبيرة من نهر جيحون (اموداريا) إلى منطقة بخارى من مسافة تبلغ ١٢٠ كيلو متراً.

وبعد ذلك تجولنا في حديقة واسعة كلها أشجار ظليلة كأنما البلدة على نهر من الأنهار ثم مررنا بالفندق والتقطنا صوراً تذكارية مع المرافقين عند بابه وأذكر أنني عندما مانزلت من المصعد نزلت معى امرأتان من العاملات في الفندق فشارت احدهما إلى غترتي وهى البيضاء على رأسي وقالت: هذه لباس المرأة (خاتون) عندنا فلم تلبسها؟ تقول ذلك كالمنكرة للبسها على الرجال.

وقد أفهمها احدالرفاق أن النساء لايلبسها في بلادنا وإنما يلبسها الرجال خلاف ما هو هنا.

ضواحي بخارى :

كتب طلبت من الاخوة واضعي البرنامج ان أرى ريف بخارى وضاحية من ضواحيها من أجل الاطلاع عليها كما اطلعت أمس على ريف خوارزم حيث سافرنا من اوركنج إلى خيوة التاريخية ثم انتقلنا بعد ذلك إلى جمهورية تركمانستان وقد ذكرت ذلك في كتاب «يوميات في آسيا الوسطى».

استجاب القوم لرغبتنا وذكروا ان ذلك سيكون خلال زيارة للمنطقة التي فيها مسجد بهاء الدين النقشبندی.

تركنا وسط مدينة بخارى الجيد إلى ضواحيها التي ليس في جوانب شوارعها أرصفة وإنما هي مساحات صغيرة استغلوها للزراعة وخاصة في غرس البفاكهة فترى أشجار العنب والتوت والمشمش مثمرة في المنطقة التي يكون فيها رصيف في العادة اي فيما بين البيوت وبين الشارع.

وبعضهم زرعوها بالخضروات كخضروات البطيخ وذلك اغتناماً منهم

للأرض لأن الحكومة الشيوعية لا تعطي من الأرض للناس الا مقادير ضيقة،
واما الباقي فإنه لها.

إضافة إلى قلة ذات اليد مما جعل سكان البيوت يستفيدون من زراعة
تلك الأماكن الواقعة أمام بيوتهم.

وهذا أيضاً ما كنت رأيته في خوارزم بصفة تكاد تكون عامة لجميع
بلدانها واما في ضواحي مدينة طشقند فإنه موجود في بعض الأماكن من
ضواحيها وأمام البيوت السكنية في أريافها القريبة.

والشوارع التي مررنا بها في ضواحي بخارى جيدة يتألف الطريق
الرئيسي الذي سلكناه من مسار للذهاب وآخر للآيب بينهما جزيرة فيها
حشائش غير معتنى بها. وانما فيها شجر من أشجار الظل.



الطريق في ريف بخارى

والظل مطلوب لأنها حارة في الصيف بل شديدة الحرارة واطن الحرارة
هذا اليوم لا تقل في الظهر عن ٤٠ درجة مع انه ليس أحر أيام الفصل واننا

لأنزال في اول فصل الصيف ولذلك رأينا الأطفال في الشوارع بالسروال القصير وحده من اجل شدة الحر.

والسيارات التي تسير في هذا الطريق قليلة واكثرها سيارات نقل.

قصر العارفين :

وصلنا منطقة تسمى (قصرى عارفان) اي قصر العارفين وكانت تسمى قبل ذلك (قصر هندوان) فغير اسمها بسبب وجود قبر الشيخ بهاء النقشبندی فيها. ويسمونه النقشبندی البخاري ومعنى النقشبندی: صانع النقش او النقاش، لأن بند عمل ونقش هي كلمة النقش بالعربية قيل سمي بذلك لأنه كان ينقش الأقمشة ولكن بعد أن اشتهر صلاحه وعرف بتصوفه ذكروا انه ينقش القلوب بالمعرفة التي هي عند الصوفية معرفة الانسان بربه ومحبه له ويراد من ذلك ترك العوائق الدنيوية والانقطاع إلى الله تعالى.

وقفنا عند باب المنطقة التي فيها مسجد النقشبندی التي تسمى (قصر عارفان) اي قصر العارفين بالفارسية لأن بخارى كانت ولا تزال ميدانا للغة الفارسية فهي الآن احدى اللغات الرئيسية التي يتكلم بها أهل بخارى بخلاف بقية آسيا الوسطى التي تتكلم لهجات متفرعة من اللغة التركية القديمة أما أهل تاجيكستان فيتكلمون الفارسية لغة وحيدة لهم.

وجدنا في المكان الشيخ عبد الغفور بن عبدالرزاق امام جامع النقشبندی وهو متخرج من مدرسة (مير عرب) في بخارى ومثقف ثقافة دينية واسعة ويعرف العربية جيداً.

ووجدنا المسجد أشبه بالمركز ويسمون ذلك كله خانقاه والمسجد وحده (خانقاه مسجد) والخانقاه أشبه بالوحدة السكنية ففيه ٤٠ غرفة مخصصة لسكن طلبة العلم واعاشتهم لكي يتفرغوا للطلب. وكان الامراء والأثرياء ينشئون هذه الخانقات ويوقفون عليها الأوقاف التي تدر عليها الريع الذي يكفي لعمارته وكفاية المقيمين بها من طلبة العلم.

وكان الشيوعيون قد صادروه حيث خرب المسجد او كاد وبخاصة قبته التي تبدو من الداخل عالية جداً محكمة في عقود من الفخار كلما ارتفعت ضاقت يشد بعضها بعضاً من دون أي شيء آخر من حديد او غيره كما كان ذلك طراز البناء عندهم في العهد الإسلامي الزاهر. وقد تأثرت من زلزال أصاب المنطقة فهم يرمونها الآن.

وجدنا في المنطقة جماعة كثيرة من الرجال والنساء أغلبهم من كبار السن جاؤا لزيارة النقشبندي.

وبعضهم كنا رأيناهم أمس في مسجد في مدينة خيوه وكنت خطبت فيهم فعرفوني وعرفتهم.

ذكروا ان بناء المسجد والخانقاه في عهد الأمير عبدالله الشيباني.

وبجانبه منارة المسجد وهي منفصلة عنه على عادتهم في بناء مآذن المساجد منفصلة عنها وهي جميلة على الطراز الذي عليه (منارة كالان) بجانب الجامع الكبير في بخارى ولم تتأثر من الزلزال.

قبر النقشبندي :

ليس في الجامع ولا الخانقاه قبر وإنما قبر النقشبندي في مكان منفصل عنه تفصله مسافة ليست قليلة وان كانت تضم الجميع منطقة واحدة الا انها عدة أماكن من ابنية مكشوفة فيها الأشجار الباسقة وفيها عدة أشياء مهمة مثل بركة للماء ومكان لماء الشرب وصحون مفروشة بالرخام من الحجارة المهذبة أو من الآجر المرصوف بعناية واحكام.

وفيه أيضاً القبر ليس عليه بناء وإنما يرتفع عن الأرض بحوالي المتر أو نحوه وهو منفصل عن جميع الأشياء الموجودة في المنطقة وقد اخبرونا انه كان عليه بناء ولكنه هدم كله ولم يبق منه الا حوالي المتر والربع وقد قيل لنا ان هناك فكرة لاعادة البناء على القبر فأشرت على الشيخ عبدالغفور أن يقاوم

ذلك والا يتحمل امام الله وزر هذه البدعة المنهى عنها وهى البناء على القبور فذكر انه يعرف ذلك.

وقد كتبت قرب القبر لوحة حديثة بالعربية منها: هذا قبر محمد بهاء الدين النقشبندى البخارى ولد في شهر محرم عام ٧١٨ للهجرة في قرية (قصر عارفان) نسبه إلى جعفر الصادق له مؤلفات (حياة نامه) و(دليل العاشقين) شعر بالفارسية ووفاته لسنة ٧٩١ هجرية.

وقد كتبت هذه اللوحة في عام ١٣٩٠ هـ ومما جاء فيها بخط الشيخ عبدالغفور عبدالرازق قوله: إنه لا يجوز سؤال الشيخ النقشبندى ولا غيره شيئاً من الحاجات ولا يجوز سؤال ذلك الا من الله سبحانه وتعالى وانما ينبغي زيارة القبور للعة والاعتبار وتذكر ما كان عليه العلماء والعارفون بالله تعالى للاقتداء بافعالهم بالخير مع علم توجه القلب بالدعاء او الرجاء لغير الله تعالى. وقد شكرته على ذلك الذي كتبه بعدة لغات ودعوت له بالتوفيق.



نساء بخاريات في منطقة قصر العارفين

مسجد عبدالحكيم :

في هذه المنطقة الزاخرة بالمساجد رأينا مسجداً صغيراً ولكنه فاخر البناء مرتفع السقف اسمه (مسجد عبدالحكيم قش) بني قبل ٣٠٠ سنة فيما قالوا.

وقد رأينا قطعاً قليلة من السقف منقوشة بالذهب الذي ذهب اكثره وبقي مانقش على بعض الخشب منه.

وهو يقع منفصلاً عن القبر فيما بينه وبين مسجد الخانقاه تفصل بينهما مساحة من الفراغ غير المسقوف.

ذكروا ان بانيه عبدالحكيم كان وزيراً لأمير بخارى في عهده.

مغادرة بخارى :

اسرعنا الذهاب إلى مطار بخارى لأن موعد مغادرتها إلى طشقند عاصمة جمهورية اوزبكستان قد أوف.

فوجدنا حاكم بخارى الذي كان قد استقبلنا عند الطائرة في القدوم



وفد الرابطة مع حاكم بخارى عبدالله ناصروف وهو الثالث من اليسار على يمينه المؤلف وعلى يساره المفتي الشيخ محمد صادق، عند توديعه الوفد في مطار بخاري

وهو (عبيد الله ناصروف) اي عبيد الله بن ناصر لان (اوف) في آخر الاسم تعنى (ابن) باللغة الروسية حضر للمطار لتوديعنا جزاه الله خيراً ومعه بعض الموظفين.

فانتظرنا مليا في المطار ثم حان موعد الدخول إلى الطائرة فودعنا الحاكم عند سلم الطائرة وقد منعوا الركاب كمادتهم قبل أن نركب ونجلس في الطائرة ثم أذنوا لبقية الركاب بالصعود.

وقد غادرنا بخارى إلى طشقند في الساعة السابعة عند الغروب والحديث عن الوصول إلى طشقند وما بعدها في تلك المنطقة في كتاب ((يوميات آسيا الوسطى)) والله الموفق.

(خاتمة عن بلاد ما وراء النهر^(١))

عُرِفَتْ (بخارى وما وراء النهر) في العصور الحديثة ببلاد «التركستان». وتركستان: اسم مركب من كلمتين، الأولى كلمة «ترك» وهو اسم عام لشعوب واقوام العنصر التركي الذي مهده الاصلى هو وسط آسيا منذ القدم، والثانية (ستان) وهى كلمة فارسية معناها ارض أو بلاد وهذا يكون معنى (تركستان) بلاد «الترك» ويجرى على نسقها في التركيب والمعنى (توران) وقد استعمل القدماء هذا الاسم جغرافياً ومصطلحاً سياسياً، وغلب استعمال اسم تركستان عبر عصور التاريخ بوجه خاص في الدلالة على آسيا الوسطى التي تقطنها القبائل التركية ذات المنشأ والاصل الواحد التي تجدد في هذا الاسم معنى قومياً يربطها بماضيها التاريخي والوطني الذي جمع ووحّد قبائل الترك كلها تحت راية واحدة في دولة (كوك تورك) التي اطلقت على جميع الاقوام التي تنتمي إلى عنصر واحد ولغة واحدة اسم (ترك).

هذا الاسم القومي الذي يحمل في طياته معنى الاتحاد والكيان السياسي والبعده التاريخي لجميع قبائل او شعوب تركستان كان ولا يزال مجال صراع طويل بين الصين وروسيا اللتين تحاربانه وتحظران استعماله على الوطنيين التركستانيين الذين يصرون على الالتزام والتمسك به لأنه رمز على وحدة الشعب التركستاني المسلم الذي قطعت اوصاله سياسة التفريق والتمزيق التي مارسها الروس والصينيون.

فالصين التي فيها الجزء الشرقي منها المعروف (بتركستان الشرقية) ومساحتها ٧٣٤٧٥٠ كم^٢ الغت في عام ١٨٨٤م استعمال اسم تركستان الشرقية واسمها سنكيانغ أو شنجانغ ومعناها الأرض المكتسبة الجديدة وتسميها حالياً الصين الشعبية «مقاطعة او يغور - شنجانغ الذاتية الحكم».

(١) أسهم في إعداد هذه الدراسة الاستاذ/ رحمة الله بن عناية الله (سكرتير) وفدنا إلى الاتحاد السوفيتي فله الشكر.

أما الاتحاد السوفياتي الذي فيه جزءها الغربي المعروف بتركستان الغربية ومساحتها ٤٠٠ ٣٩٩٣ كم^٢ وتمثل خمس مساحة الاتحاد السوفيتي الكلية فقد ألغى استعمال اسم تركستان عام ١٩٢٤م وقسم البلاد الى خمس جمهوريات قبلية هي :

- ١ — جمهورية اوزبكستان وعاصمتها طشقند ومساحتها ٤٤٩٦٠٠ كم^٢ وسكانها ١٧٩٧٤٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٥م وتتبعها جمهورية قره قلباقستان الذاتية الحكم وعاصمتها ناخوس.
- ٢ — جمهورية تركمانستان وعاصمتها عشق آباد ومساحتها ٤٨٨١٠٠ كم^٢ وسكانها ٣١٨٩٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٥م.
- ٣ — جمهورية تاجيكستان وعاصمتها دوشنبه ومساحتها ١٤٣٠٠٠ كم^٢ وسكانها ٤٩٩٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٥م.
- ٤ — جمهورية قازاقستان وعاصمتها الما أتا ومساحتها ٢٧٥٣٨٠٠ كم^٢ وسكانها ١٥٨٤٢٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٥م.
- ٥ — جمهورية قيرغيزستان وعاصمتها فرونزه واسمها الاصلى بش بك ومساحتها ١٩٨٥٠٠ كم^٢ وسكانها ٣٩٦٧٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٥م.

وقد اطلق العرب الفاتحون اسم «ماوراء النهر» على اراضي تركستان التي تقع شمال نهر جيحون وهو النهر الذي يعرف حالياً باسم اموداريا وكان اقليم الصغد وهو صغد بانا القديمة دُرَّة هذه الأراضي التي كانت تعد احدى جنان الدنيا الاربع في خصب و يسار وقد تنافست سمرقند وبخارى على ريادته وقيادته فامتازت الأولى بالزعامة السياسية وحظيت الثانية بالمكانة الدينية، وكانت لها الشهرة في ذلك، كيف لا؟ وهى البلاد التي انجبت إمام الحديث الشريف ابي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ) صاحب الجامع الصحيح الذي يعد اوثق الكتب واصحها بعد كتاب الله عز وجل، وغطت شهرتها على كلمة تركستان التي تفاخر

ابنائها بالانتساب إلى بخارى، فهم البخاريون وهم التركستانيون، وعرفت تركستان الغربية ببلاد بخارى، كما عرفت تركستان الشرقية باسم بخارى الصغرى، وهكذا أصبحت معروفة أيضاً في آسيا وأوروبا.

تركستان الغربية وجغرافيتها :

تركستان الغربية بلاد شبه صحراوية تغطي معظم أنحائها سهول رملية يمتاز مناخها بقلّة المطر حيث يقل سقوطه عن ١٠ درجات في المتوسط والصيف شديد الحرارة والشتاء شديد البرودة وتهب عليها الرياح الشمالية الباردة والعواصف الثلجية وتعتمد في الحصول على المياه من ذوبان الثلوج على الجبال الواقعة على حافتها الشرقية.

ويجري نهر أمواداريا وسرداريا من الجبال إلى وادين خصبين تفصل بينهما جبال آلاي ثم يعبران صحراء قيزيل وهما في طريقهما إلى بحر أرال ويتميز سطح بلاد بخارى بالآتي:

(أ) الصحارى وأهمها هي صحراء بتباك دالا بين نهر سارى سو وبحيرة بلخاش ومساحتها ١٨٠.٠٠٠ كم^٢ وصحراء قراقوم ومساحتها ٣٥٠.٠٠٠ كم^٢ وصحراء قيزيل قوم ومساحتها ٣٠.٠٠٠ كم^٢ وصحراء مرزا جول ومساحتها ١٠.٠٠٠ كم^٢.

(ب) الجبال وأهمها سلسلة الجبال التي تمتد على حدود تركستان الغربية وهي:

جبال موغوز جارى في الشمال والتاي في الشرق وآلاي وبامير وكويت داغ في الجنوب والشرق وكذلك جبال تنفرى قاغ (تيان شان) وفيها أعلى قمتين يصل ارتفاعهما إلى ٧٤٩٥ متراً و٧١٣٤ متراً.

(ج) البحيرات : وتوجد أكثر من ٢٥٠.٠٠٠ بحيرة ولكن أهمها هو: بحر قزوين ومساحته ٤٠٦.٧٠٠ كم^٢ وبحيرة ارال ومساحتها ٦٦.٤٥٨ كم^٢ وبحيرة ملخاش ومساحتها ١٧.٦٦٠ كم^٢ وايسبق كول ومساحتها ٨٩٥ كم^٢.

(د) الوديان: تشتهر تركستان الغربية بالوديان ويوجد فيها أكثر من ٣٠ وادياً هاماً وأكثرها شهرة: وادي فرغانة الذي مساحته ٨٠,٠٠٠ كم^٢ ويرتفع عن مستوى سطح البحر بمعدل ٩٠٠ متر وينتج ثلث قطن الاتحاد السوفيتي و٣٥٪ من الحرير فيه وهو بمثابة الحديقة المركزية لتركستان.

(هـ) الأنهار: فيها عدد من الأنهار والوديان كبيرة ولكن ثمانية منها يزيد طول كل منها عن ألف كيلومتر وهي نهر اورال ١٠٦١ كم ونهر توبول ١٢٠٠ كم ونهر يشيم ٢٢٠٠ كم وايرتيش ١٨٠٠ كم ونهر جو ١٠٣٠ كم ونهر ايلى ١٢٨٠ كم ونهر سرداريا ٢٥٢٩ كم وهو نهر سيحون ونهر اموداريا ٢٤٨٠ كم وهو نهر جيحون.

تركستان الغربية وثراؤها :

عرفت بلاد تركستان الغربية منذ القدم بثرواتها المعدنية والصناعية والزراعية والحيوانية، فمثلاً غزو الصين لبلاد فرغانة عام ١٠١ ق.م كان طمعاً في الحصول على خيولها الجياد التي عرفت لديهم بالخيول السماوية وتذكر كتب الجغرافيا العربية من غلاتها اللازورد والياقوت والفيروز والذهب والفضة والحديد والنحاس والنفط والنوشادر، والفراء بأنواعها واجودها مثل فراء السمور والفنك وابن عرس والثعالب وجلود الارانب والسناجب.

أما حاصلات اقليم بخارى وما وراء النهر فكانت عديدة ومتنوعة حيث يصدر منها البسط والثياب الرخوة والفرش التي كانت تفرش في حجرات الضيوف.

وأكثر ما اشتهرت به سمرقند الكاغد ويعمل فيها ثياب خز وديباج وقز مطرزة بخيوط من الذهب والفضة وتعرف بالاطلس السمرقندى واقشة ممرجل.

وكان الصنفارون يصنعون القدور العظيمة من النحاس وغيرهم يعملون

الرحال والسيور واحزمة السرج وكذلك اصناف القماقم والقنانى وغير ذلك من الغلات الارضية والامتعة المصنعة التي تعكس غناء وثراء تركستان الغربية.

ولا تزال تركستان الغربية تحتل موقعا مهما في اقتصاديات الاتحاد السوفياتي.

وتؤلف الركن الاساسي في صناعات الحديد والصلب والمعادن والفحم والغاز الطبيعي والبترول وبالاخص في صناعة الاجهزة الالكترونية والطائرات المتطورة وبعض انواع الاسلحة الحديثة، كما تزدهر فيها صناعات النسيج والأغذية والمواد الاستهلاكية.

وعلى العموم فان تركستان الغربية تعتبر السلة الغذائية والاقتصادية في الاتحاد السوفيتي مما يجعلها تحتل المرتبة الثانية في مراتب الدول الصناعية في آسيا وهذا لايعني ان الشعب التركستاني اصبح شعباً صناعياً اذ ان نسبة العمال الفنيين والصناعيين من التركستانيين هي نسبة قليلة، فالسكان المحليون لا يزالون يمارسون الزراعة وتربية المواشى في الدرجة الأولى وانما يقوم بجزء كبير من ذلك العمال المهجرون من روسيا واكرانيا.

ويقدر انتاج الفحم الذي يوجد في ٥٠ موقعاً بحوالي ٤٥% من انتاج الاتحاد السوفيتي وقد وصل إنتاجه في قازقستان وحدها ١١٨,٥ مليون طن عام ١٩٨٢م كما يوجد النفط في ٨٠ حقلاً واهمها حقول امبا — اورال التي تسمى باكو الثانية لغزارة الانتاج وحقول نفط داغ وانديجان وآق توبا ومانسفى شيلاق ويقول السوفيت أن مخزون النفط في ما نقى شيلاق يعادل مساحة فنزويلا.

كما يعتقد الخبراء بأن حقول النفط في منطقة نفط داغ هي من أكبر حقول النفط في العالم وقد بلغ انتاج الزيت الخام ١٩,٣ مليون طن في قازاقستان وحدها عام ١٩٨٢ وغاز تركستان الغربية يقدر بنصف مخزون غاز

الاتحاد السوفيتي وينتج حقل غازي قرب مدينة بخارى حوالي ١٢ر٨ ٪ من غاز الاتحاد السوفيتي سنوياً ويستخرج خام الحديد من ٩٠٠ منجم ويصل مخزون خام الحديد والمانجنيز إلى ٨٢ ٪ من كامل مخزونها في الاتحاد السوفيتي.

وتعتبر منطقة قاغاندا في قازاقستان من اهم مناطق انتاج الحديد والصلب في الاتحاد السوفيتي اذ تصل طاقة انتاج كل منها إلى حوالي ٥ر٤ مليون طن. وبالإضافة إلى ذلك يوجد النحاس والرصاص والزنك واليورانيوم والنيكل وغير ذلك من المعادن التي لايتسع المجال لسرد انتاجها ومناطقها في هذه العجالة.

أما الانتاج الزراعي فانه ليس اقل شأنًا من المعادن، اذ بلغت مساحة الاراضي الزراعية ٢٦٥ مليون هكتار عام ١٩٧٧، يستخدم ٤٢ر٢٠١ر٠٠٠ هكتار لزراعة الحبوب التي بلغ في قازاقستان محصولها ٣٤ مليون طن عام ١٩٨٢م، كما وصل محصول القطن إلى ٩٣ مليون طن في اوزبكستان عام ١٩٨٢م بما يقدر بحوالي ٩٥ ٪ من قطن الاتحاد السوفيتي كما تنتج كامل محصول الاتحاد السوفيتي من الحرير.

وتقدر الثروة الحيوانية بحوالي ١٦ر٧٨٩ر٥٠٠ ماشية و ٦٢ر٨١ر٠٠٠ غنم عام ١٩٨٣م وتبلغ مساحة المراعي التي تملكها مزارع الدولة بحوالي ٢٢٦ر٣ مليون هكتار والتي تملكها المزارع التعاونية بحوالي ٣٩ر٢ مليون هكتار.

تركستان في الإسلام :

لقد كانت معركة «نهاندا» التي عرفت بفتح الفتوح بعد انتصار العرب المسلمين عام ٢١هـ بحق نصرا للإسلام اذ تقدم جنده يحملون راية التوحيد نحو الشرق وهم يتعقبون يزدجرد آخر الاكاسرة الساسانيين الذي التجأ إلى مدينة «مرو» حاضرة اقليم خراسان وسار إليه الاحنف بن قيس وفتحها عام ٢٢هـ ثم فريزد جرد إلى «بلخ» حيث استنجد بملوك الصين

والترك والصغد وجاءته الجموع الكثيرة وحلم باستعادة ملكه ولكن النصر كان حليف المسلمين اذ سقطت مدينة بلخ بيدهم عام ٢٢هـ وهكذا حكم العرب في خراسان واتخذها المسلمون قاعدة لغزواتهم لفتح بلاد ماوراء النهر واستهل ذلك الاحنف بن قيس بفتح طخارستان.

ثم عبر عبید الله بن زياد نهر جيحون وفتح بيكند وحاصر بخارى فصالحه اهلها عام ٥٤هـ ولكن ملكتها دنشاد خاتون نقضت الصلح فصار إليها والي خراسان سعيد بن عثمان بن عفان فاغار على بخارى وانتصر عليهم كما اغار على سمرقند ويقال ان قثم بن العباس بن عبدالمطلب قد استشهد في سمرقند عام ٥٥هـ وهو ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وله فيها ضريح يسمى (شاه زنده) اي السلطان الحي كما تقدم.

والواقع ان الحكم الإسلامي لم يستتب في ماوراء النهر الاعلى يدي قتيبة بن مسلم الباهلي حيث اسلم على يده ملك بخارى وبنى اول مسجد في بخارى عام ٩٤هـ وكانت بلاد ماوراء النهر اقليماً يرتبط ادارياً بوالي خراسان الذي كان يتبع والي المشرق في العراق في عهد الخلافة الاموية، ثم صارت ادارته ترتبط بالخلافة العباسية ولكن في أواخر عهدها استقل طاهر بن الحسين احد قواد المأمون من التاجيك بحكم خراسان عام ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م ثم اسس احمد بن اسد بن سامان الدولة السامانية في بلاد ماوراء النهر عام ٢٦١هـ/ ٨٧٤م وهذه الدولة التي تعد اول دولة اسلامية محلية في تركستان اهتمت بالعلم والثقافة وغدت مدنها مراكز علم وعرفان في عهدها الذي استمر إلى عام ٩٩٩م.

وقد ادى دخول الاسلام بفكره الحى وانتشار اللغة العربية وآدابها في تركستان إلى إحداث تغييرات جذرية في المجتمع التركستاني وإلى إحداث تطور اجتماعي وفكري ساعد في تكوين ثقافة اسلامية رائعة ساهمت في ايجاد حضارة انسانية متميزة لايزال المؤلفون على مر العصور يمجدون روادها الذين في مقدمتهم على سبيل المثال لا الحصر الامام ابو عبد الله محمد بن

اسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح في الاحديث والشيخ عبدالقاهر الجرجاني وصاحب الكشف جوار الله الزمخشري وصاحب مفتاح العلوم يوسف السكاكي والعلامة سعد الدين التفتازاني والمعلم الثاني ابونصر الفارابي والرئيس ابن سينا وخالد بن عبد الملك المتخصص الكبير في مرصد الخليفة العباسي المأمون وبنو موسى بن شاكر الخوارزمي اشهر رياضي العهد العباسي وابوالريحان البيروني.

والواقع ان تركستان التي اعزها الله بالاسلام جاهد ابناؤها على نشره شرقا وغرباً فقد حمله السلطان محمود الغزنوي والامير محمد ظهير الدين بابر إلى الهند وحمله الاويغور إلى الصين والسلاجقة إلى أوروبا ولعب رجالها أدواراً سياسية وعلمية هامة في حياة دول الإسلام في مختلف بقاع العالم.

وفي القرن العاشر الميلادي ظهرت دولتا قره خان وهي أول دولة تركية اسلامية في تاريخ تركستان فيما بين ٩٣٢ — ١١٦٥ م والغزنوية ٩٦٢ — ١١٨٦ م التي عرفت بفتوحاتها الاسلامية في الهند ثم مالبت ان تظهر السلاجقة (١٠٣٨ — ١١٥٧ م) وهم من قبائل الغز التركية على مسرح الاحداث وبلغوا اوج مجدهم في عهد السلطان ملك شاه بن الب ارسلان.

ولكن ملكهم تمزق بعد ذلك ونشأت في تركستان دولة خوارزمشاه في غربها (١١٩٣ — ١٢٢١ م) ودولة قره خيتاي في شرقها (٩٠٧ — ١٢١٣ م) ثم ظهر في مسرح التاريخ المغول بقيادة جنكيز خان واكتسح دولتي الاويغور وقره خيتاي عام ١٢١٠ م وهزموا خوارزمشاه عام ١٢٢١ م واستولوا على تركستان كلها وتوجهوا بغزواتهم نحو الشرق والغرب واسس جنكيز خان بالرعب مملكة واسعة لم تدم له ولكنه قسمها بين ابنائه الاربعة، وكانت تركستان من نصيب ابنه جغتاي خان.

ونجح التركستانيون في تحويل المغول الذين حكموهم من الوثنية إلى نور الإسلام وعلموهم الكتابة والثقافة وتوطدت الوشائج والصلات بينهم بالزواج

والاندماج ونزع الامراء والزعماء المحليون الى الاستقلال وتشكيل دويلات لهم واستقل تيمور بن تورغاي الذي عرف بتيمور لنك و ينتسب إلى قبيلة برلاس ويعمل مستشارا للأمير الياس خوجه ادغلان بحكم سمرقند عام ١٣٦٩م ثم توجه بغزواته نحو سوريا وبلاد الا تراك الآن وروسيا والهند ولكنه مات وهو في طريقه لفتح الصين عام ١٤٠٤م.

وبعده تداعيت مملكته وانقسمت إلى دويلات صغيرة متناحرة أدى صراعها وتنافس امرائها على سدة الحكم إلى تمزيق كيان تركستان وتفتيت وحدة شعبها حيث ظهرت خانية القازاق في شمال تركستان عام ١٤٦٥م ثم تحطمت إلى ثلاث دويلات صغيرة متنافرة ثم خانية الاوزبك عام ١٥٠٥م ولكن مالبت ان تجزأت ايضاً إلى خانية خيوة عام ١٥١١م وخانية بخارى عام ١٥٩٩م وخانية خوقند عام ١٧٠٠م.

الاحتلال الروسي لتركستان الغربية :

ان تمزق دولة تيمورلنك وعجز خلفائه عن حفظ كيانهم ووحدة بلادهم ادى الى نزاعات قبلية وصراعات طائفية وتنافس الامراء والرؤساء والزعماء على الحكم والامارة وعدم تورعهم عن الاستعانة بالاعداء على محاربة بعضهم بعضاً مما اتاح للقيصرة الروس استغلال ذلك في تحقيق توسعهم الاستعماري ببث الدسائس والمكايد فوقت خانيات القازاق الثلاث واحدة تلوى اخرى في ايدي الروس عام ١٨٥٢م والخانية مملكة صغيرة يلقب حاكمها بلقب (خان) بمعنى ذلك.

وبدل ان تهتم خانيات خيوة وبخارى وخوقند بهذا الخطر الروسي القادم الذي بات يهدد وجودهم اشتغل امراؤها بالحروب فيما بينهم واستعانوا بروسيا على بنى جنسهم في معاركهم الداخلية التي بدأت عام ١٨٥٣م مما جعل الروس يبررون احتلالهم بعقد الحماية الروسية على خانيتي خيوة وبخارى عام ١١٨٣م.

ثم استولى الروس على خانية خوقند والحقوها بروسيا عام ١٨٧٦م واستمر التركمان في مقاومة الغزو الروسي الى ان وقعت روسيا وايران اتفاقية بينهما تجعل نهر اترك حداً فاصلاً بينهما في ٩/١٢/١٨٨١م.

ثم اكمل الروس احتلالهم تركستان الغربية بالمعاهدة التي ابرموها مع بريطانيا وهي معاهدة بامير التي رسمت حدودها في عقدة بامير وافغانستان والاعتراف بمصالح كل منهما في الجانب الذي يحتله من البلاد وذلك في ٢٧ اغسطس ١٨٩٥م.

وبعد ان انتهت روسيا القيصرية من عمليات الغزو العسكري لخانيات تركستان الغربية وقضت على القوات الوطنية احكمت سلطتها الاستعمارية من خلال الادارات التالية:

اولاً : ولاية السهوب العامة التي شكلت في أراضي خانيات القازاق في شمال تركستان الغربية في ٢٥ مايو ١٨٩١م وقد اشتمل نظام هذه الولاية عل ١٦٨ مادة تمكنت روسيا بموجبها من الغاء حكم جميع الامراء والحكام المحليين القدماء.

ثانياً : ولاية تركستان العامة ضمت جنوب وشرق تركستان الغربية فيما عدا محميتي خيوة وبخارى وجرى تنظيم امور هذه الولاية بالقانون الصادر في ٢ يونيو ١٨٨٦م الذي يحتوى على ٣٣١ مادة تبرمج سياسة الحكم الروسي في تركيز سيطرته وتحكمه في جميع مصالح الشعب المسلم وتصرفاته تحت ادارته المباشرة وانهاء جميع اشكال الادارات السابقة.

ثالثاً : محمية إمارة بخارى :

وبعد حروب غير متكافئة لصد الغزو الروسي اضطرت إمارة بخارى إلى توقيع اتفاقية قبول الحماية الروسية في ٢٨ سبتمبر ١٨٧٣م وحصلت روسيا بموجبها على حق الاشراف على سياستها الخارجية وعلى حرية التجارة فيها وانشاء مكتب سياسي لمراقبة النشاط

السياسي والإقتصادي في الإمارة وكان الممثل الروسي المقيم يتصرف في جميع شئون الإمارة بدون استثناء حتى إنه يملك حق اعدام المواطنين المحليين اذا تعرضت مصالح روسيا للخطر. وقد الغى الجيش الاحمر إمارة بخارى بالاستيلاء عليها في ٢٥/٣/١٩١٨م..

رابعاً : محمية خانية خيوة :

بدأت حركات روسيا القيصرية للاستيلاء على خانية خيوة عام ١٧١٧م ويقال ان القيصر الروسي بئرو الأول قد اوصى قبيل وفاته (بمعاقبة خانية خيوة) لشدة مقاومتها الغزو الروسي وما كبدتهم من خسائر بشرية ومادية. بيد ان الضعف الذي اصابها من كثرة الحروب بسبب الفتن الداخلية والمعارك التي دارت بينها وبين الامارات المجاورة هز كيائها العسكري واضعف قوتها فاضطرت ايضاً إلى توقيع اتفاقية خضوع لحماية روسيا بعد ان نجحت القوات الروسية في الاستيلاء على معظم ممتلكات الخانية في ١٢ اغسطس ١٨٧٣م.

وقد تحدد نفوذ وسلطات الخان مع تزايد الوجود العسكري الروسي والاداري وكانت شعبة اموادريا وهو نهر جيحون التابعة لوالي تركستان العام تشرف على كل قرار يتخذه الخان محمد رحيم ملك خانية خيوة الذي توفي في ١٦ اغسطس ١٩١٠م وعلى خلفه اسفنديار خان الذي خلعه الجيش الاحمر واستولى على خانية خيوة تماماً في ٢٥ يناير ١٩٢٠م.

السيطرة الشيوعية :

إبان الثورة الشيوعية التي اندلعت ضد الحكم القيصري في روسيا في عام ١٩١٧م كانت في تركستان الغربية ثلاث تيارات سياسية رئيسية هي:

١ - الجبهة الروسية الديمقراطية التي لم يكن لها أثر يذكر في تقرير مستقبل

تركستان الغربية.

٢ — حركة تحرير تركستان القومية التي تزعمها المثقفون التركستانيون بهدف تحقيق استغلال تركستان الغربية تماماً.

٣ — الحركة البلشفية التي كانت تعمل للاحتفاظ بتركستان الغربية داخل التركيب الموجود للاتحاد السوفيتي.

واشتعلت ثورة التركستانيين الوطنية في عام ١٩١٦م واستطاع الثوار تأسيس حكومة تركستان المستقلة في طشقند في اوائل عام ١٩١٧م بيد ان الحركة البلشفية التي تزعمها العمال الروس دفعت بالجيش الاحمر الى احتلال طشقند في ١٥ نوفمبر ١٩١٧م وهو نفس التاريخ الذي وقع فيه لينين وستالين على بينهما الشهير المتضمن اعطاء المسلمين من شعوب الديمقراطية القيصريّة، حق تقرير المصير وحق الانفصال التام عن الاتحاد السوفيتي ولكن الجيش الأحمر كان يتصرف تصرفاً مطلقاً في تقوية سيطرته على البلاد الاسلامية بامر وتوجيهات القيادة الشيوعية وما كانت بيانات وتصريحات زعمائهم الا عملية تخدير وخدعة لاستغلال الفرصة لفرض الحكم الشيوعي.

وبناء على قرار المؤتمر السوفيتي السادس الذي عقد في ١٥ اكتوبر ١٩١٨م تشكلت جمهورية تركستان السوفيتية الاشتراكية الذاتية الحكم ولم تكن في الواقع تمثل حكماً ذاتياً او ادارة حرة، بل كان الزعماء السوفيت يقصدون بهذه اللعبة توجيه ضربة قاضية إلى التركستانيين الوطنيين لوأد حركتهم في فصل تركستان عن روسيا وبخاصة ان العمل الوطني قد تجدد بنشاط وكفاح ثوار (باسمه جي) بعد ان انضم إليهم الجنرال انور باشا القائد التركي الذي قدم إلى تركستان الغربية بهدف تشكيل حركة وطنية تعمل على تحرير تركستان من الحكم الشيوعي والتوسع البريطاني ونجح الوطنيون والثوار في تكوين حكومات وطنية هي:

١ — جمهورية خوقند تركستان الوطنية في ٩/١٢/١٩١٧م.

- ٢ — جمهورية الاش اورو الوطنية في ٢٦/٧/١٩١٧ م.
- ٣ — جمهورية بخارى الشعبية في ٢٥/٣/١٩١٨ م.
- ٤ — جمهورية خيوة (خوارزم) الوطنية في ٣٠/٩/١٩١٨ م.

غير ان القيادات الشيوعية كانت تراقب هذه الحركات الوطنية بمزيد من الخوف من ان تتمكن من تحقيق استقلال تركستان الغربية عن السيطرة الروسية، ولا فرق بين القياصرة الروس او الشيوعيين مادام الأمر يتعلق بفرض السلطة الأجنبية في تركستان الغربية، فاستولى الجيش الأحمر على جمهوريتي خوقند والاش اورو في اواخر عام ١٩١٨ م.

وفي موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي وقعت القيادة الروسية الشيوعية على اعتراف بالحكم الذاتي مع جمهورية بخارى الشعبية في ١٤ مارس ١٩٢١ م ومع جمهورية خيوة الوطنية في ١٣ سبتمبر ١٩٢١ م وذلك امتداداً لوضعها السياسي الذي كان قائماً في شكل محمية خانية خيوة ومحمية إمارة بخارى في العهد القيصري.

ولكن الزعامة الشيوعية لم تراع حقوق هذه الاتفاقيات والمواثيق ولم تقبل رؤية هاتين الجمهوريتين قائمتين خارج نطاق السيادة الشيوعية مباشرة فاستولى الجيش الأحمر على خيوة في ٢/٩/١٩٢٤ م وعلى بخارى في ٢٠/٩/١٩٢٤ م.

ولكن لم يتوقف كفاح التركستانيين لنيل إستقلال بلادهم وبدء عملهم بتحقيق حكم ذاتي لهم يؤدي تدريجياً إلى التحرر التام، فقدم الزعماء التركستانيون اقتراحاً إلى لينين يتضمن انشاء جمهورية تركستان السوفياتية وجعل طشقند عاصمة لها، الا ان لينين كان متردداً بادىء ذي بدء بتقديم الاقتراح إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لاتخاذ قرار بشأن ايجاد وحدة ادارية واحدة لعموم تركستان الغربية أو تقسيمها إلى وحدات ادارية صغيرة وفي ١٨/١/١٩٢٤ م، صدر قرار اللجنة الذي يتضمن الغاء جمهورية

تركستان السوفيتية الاشتراكية الذاتية الحكم وإنشاء جمهوريات اشتراكية لقبائل القازاق والأوزبك والقرغيز والتركمان والتاجيك.

ورسمت الحدود بينها بشكل واضح بحيث وجدت جماعات من الأوزبك في جمهوريتي تاجيكستان وقرغزستان وجماعات من التاجيك في أوزبكستان وتركمانستان، كما جُزئت أنظمة الري الطبيعية والقرى بين الجمهوريات المختلفة بطريقة بات من المستحيل إدارتها إلا عن طريق سلطة تفوق سلطات هذه الجمهوريات.

ولم يكن في وسع أية دولة مستقلة استقلالاً صحيحاً أن تتسامح حتى ولو لأسباب إدارية مع هذا التداخل المعقد في أراضيها ولا سيما في منطقة وادي فرغانة وبهذا صارت السلطات الشيوعية تشجع كل قومية محلية على التفكير بعلاقاتها الدولية مع الحكم الروسي فقط، ويجري الفصل نهائياً من الناحية السياسية بين الشعوب التي تربطها إلى بعضها الكثير من الوشائج العرقية والثقافية واللغوية والتاريخية، وتعاد كتابة تاريخها بحديث يغالي في إظهار الفروق القبلية والتاريخية بينها، ويدخل التبديل والتحريف على لغاتها بحيث تبدو بعيدة عن بعضها وعن اللغة الأم. وهي التركية القديمة التي كانت قد تفرعت منها تلك اللغات.

سياسة التهجير والاستيطان الروسي :

بدأت روسيا القيصرية تمارس سياسة تهجير الروس وتوطينهم في مناطق المسلمين منذ أن وطئت أقدامهم تركستان الغربية، فقد وصل عدد المستوطنين الروس فيها ١٠٠,٩٥٠ عام ١٩١٤م وأصبح عدد المستوطنين الروس ٨٢٥,٣١٢ نسمة في عام ١٩٧٩م وأوضح مثال لسياسة التهجير والاستيطان الروسي في جمهورية قازاقستان السوفيتية التي بلغ سكانها ١٤,٦٨٤,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٧٩م يتوزعون كما يلي :

القومية	عددتها	نسبتها
القازاق	٥٢٨٩٠٠٠	%٣٦
التتار	٣١٣٠٠٠	%٢١
الاوزبك	٢٦٣٠٠٠	%١٨
الاويفور	١٤٨٠٠٠	%١
الاذاريون	٧٣٠٠٠	%٠٥
المسلمون الصينيون	٢٢٠٠٠	%٠٢
الروس	٦٨٧٢٠٠٠	%٤٢
الاوكرانيون	٨٩٨٠٠٠	%٦١
الكوريون	٩٢٠٠٠	%٠٦
نيلوروسين	٢٩٨٠٠٠	%٢٧
آخرون	٧١٤٠٠٠	%٧٧

ويظهر الجدول ان القازاق وهم سكان هذه الجمهورية الأصلاء هبطت نسبتهم إلى %٣٦ فقط بينما زادت نسبة الروس إلى %٤٢ ويمثل السكان المسلمون الاصليون العنصر الريفى بنسبة %٧٩ بينما يكون المستوطنون الأوروبيون اغلبية سكان المدن حيث تصل نسبتهم إلى %٧٠ من جملة سكانها.

وينطبق نفس الوضع على جمهورية قيرغزستان السوفيتية التي هبطت نسبة سكانها الاصليين إلى مادون %٥٠ من تعدادها العام البالغ ٥٠٠٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٧٩م.

ومع تدنى نسبة الوطنيين في كليهما فقد اصبح المهجرون الروس بحكم عددهم هم اصحاب القرار والشأن في ادارة هاتين الجمهوريتين السوفيتيتين اللتين تتمتعان بحقوق وقوانين فيدرالية تعني أنها متساويتان نظاماً مع بقية الجمهوريات التي يتكون منها الاتحاد السوفيتي كما حدث عندما اصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في قازاقستان قرارها بعزل رئيسها محمد

كوناييف القازاقي وتعيين بدلا منه غينادي كولبين الروسي بتاريخ
١٦/١٢/١٩٨٦م.

الغزو الثقافي :

لم يكن تهجير واستيطان الروس في آسيا الوسطى المسلمة ينتهي بتوليهم
مناصب ومراكز الادارة والقيادة فحسب، بل كان الهدف هو التأثير
الاجتماعي والفكري والعنصري على التركستانيين وتغيير هويتهم الاسلامية
وبدأ ذلك بالغاء الحروف العربية التي استعملها التركستانيون منذ ان
شرفهم الله عز وجل بالإسلام وفرض استعمال ابجدية لاتينية محرفة بدلاً منها
وذلك في عام ١٩٢٨م ثم الغيت تلك الابجدية اللاتينية وفرض بدلاً منها
الابجدية السلافية الروسية المعدلة بعلامات تلائم الاصوات التركية في عام
١٩٤٠م.

وبذلك نفذ السوفييت رغبة المستشرق والمنظر القيصري ف. أ.
ايلميفسكي الذي طالب بالغاء الابجدية العربية في تلك البلاد المسلمة لقطع
صلات المسلمين بتراث اجدادهم ومنع اتصالهم الثقافي والفكري مع
اخوانهم المسلمين في العالم.

وفي مارس ١٩٣٨م فرضت اللغة الروسية اجبارياً في مدارس تركستان
العربية وجعلت شرطاً اساسياً للالتحاق في مؤسسات التعليم العالي.

وفي عام ١٩٥٦م اصبحت الروسية هي اللغة الرسمية في بلاد المسلمين
ولاشك في أن تدريس الروسية اخذ يقلل من أهمية اللغات القومية
وتدريسها فثلاً في جمهورية قيرغيزستان يدرس الاطفال بلغتهم ١٢ حصة
في الصف الأول و٤ حصص في الصف الثاني فقط بينما بقية الحصص
كلها باللغة الروسية.

وإلى جانب هذا فقد تم ادخال الكلمات الروسية في اللغة الأوزبكية
بدعوى التطور والثقافة المدنية ولزوم استعمال المصطلحات العلمية والدولية

وبلغت نسبتها حوالي ١٨٪ من جملة مفردات اللغة الأوزبكية.

وفي عام ١٩٥٠م تم تحويل أسماء الاشخاص تقريباً إلى صيغتها الروسية باللواحق «اوف» و«ييف» و«فيتش» كما في بابا خانوف وسعيد فيتش وكذلك اسماء كثير من الأماكن فقد تمت تسميتها بأسماء روسية جديدة مثل عاصمة جمهورية قرغيزستان التي سميت فرونزه باسم القائد الذي احتلها مع ان اسمها الاصلى هوبش بك.

اما الادب التركستاني فقد تحولت مهمته إلى وسيلة دعائية للايديولوجية الشيوعية وبث الالحاد والترويج المستمر لفكرة فضل الشيوعيين على شعب تركستان في ايجاد ضروريات المعيشة لهم والاعراب لهم عن الشكر والعرفان بالجميل.

وقد هوجمت مؤلفات عدد كبير من الكتاب والشعراء التركستانيين بسبب افكارها الإسلامية والقومية، وكانت جهود السوفيت في التأثير على الحياة العقلية تستهدف في الدرجة الأولى التقاليد القومية التركستانية لاصرارها على ان العادات الاجتماعية يجب ان تنطوى على معنى اشتراكي شيوعي. وقد هوجم الشاعر التركماني قربان نساخانوف على قصيدته «انك تركماني» لأنه اغمض عينيه عن «الحقيقة التاريخية» وهي ان ضم تركستان إلى روسيا هو الذي انقذ الشعب التركماني من العبودية والخراب وان الفضل يعود إلى الثورة الشيوعية لما حققته من الانجازات على حد زعمهم.

كما ادى تزايد الزواج المختلط بين المسلمين وغيرهم إلى إضعاف الروح الإسلامية وحسب احصاء اكااديمية علوم قازاقستان فان نسبة الزواج المختلط بلغت ٢٠٪ من مجموع عدد الزواج المسجل البالغ ٣٩٠٠٠٠٠ عقدا في عام ١٩٨٦م ويسجل الاولاد الذين ينتجون عن هذا الزواج المختلط بين المسلمين او المسلمات وبين الروسيات والروس في القومية الروسية.

النظام السياسي في جمهوريات تركستان الغربية :

مر التنظيم السياسي في جمهوريات تركستان الغربية بمراحل متعددة ومتباينة حسب التغيرات السياسية التي حدثت في الاتحاد السوفيتي.

فقد حول النظام الذاتي إلى اتحاد فيدرالي له نظام مميز في تشديد الرقابة والسيطرة على الجمهوريات السوفيتية كما حدث فيما بين عامي ١٩٢٥م — ١٩٤٥م ثم تناقصت السيطرة المركزية مع توسيع حدود السلطات المحلية في جمهوريات السوفييت خلال أعوام ١٩٥٥م — ١٩٦٢م.

وفي عام ١٩٦٣م بدأت مرحلة ثانية عادت فيها الجمهوريات إلى حظيرة السيطرة المركزية المتشددة. وهو عهد الرئيس برجنيف وخلفه وقد امتدت هذه الفترة طويلاً وتدخلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي في اقالة وتعيينات رؤساء الجمهوريات والحكومات مثلما حدث بشرف رشيدوف — رئيس الحزب الشيوعي في اوزبكستان وعضو المكتب السياسي المركزي الذي اغتيل ٣٠ أكتوبر ١٩٨٢م وكذلك محمد كونايف رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في قازاقستان الذي اقبل من منصبه وعين بدلا منه غينادي كولبين الروسي بتاريخ ١٦/١٢/١٩٨٦م كما سبق وكانت جميع التعيينات والترشيحات القيادية والادارية لا تتم الا في موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي.

والمجالس السوفيتية العليا في الجمهوريات وهي اعلى اجهزة الحكم فيها ليس لها وظيفة إلا تنفيذ القوانين التي يصدق عليها مجلس السوفييت الاعلى للاتحاد السوفيتي فثلاً النظام القضائي الذي يطبق في جمهوريات تركستان الغربية هو واحد في جميع ارجاء الاتحاد السوفيتي والمحكمة السوفيتية العليا في موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي هي صاحبة السلطة في اعادة النظر في اي أحكام تصدر عن محاكم الجمهوريات القومية.

وأما سلطة تطبيق القانون وتنفيذ احكامه فمسندة إلى النيابة العامة بصفتها جهازاً مركزياً للاتحاد السوفيتي وجاء في المادة ١١٦ من دستور جمهورية اوزبكستان السوفيتية ومثلها في بقية جمهوريات تركستان الغربية ان: تؤدي فروع النيابة العامة في الاتحاد السوفيتي وظائفها مستقلة عن سائر اجهزة الحكومات المحلية وبذلك تخضع فروع النيابة العامة لسيطرة السلطة المركزية في موسكو مباشرة وحتى يتم ذلك فإن وكلاء النيابة المحليين يتم تعيينهم عن طريقها ويسألون أمامها مباشرة، ويترتب على هذا الوضع ان السلطات التشريعية في الجمهوريات القومية (المستقلة) لا سلطات لها على اجهزة النيابة العامة في بلادها على الاطلاق ولا حتى من الناحية الادارية.

أما النظام الفيدرالي لاتحاد جمهوريات السوفيت فإن حقيقته وحدة مركزية صارمة، فالقوميات الكبيرة التي تؤلف جمهوريات مستقلة متكافئة والقوميات الصغيرة تؤلف جمهوريات أو مناطق ذاتية الحكم أو تتمتع باستقلال داخلي ضمن جمهوريات مستقلة وتقوم سيادة الجمهوريات اساساً على عدد من الافتراضات الشكلية المجردة. فالتعبير الرفع لسيادة جمهوريات مستقلة يتلخص في حقها بأن تنفصل بحرية عن الاتحاد السوفيتي، كما جاء في المادة (١٥) من دستور جمهورية اوزبكستان السوفيتية، ولكن لم يوضح القانون الاجراءات الدستورية التي يمكن عن طريقها تحقيق انفصالها عن الاتحاد السوفيتي اذا شئت، وهذا مالا تقربه المصادر السوفيتية ايضاً.

ويجعل من المستبعد ان يكون هناك اي احتمال في ان تطلب جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفيتي الانفصال بواسطة اجهزتها السوفيتية الرسمية التي يشرف الشيوعيون. على تكوينها مما يجعل هذا الحق من الناحية العملية وكأنه لا وجود له، وحتى ولو وجد احتمال طلب الانفصال فان المادة (١٤٦) من دستور الاتحاد السوفيتي تعارض هذا الحق، اذ تنص المادة على انه يجب موافقة ثلثي اعضاء المجلس السوفيتي الأعلى المركزي وهو المجلس الذي يطغى عليه العنصر الروسي أو أنصاره.

أما المطالبة بالانفصال خارج المجالات الرسمية فأمر يستوجب العقوبة القضائية حيث ينص قانون العقوبات على أن أي تحريض أو دعاية يقصد منها إضعاف الدولة السوفيتية أو الانقضاخ عليها، تعرضان مقترفهما لعقوبة سجن تتراوح مدتها بين ستة أشهر وسبع سنوات.

وبينا يستمر الادعاء الاعلامي بأن الاتحاد السوفيتي يتكون من اتحاد فيدرالي لجمهوريات متكافئة فإن الحزب الشيوعي السوفيتي هو النواة القيادية لجميع تنظيمات الطبقة العاملة الرسمية والعامّة ولا يعتبر اتحاداً فيدرالياً لأحزاب متفرقة وإنما يعتبر حزباً مركزياً واحداً هو المسؤول عن جميع أعمال الحزب الشيوعي في جميع جمهوريات الاتحاد السوفيتي.

الاسلام والمسلمون في جمهوريات تركستان الغربية :

الحديث عن موقف الشيوعية من الدين الذي تعدّه مخدر الشعوب وافيونه ومن الدين الإسلامي خاصة الذي تعتبره العدو اللدود معروف منذ أن ظهرت الشيوعية ونظرياتها التي لا تنشأ ولا تعيش الا في تربة الاتحاد العفنة، والشيوعية التي نتجت عن فلسفة نبعت من أصول يهودية و صليبية حاقدة وضعت نصب عينيها محاربة المسلمين واستئصال الإسلام بكافة اساليب الاضطهاد والتعسف الذي تراوح بين العنف المادي والتسامح الظاهري المشوب بالضغط المعنوية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية ويمكن تقسيم المراحل التي مرت على المسلمين كالآتي :

١ — دور الإعداد السياسي وفرض الحكم الشيوعي فيما بين ١٩١٧ — ١٩٢٩م: حيث قام الحزب الشيوعي في السنين الاولى بعد اغتصاب الحكم بالتسامح في أمور الدين الإسلامي وأئمة في محاولة منه لاضعاف المقاومة الوطنية والدينية بين المسلمين وازدادت الدعاية القائلة بعدم وجود تناقض بين الشيوعية والإسلام واخذت الصحافة السوفيتية تغالى في مدح الروح الديمقراطية في الدين الإسلامي

واقاضت الاجهزة الشيوعية في مدح ائمة الدين الاسلامي والتقرب منهم واستمر هذا الوضع إلى أن شعر النظام السوفييتي بثبات اقدامه وتركيز قواته العسكرية.

٢ - دور الاضطهاد والعنف المادى ضد الإسلام وائتمته ومؤسساته فيما بين عامي ١٩٢٩م - ١٩٤١م :

كان بدء مصادرة الاملاك الزراعية وتحويلها إلى مزارع جماعية هو الاشارة إلى بدء الهجوم الشيوعي ضد الإسلام، إذ صادرت السلطات الشيوعية جميع الاوقاف التي اوقفها المسلمون على المساجد والمدارس ومساكن الفقراء والأرامل والايتام واغلقت أكثر من ٦٣٠٠ مدرسة دينية اسلامية ومايزيد عن ٦٠٠ معهد اسلامي عال، وجرى تصفية المحاكم الشرعية التي كان عددها ٣٤٢ محكمة في اوزبكستان عام ١٩٢٢م.

كما اغلقت المساجد وعددها ٢٥ ألف مسجد وتم تدمير أكثرها وتحويل بعضها إلى مستودعات واسطبلات ونواد ليلية وكذلك جرت محاكمات تشهيرية أوسرية لرجال الدين ومدرسيه في جميع أنحاء البلاد بصفتهم اعداء الشعب ومحرضين ضد النظام الجماعي وصدرت ضدهم احكام متنوعة بالاعدام والاعتقال والاشغال الشاقة والنفي إلى معسكرات السخرة.

ويصعب تقدير عدد من لاقوا حتفهم منهم ولكن ورد في بعض المعلومات ان الارهاب الشيوعي تسبب في قتل ٥٠٠٠٠ شخص من ائمة الدين الاسلامي عام ١٩٤٠م وادى هذا إلى منع المسلمين من ممارسة شعائهم الدينية مثل الصلاة والصيام والحج كما تم مصادرة جميع المصاحف والكتب الاسلامية واتلافها ومعاقبة كل من يضبط متلبساً بقراءتها.

وجندت جميع الأجهزة الاعلامية والثقافية والتعليمية في الهجوم ضد الإسلام ومبادئه وشخصياته وكان القصد من هذه الحرب الشرسة

هو استئصال الاسلام ومحو التقاليد الوطنية واحلال عادات وثقافات غريبة في حياة المسلمين مثل الغاء الاحتفال بعيدى الفطر والاضحى وإبدال ذلك بإقامة الاحتفالات الباهرة بعيد رأس السنة الميلادية وترويج المسكرات والاختلاط الجنسي.

٣ - دور التظاهر بالتسامح الديني واستخدامه في خدمة السياسة ١٩٤١ - ١٩٦٤م بعد نشوب الحرب العالمية الثانية وعلى اثر تقدم القوات الالمانية النازية نحو موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي قام الحزب الشيوعي وحكومته السوفيتية التي يرأسها جوزيف ستالين حينذاك بتطبيق المبدأ القاتل (الغاية تبرر الوسيلة) وخفت الحملات المسعورة ضد المسلمين واتجه الحكم إلى تخدير الرأى العام باعلانه (حرية الدين) والاعتراف برجال الدين ودورهم في حياة الناس وعملت السلطات الشيوعية على احتواء المسلمين وممارستهم الدينية في الادارات الدينية التي احدثتها لادارة ما كان لايزال متبقياً من المساجد.

وفي ديسمبر عام ١٩٤٨م عقد مؤتمر اسلامي لجمهوريات تركستان الغربية في طشقند عاصمة أوزبكستان حضره ١١١٥ مندوباً وانتخب المؤتمر الشيخ بابا خان عبدالمجيد خان البالغ من العمر ثمانين عاماً مفتياً لمسلمي تركستان الغربية ثم اصبح رئيساً للادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان في مقرها (طشقند).

كما افتتحت مدرسة مير عرب الإسلامية في بخارى عام ١٩٤٨م وتلاها معهد الإمام البخارى الإسلامى في طشقند عام ١٩٥٦م وشارك رجال الدين التركستانيون في وفود اسلامية توجهت لاداء فريضة الحج وزيارة بعض البلدان الإسلامية بهدف الدعاية الاعلامية عن الحرية الدينية التي يتمتع بها المسلمون في تركستان الغربية وبقية بلدان الاتحاد السوفيتي.

وكان بالطبع هذا هو الوجه الدعائي لسياسة الاتحاد السوفيتي في

موقفه من الدين، اما الوجه الحقيقي فقد اعلنه مولانا عبدالوهاب عضو الوفد الباكستاني الذي زار طشقند في ٣٠ يونيو ١٩٥٧م حيث ادلى بعد رجوعه من الاتحاد السوفيتي بالبيان التالي :

ان ملاحظاتي الشخصية لحياة المسلمين في الاتحاد السوفيتي اقنعتني بأن الحكومة السوفيتية لم تكتف بأن جعلت من المتعذر على المسلمين القيام بواجباتهم الدينية ومنعت تدريس العلوم الدينية للنشء الحديث في البلاد، بل إنها قامت بمحاربة الثقافة الإسلامية بانتظام.

ونشرت في نفس الوقت مجلة الإسلام الصادرة في كراتشي بتاريخ ٢٣ أغسطس ١٩٥٧م حديثا لوفد العلماء القائل بأن وضع السكان المسلمين في الاتحاد السوفيتي يمكن ان يعتبر انذارا للعالم الإسلامي الحر، لما قد تجلبه الشيوعية معها في حالة انتشارها.

وفي الحقيقة كان انهيار الجبهة الروسية امام تقدم القوات الألمانية النازية وتطلع شعوب الاتحاد السوفيتي إلى المشاركة مع الالمان في غزوهم لروسيا وحاجة الحكم الشيوعي إلى تجميع قواه داخليا واستقطاب دعم الحلفاء امريكا وبريطانيا وفرنسا لدحر القوات الغازية ثم مد النفوذ وفرض التأثير على الشعوب لمواجهة النفوذ الغربي هي العوامل التي دفعت الحكم الشيوعي السوفيتي إلى تطبيق سياسة المهادنة في تحقيق اهدافه فيما يتعلق بعلاقته بالمسلمين داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه.

٤ - دور الاضطهاد المعنوي والثقافي وتنظيم استخدام الدين في السياسة والإعلام اعوام ١٩٦٥ - ١٩٨٦م:

لم يتغير موقف السلطات السوفيتية نحو الدين بل انتظمت سياستها نحوه والحديث هنا عما تنفذه اجهزة الحكم الشيوعي من اجراءات فعلية وممارسات ملموسة، ولا قيمة لما يتضمنه دستورها من مواد في حرية الدين لأن الانظمة في الدول الشيوعية هي بما تمارسها لا بما تعلن عنها، ويمكن وصف هذا الدور بالآتي :

(أ) تكشيف الهجوم الإلحادى ضد الدين وتجديد كافة الاجهزة الثقافية والاعلامية والتعليمية لمحاربته وانتقاده وبحث النظريات المادية والتعاليم الماركسية والمبادئ الشيوعية في عقول الناس وتجديد ثقافة الشعب بالفكر المادى.

إلى جانب حظر طبع أو نشر أى مادة اسلامية يستفيد منها عامة المسلمين ومنع دخول المطبوعات الإسلامية وحظر التعليم الديني والتربية الإسلامية في كافة المجالات ومعاينة كل مخالف لما ذكر حسب النظام الذي نص على تحريم الدعاية والتعليم الديني وتجريم فاعله.

(ب) الانتقال من عقوبات القتل والاعتقالات لمعاينة المتدينين إلى عقوبات اقتصادية بطرد العمال من اعمالهم وحرمان الموظفين من علاواتهم وترقياتهم وحرمان ابنائهم من التعليم والرعاية الصحية وقطع المواد الغذائية عنهم والتشديد عليهم بالاعمال الشاقة.

(ج) فتح بعض المساجد بزعم انها مراكز ترفيهية واجتماعية للمسلمين المتقاعدين والمسنين والعجزة لقضاء اوقات فراغهم وممارسة نشاطاتهم الاجتماعية والثقافية.

(د) إعداد جماعات من أبناء المسلمين لمتابعة ومراقبة نشاط المسلمين وتوجيه العمل الاسلامي بما يتناسب مع سياسة الحكومة السوفيتية وتحقيق اهدافها وينفذ تعليماتها ويؤدي إلى احكام سلطاتها.

(هـ) توجيه العمل الاسلامي الرسمي بشكل اساسي لخدمة اغراض الاعلام الخارجي وسياسة الاتحاد السوفيتي الدولية وتمثل في الاتي :

* طبع القرآن الكريم والكتب الإسلامية باللغة العربية باعداد محدودة لاستعمالها في الإهداء الخارجي ومنع تداولها لغير

المنتسبين للإدارات الدينية وترويج مجلة (المسلمون في الشرق السوفييتي) بعدة لغات بهدف الدعاية الرسمية لحرية الدين الإسلامي ونشاط العاملين المسلمين وهيئاتهم.

* تكشف ارسال وفود الادارات الدينية الإسلامية إلى اقطار العالم والاقطار الإسلامية خاصة ودعوة الشخصيات والهيئات الإسلامية لزيارة اوزبكستان بصفة خاصة بغية الدعاية الإعلامية لما حققه النظام الشيوعي والحكومة السوفيتية من انجازات والادعاء بما كفل للمسلمين من حريات دينية واجتماعية.

* تنظيم المؤتمرات والندوات الإسلامية وتوجيه الدعوات لمختلف الهيئات والشخصيات الإسلامية للمشاركة فيها واستغلالها بشكل رئيسي لتأييد اهداف السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي، وليس في ذلك مايعالج احوال المسلمين ويلبي حاجاتهم ولا تتطرق تلك المؤتمرات إلى ظروف المسلمين في الاتحاد السوفييتي وضرورة تأمين مطالبهم في النشاط الإسلامي، ومن ذلك:

— مؤتمر اتحاد وتضامن الشعوب المسلمة من اجل السلام في طشقند وقد حضره ممثلون من ٢٤ دولة مسلمة.

— المؤتمر الاسلامي بمناسبة مرور ١٢٠٠ سنة على وفاة الامام البخارى الذي عقد في مدينة بخارى في شهر اغسطس عام ١٩٧٤م، واشتركت فيه ٢٥ دولة اسلامية وهيئات اسلامية من ضمنها رابطة العالم الإسلامي.

— الاحتفال بمرور ٣٠ عاماً على انشاء الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان في طشقند في اكتوبر ١٩٧٦م، حضره ممثلون من اليمن الجنوبي وسوريا والمغرب والاردن وتونس والهند وباكستان.

— الاحتفال بمرور عشرة أعوام على اصدار مجلة «المسلمون في الشرق السوفييتي» في طشقند في ٣ يولييه ١٩٧٩م حضره ممثلون

من ١٥ دولة منها اليابان والحبشة وبلغاريا.

— ندوة مساهمة مسلمى الاتحاد السوفيتي في تطور الفكر الإسلامي الذي أدى إلى تحقيق السلام والتطور الاجتماعي في دوشنبه عاصمة تاجيكستان في سبتمبر ١٩٧٩م حضرها ممثلون من ٣٠ دولة.

— الاحتفال بدخول القرن الخامس عشر الهجري في طشقند في ذى القعدة عام ١٤٠٠هـ وحضره ممثلون من ٢٧ دولة.

وقد استغلت هذه المؤتمرات للدعاية الاعلامية بأن المسلمين يعيشون بحرية دينية كاملة في الاتحاد السوفيتي وانهم يشاركون العالم الإسلامي في قضايا الفكرية والثقافية، بل والسياسية لأن هذه المؤتمرات كانت تندد دوما بالامبريالية وامريكا واسرائيل وجنوب افريقية العنصرية. وزعماء الادارة الدينية في هذا الصدد يرددون تصريحات ساسة الحكم في الاتحاد السوفيتي.

الصحة الإسلامية :

ان التقارير الصحفية وانطباعات الزائرين المسلمين وغيرهم علاوة على استقصاءات الحكومة السوفيتية والاحداث التي يعلن عنها بين فئة واخرى عن اعتقال ومحاكمة بعض المسلمين بسبب أنشطة دينية وكذلك الدراسات الغربية تفيد كلها بأن اساليب الاضطهاد الديني وعمليات الاستئصال والتدوين العنصري والثقافي لم تؤد اهدافها في القضاء على روح الإسلام في نفوس المسلمين، بالرغم من قوتها وبطشها. بل أذكت في نفوسهم الغيرة والحمية للإسلام وايجاد السبل والاساليب التي تمكنهم من ممارسة بعض شعائره وتعلم بعض احكامه في بيوتهم ومنتدياتهم سرا ويمارسون بعض احكامه الاجتماعية جهرا ويعتبرونها مميزات وعاداتهم القومية.

وقد اظهرت الدراسات الاخيرة ان ٨٠% من سكان جمهوريات تركستان الغربية لا يزالون متمسكين بايمانهم ومواظبين على أداء الشعائر الدينية التي

يعتبرونها جزءاً من واقعهم القومي، كما اثبتت الوقائع ان الشبان مهما كانت ثقافتهم الحديثة وتلاحمهم بالمجتمع السوفييتي يرفضون ظواهر الترويس (اي الصفة الروسية) ويتمسكون بشخصيتهم الاسلامية وارثهم التاريخي كما اظهرت التقارير بأن بعض اعضاء الحزب الشيوعي وموظفي الدولة الكبار الذين يظهر عليهم تمسكهم بالتعاليم الشيوعية في فترة عملهم يعودون إلى دينهم حينما يبلغون سن التقاعد وهو ٥٥ عاماً وعندما يسأل احدهم عن ذلك يجيب: انا مسلم لان الكافر يصبح اضحوكة بين الناس، انا مؤمن لأنى مسلم انا مسلم لأن والديّ كانا مسلمين ولايجوز مخالفة الوالدين.

يقول الدكتور لازارينى من جامعة نيواولينز في محاضرة القاها في الندوة العالمية الثانية لآسيا الوسطى في لندن بين ٧ - ١٠ ابريل ١٩٨٧م : ان سياسة العنف التي مارستها السلطات السوفيتية لنشر الاتحاد محلياً تحولت لصالح الإسلام محلياً لزيادة رد فعل المسلمين وخارجياً لاعتبارات عالمية اسلامية بصرف النظر عن وقوع رجال الدين تحت الادارة المباشرة والضغط السياسي لرجال الحزب الشيوعي فانهم يتسللون من السياج الحديدى المضروب حولهم ليعملوا على بث رسالتهم الاسلامية، وبهذا يعملون على تكذيب الادعاء السوفييتي القائل بتغلب الماركسية اللينية على تعاليم الإسلام.

وتقوم الادارات الدينية الرسمية بطبع القرآن الكريم وبعض الكتب الاسلامية باللغة العربية أولاً لاستخدامها هدايا يقدمونها إلى الشخصيات والوفود الإسلامية التي يقابلونهم في داخل أو خارج الاتحاد السوفييتي، وثانياً لأن مسلمي الاتحاد السوفييتي لا يستطيعون قراءتها والاستفادة منها بعد ان فرضت عليهم الابجدية الروسية ولغتها.

ولم تطبع هذه الادارات التي يفترض اهتمامها بالثقافة الاسلامية كتباً اسلامية باللغة والابجدية التي يستخدمها عامة المسلمين حتى الآن. لكن الهيئات السرية التي تزاوّل نشاطها خفية بين المسلمين في القرى والنوادي

تقوم بنسخ الكتب الدينية وتوزيعها بين المسلمين فثلاً نشرت جريدة اوزبكستان في عددها الصادر بتاريخ ٢٤ يونيو ١٩٨٤م مقالاً عنهم بعنوان «الملائكة المحتالون» ثم نشرت خبراً في ٢٤ اغسطس ١٩٨٤م مفاده ان مروان بولات من كلخوركستان كان يبيع الكتب الدينية سرا امام جامع خوجه زومراد في سمرقند وكانت ابنته جميلة قر البالغة من العمر ٤٥ عاماً تساعد في ذلك، فالقت اجهزة الحزب الشيوعي القبض عليها مع اربعة آخرين وصادرت الدولة املاكها وحكمت على الأب بالسجن خمسة اعوام وعلى البنت بالسجن سبع سنوات.

ومما يظهر حقيقة انتشار الاسلام بين من يسمون انفسهم اعضاء الحزب الشيوعي في جمهوريات تركستان الغربية بالرغم من محاربة الدولة وحملات الاتحاد المكثفة ان الاجتماع السابع عشر للحزب الشيوعي لجمهورية اوزبكستان المنعقد في اكتوبر ١٩٨٦م انتقد المجتمعون فيه بعض اعضاء الحزب الشيوعي الذين يعملون على نشر الاتحاد والشيوعية ويشتركون في طقوس دينية واصدر قرارا بمراقبة ذلك.

وجريدة سوفيت سكاي في عددها الصادر بتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٩٨٤م اعترفت بانتشار الروح الاسلامية بين المثقفين، وأشارت إلى أن هذا يشكل خطورة اجتماعية وسياسية. وقد اشار اليها ايضا مشرف رشيدوف السكرتير العام للجنة الحزب الشيوعي المركزي لجمهورية اوزبكستان في خطاب له عام ١٩٧٩م ان رجال الدين السريين يتأقلمون بذكاء مع الاوضاع الجديدة ولهم القدرة على لبس اللبوس لكل حالة، وهم يدافعون عن بعضهم بعنف ويبدون اهتماما خاصا بالشباب، ومن الخطأ القول انهم يخوضون حرباً خاسرة.. ونفوذهم يتبدى في الاعداد المتزايدة التي تؤم المساجد وفي الاعياد الاسلامية والمناسبات الاجتماعية ذات الصبغة الاسلامية.

وهكذا نجد ان جهود الشيوعيين لاستئصال الاسلام في تركستان لم تؤد الا إلى حقيقة واحدة هي ان الإسلام صامد وقد تكون الاجهزة الشيوعية

عملت على تشويه بعض افكاره واحكامه التي استقرت في نفوس المسلمين وتتخذ اشكالاً عدة قد تكون مخالفة لاصلها ولكنها باقية باسم الاسلام. وهذا ما دعا الاجهزة الغربية من الاستشراق والتنصير إلى ان تهتم بالنمو السكاني لمسلمي الاتحاد السوفييتي والى دراسة ظاهرة التواجد الإسلامي القوى وفشل عمليات التلويب الروسى.

فقد عقد مؤتمر في نيويورك في أوائل عام ١٩٨١م حول المسلمين في الاتحاد السوفييتي ويكفي قول الدكتور موراي فيشباك الخبير في النواحي السكانية للاتحاد السوفييتي استدلالاً على هدف المؤتمر اذ يقول: وما يجعل هذه المشكلات حادة هو تمسك المسلمين باحساس قوى بشخصيتهم المستقلة.

وتتفق معه الكاتبة الفرنسية هيلين كارير دونكوزى بقولها: بانهم يظلون مسلمين بغض النظر عن غموضهم. واستخلص المؤتمر: بأن المسلمين يتميزون بثقافة اسلامية خاصة قد تكون العقيدة الدينية جزءاً منها وقد تكون عادات اسلامية مثل الختان والزواج ومراسم الجنائز وبعض الانماط الاجتماعية والثقافية. وارتفاع معدل مواليد المسلمين هو احد الامثلة ورفض الزواج من غير المسلمين هو مثال آخر..

وتحاول اجهزة الاعلام الروسية والأوروبية اظهار تمسك المسلمين ببعض احكام الاسلام على انه تمسك بالتقاليد القومية وكأن تعلقهم بها هو ظاهرة قومية وليست دينية ويهدفون بذلك إلى الاقلال من شأن الدين. ولكن الواقع ان المسلمين السوفييت الذين حارب دينهم الحنيف بقسوة وعنف ومنعوا من ممارسة شعائره الدينية، استطاعت اكثريتهم الاستمرار في ممارسة بعض الاحكام العامة فيه بدعوى انها مميزات وطنية وعادات قومية، لأن السلطات الشيوعية التي حاربت الدين واحكامه روجت الدعاوى القومية والعشائرية وضخمت الفروق القبلية

وإذا كان الختان يمنع مثلاً على انه شعيرة دينية فإنه يمكن ممارسته على انه عادة قومية.. ومثل هذه الامور لا تؤدى لكونها واجبات دينية فحسب، بل

لكونها ايضاً عادات قومية.

والمسلمون التركستانيون يعرفون حق المعرفة بأن دينهم الإسلامي المميز هو الذي ساعدهم على البقاء أمة متميزة وهم عندما يمارسون بعض الشعائر الإسلامية التي يظن غير المسلم انها ممارسة قومية فهم يؤدونها على أنها التزام ديني وقومي في آن واحد. وذلك حتى الملحدون وهم الأكثر اقتناعاً يختنون اولادهم ولا يزال يسمع الى اليوم في طشقند او (دوشنبه) تعابير مثل : لا يستطيع غير المسلم ان يكون اوزبكيا او تاجيكيا.

عهد إعادة البناء :

منذ ان تولى الرئيس ميخائيل جورباتشوف زمام السلطة في الاتحاد السوفييتي في يناير عام ١٩٨٥م، والاتحاد السوفييتي يعيش مرحلة جديدة من السياسة سموها غلاسنوست يعني المكاشفة والمصارحة وبيرسسترويكا وتعني إعادة البناء وأصبحت هاتان الكلمتان تميزان السياسة السوفيتية المعاصرة في الداخل والخارج، والمشاهد ان هناك بوادر تحسن وتعديل اقتضتها الظروف لمعالجة المشاكل التي نجمت من تطبيق النظام الشيوعي مما يؤكد فشل النظريات الشيوعية التي وضع اسسها كارل ماركس وانجلز وسفك لينين وستالين دماء الابرياء في تطبيقها على الناس بقوة الحديد والنار، ومع ذلك ذهبت كل الوعود الزائفة التي اطنب الشيوعيون في ترويجها وتخدير الشعوب بها هباءا ولم يجن الانسان منها في تلك الدول التي ابتليت بالشيوعية الا التدهور الاقتصادي والانحلال الاجتماعي والتضخم الاقتصادي وتفاقت المشكلات والإضطرابات وبات البحث عن الخلاص امراً لازماً، وحدث ما حدث وكان يجب ان يحدث قبل زمن.

أما القارئ للاحداث اليقظة الإسلامية بين مسلمي الاتحاد السوفييتي فيلاحظ ان العنف الذي مارسه الشيوعيون في محاربة الإسلام لم يؤد إلا إلى زيادة محبة المسلمين لدينهم ومقاومة الحكم الشيوعي.

وقد اشارت بعض الأنباء التي تسربت إلى أوروبا بحدوث عدد من الاضطرابات بين العمال ورجال الحزب الشيوعي في جمهوريات آسيا الوسطى وشمال القفقاس انتهت بتدخل الجيش الاحمر وفرض الاحكام العرفية خلال شهر مارس ١٩٨٢م. مما يعني ان الحملات التي شنتها السلطات الشيوعية لايحراج المسلمين من دينهم فشلت فشلاً ذريعاً بتأكيد زعمائهم فقد ذكر سكرتير الحزب الشيوعي لجمهورية تاجيكستان في عام ١٩٨٦م، ان جميع الجهود التي بذلها نظام التعليم وجهاز الحزب الشيوعي لمحاربة الدين الإسلامي انتهت بالفشل ووفقاً لحدث استطلاعات الرأي العام الذي اجري مؤخراً في تاجيكستان كان رأى ثلث الاشخاص الذين استطلعت آراؤهم متفقاً على ان الدين مفيد والخطر من ذلك فقد كان اغلبهم من المثقفين مثل موظفي الهيئة الطبية والمدرسين من اساتذة الفيزياء والكيمياء.

وقد شارك الأدباء المشهورون ايضاً في هذه الصحوة الاسلامية فقد كتب الاديب المقرغيزى جينكيز عصفوف في رواية له بعنوان «ملاخ» صدرت في عام ١٩٨٧م (ان الانحطاط الثقافي الذي يسود آسيا الوسطى هو نتيجة فصل التراث الحضاري عن حياة المسلم المعاصر) و يوضح ذلك بمثال يضربه عن سلخ الانسان وتغيير جلده ثم القائه في العراء.

وفي عهد الرئيس جورباتشوف يتطلع المسلمون الى التدرج في التسامح الديني واتاحة فرص ابراز الشعور القومي مع منح قدر اكبر من الحرية اللامركزية لجمهوريات الاتحاد السوفيتي خصوصاً في الشؤون الادارية والثقافية وربطها جميعاً بخطة اقتصادية تستقل في فروعها وتتحد في عمومياتها ثم تنحصر الشؤون الخارجية والدفاعية والامنية في السلطة المركزية وتتححرر الجمهوريات في ممارسة شئونها الحياتية مع بقائها تحت رقابة المحاكم السوفيتية العليا.

تعقيب :

كتبت هذه الدراسة اثر زيارة وفد رابطة العالم الإسلامي إلى الاتحاد السوفيتي التي تمت في شهر ابريل عام ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م والتي ذكرنا المشاهدات فيها في هذا الكتاب.

وقد حدثت بعد ذلك تطورات في الاتحاد السوفيتي كانت بمجموعها نصراً للإسلام والمسلمين ودحراً للشوعية والشيوعيين وهو امر لم يكن يتوقعه أحد من قبل ولكن الله غالب على امره.

«يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون»
وقد زرت الاتحاد السوفيتي بعد هذه الزيارة بأربع سنين حيث ابتدأت هذه الزيارة في ١٤١٠ هـ.

فوجدت الاوضاع قد تغيرت، والاحوال قد تبدلت وكل ذلك لمصلحة الاسلام والمسلمين ووجدت الاخوة المسلمين قد استغلوا ذلك في العمل السريع الجاد لاثهار اسلامهم، ورفع شعاره عالياً ظاهراً.

فالمساجد القديمة تستعاد وترمم وتعمر من جديد بذكر الله والصلاة والمساجد الجديدة تنتشر في المدن والقرى حتى صارت خليات من خليات النحل التي تعمّر المساجد، وتضيف اليها حجرات المدارس الإسلامية. بل حتى المعاهد الدينية الإسلامية تقام الآن فأهل تاجيكستان يبنون الآن معهداً إسلامياً نموذجياً حتى في مظهره ليكون اول معهد إسلامي في تلك الجمهورية يقوم على تعليم الطلاب وتثقيفهم مع اعاشتهم واسكانهم فيه طيلة مدة دراستهم.

وقد شاهدت اشياء مؤثرة من تعليم الاطفال الصغار للدين الإسلامي وحفظهم سوراً بل اجزاء طويلة من القرآن الكريم وهم في أسنان الطفولة ورأيت الشيوخ الطاعنين في السن يتعاونون مع اطفال المسلمين على حمل اللبن الذي تُعَمَّرُ به المساجد ومساعدة البنائين على عملهم.

وسجلت كل ذلك حسباً شاهدهته وعرفته في كتابين كتبتها عن مشاهداتي في تلك الرحلة احدهما عنوانه : «الرحلة الروسية» والاخر بعنوان «يوميات في آسيا الوسطى».

هذا إلى جانب الفصل الذي كتبه في تلك الزيارة عن مشاهداتي في مدينة بخارى والحقته بهذا الكتاب.. والله اعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم للأستاذ بابكر درويش	٥
تصدير	٩
من عمان إلى موسكو	١٧
الروس والسوفييت	١٨
حكم الأقلية	٢٠
في مطار لارنكا	٢٤
من لارنكا إلى موسكو	٢٥
في مطار موسكو	٢٦
في مدينة موسكو	٢٩
مقر مكتب العلاقات الخارجية	٣٣
المرافقون	٣٧
من موسكو إلى فشقند	٣٨
أين أنتم أيها المقلدون؟	٤٠
أوف تعني (ابن)	٤٣
في مطار طشقند	٤٤
في مدينة طشقند	٤٧
عشاء طشقند	٥١
صباح طشقند	٥٣
إلى مجلس السوفيت الأعلى	٥٣
في مجلس السوفيت الأعلى	٥٦
الحالة الدينية	٥٩
مجلس السوفيت الأعلى	٦٠
إلى الإدارة الدينية	٦٦
الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان	٦٧
مسجد تلا شيخ	٧٦
هدية شقائق النعمان	٧٩

٨١	معهد الإمام البخارى
٨٣	السلام على القفال الشاشي
٨٥	طشقند المدينة القديمة
٨٦	معرض الإنجازات لشعب أوزبكستان
٨٩	المسلمون يزيدون
٩٠	جولة على المساجد
٩١	مسجد راه كنت
٩٣	في ريف طشقند
٩٥	مدينة زارع البطيخ
٩٩	إلى محلة كمالان
١٠١	وقرية بالفانسج
١٠٢	تعليق على مشاهداتنا في هذه المساجد
١٠٤	مأدبة المفتي
١٠٨	معهد الاستشراق
١١٦	الجمعية الأوزبكية للمصداقة
١١٩	الجمعة الحاشدة
١٢٠	الغداء الحافل
١٢١	والصلاة الحافلة
١٢٥	أيوم كيوم كاشغر؟
١٢٧	الموت والحياة
١٢٩	إلى مسجد وقاص آتا
١٣٢	قبل مغادرة طشقند
١٣٥	أمور إيجابية
١٣٦	شي مؤلم
١٣٨	من طشقند إلى سمرقند
١٣٨	ساعات في مطار طشقند
١٤١	الحبس في الطائفة
١٤٤	إلى سمرقند
١٤٥	في مطار سمرقند
١٤٥	في مدينة سمرقند
١٤٦	صباح سمرقند
١٤٩	قبر تيمور لنك

١٥١	الخداع حتى في القبور
١٥٣	القبور الحقيقية
١٥٥	إلى ميدان المدارس
١٦٠	في سوق سمرقند
١٦٣	أشجار السوق من العنب
١٦٨	المسجد المهجور
١٦٩	ضريح قثم بن العباس
١٧٤	مرصد أولغ بك
١٧٧	إلى خرتنك أو خوجا إمام اسماعيل
١٨٢	السلام على الإمام البخارى
١٨٣	مائدة بخارية
١٨٥	عقد النكاح الشرعي
١٨٧	الحديقة الكبيرة
١٨٧	العودة إلى سمرقند
١٨٨	مسجد خوجا زد مراد
١٩٠	مسجد خوجه أحرار
١٩٣	مأدبة رئيس الأطباء
١٩٣	مؤتمر صحفي
١٩٦	مغادرة سمرقند
١٩٧	إلى مدينة الإمام البخارى
١٩٨	من خوارزم إلى بخارى
١٩٨	صباح خوارزم
٢٠٠	في مطار أوركنج
٢٠١	إلى بخارى
٢٠٢	فوق نهر جيحون
٢٠٤	كان بالسيارة أفضل
٢٠٥	فوق بخارى
٢٠٦	الوصول إلى مطار بخارى
٢٠٧	في مدينة بخارى
٢٠٨	فندق بخارى
٢١٠	جولة في مدينة بخارى

٢١٠ الجامع الكبير
٢١٢ جامع الإمام البخارى
٢١٣ خروج الإمام البخارى من بخارى
٢١٤ عود إلى الحديث عن الجامع الكبير
٢١٦ منارة كلان
٢١٨ مدرسة مير عرب
٢١٨ المسلمون أولاً
٢٢٠ حديث عن مدينة بخارى
٢٢٤ قلعة آرك
٢٢٦ ضريح السامانيين
٢٢٧ بئر أيوب
٢٣١ ضواحي بخارى
٢٣٣ قصر العارفين
٢٣٤ قبر النقشبندی
٢٣٦ مسجد عبدالحكيم
٢٣٦ مفادرة بخارى
٢٣٨ خاتمة عن بلاد ما وراء النهر
٢٤٠ تركستان الغربية وجغرافيتها
٢٤١ تركستان الغربية وثراؤها
٢٤٣ تركستان في الإسلام
٢٤٦ الاحتلال الروسي لتركستان الغربية
٢٤٨ السيطرة الشيوعية
٢٥١ سياسة التهجير والإستيطان الروسي
٢٥٣ الغزو الثقافي
٢٥٥ النظام السياسي في جمهوريات تركستان الغربية
٢٥٧ الإسلام والمسلمون في جمهوريات تركستان الغربية
٢٦٣ الصحوة الإسلامية
٢٦٧ عهد إعادة البناء
٢٦٩ تعقيب
٢٧١ الفهرس

كتب في الرحلات للمؤلف

أولاً - كتب مطبوعة :

- ١ - «في إفريقية الخضراء» طبع أكثر من مرة، وترجم إلى عدة لغات.
- ٢ - «مدغشقر: بلاد المسلمين الضائعين» نشره النادي الأدبي في الرياض.
- ٣ - «جولة في جزائر البحر الزنجي، طبع المطابع الأهلية للأؤفست بالرياض ١٤٠٢هـ.
- ٤ - «في نيبال، بلاد الجبال» طبع مطابع نجد في الرياض.
- ٥ - «رحلة إلى جزر مالديف» طبع ٣ مرات ونشرته دار العلوم في الرياض.
- ٦ - «رحلة إلى سيلان» نشرته الجمعية العربية السعودية للفنون والثقافة.
- ٧ - «صلة الحديث عن إفريقية» نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٤هـ.
- ٨ - «مشاهدات في بلاد العنصرين» نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة.
- ٩ - «شهر في غرب إفريقية» طبع في المطابع الأهلية للأؤفست بالرياض.
- ١٠ - «زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية» طبع في المطابع الأهلية للأؤفست بالرياض.
- ١١ - «رحلات في أمريكا الوسطى» طبع في المطابع الأهلية للأؤفست بالرياض.
- ١٢ - «إطلالة على نهاية العالم الجنوبي» نشره النادي الأدبي في مكة المكرمة.
- ١٣ - «إلى أقصى الجنوب الأمريكي» طبع في مطابع الفرزدق بالرياض.
- ١٤ - «ذكرياتي في إفريقية محاضرة طبعها رابطة العالم الإسلامي.
- ١٥ - «جولة في جزائر البحر الكاريبي» طبع في المطابع الأهلية للأؤفست بالرياض.

- ١٦ - «على قمم جبال الانديز» طبع في مطابع الفرزدق التجارية.
- ١٧ - «جولة في جزائر جنوب المحيط الهادي» مطابع الفرزدق.
- ١٨ - «على ضفاف الأمازون» نشره النادي الأدبي في أبها.
- ١٩ - «في أعماق الصين الشعبية» نشرته مجلة المنهل التي تصدر في جدة.
- ٢٠ - «نظرة في وسط إفريقية» طبع في مطابع الفرزدق بالرياض.

ثانياً - كتب مخطوطة :

- ٢١ - «بقية الحديث عن إفريقية».
- ٢٢ - «يورما الخبر والعيان».
- ٢٣ - «بقية البقية» من حديث إفريقية».
- ٢٤ - «قصة سفر في نيجيريا».
- ٢٥ - «في ربوع السودان الغربي».
- ٢٦ - «وراء العمل الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية» مجلدان.
- ٢٧ - «رحلات في أمريكا الجنوبية».
- ٢٨ - «رحلات في شرق الهند».
- ٢٩ - «وراء العمل الإسلامي في القارة الاسترالية» مجلدان.
- ٣٠ - «وراء المشرقين» رحلة حول العالم وحديث في شئون المسلمين.
- ٣١ - «في بلاد الهند والسند» باكستان.
- ٣٢ - «في أندونيسيا: أكبر بلاد المسلمين».
- ٣٣ - «الرحلات الهندية».
- ٣٤ - «مشاهدات في تايلند».
- ٣٥ - «رحلات في بلاد الملايو».
- ٣٦ - «نظرة إلى الفلبين بين زيارتين رسمية وخاصة».
- ٣٧ - «الإشراف على أطراف من المغرب العربي».
- ٣٨ - «رحلات في القارة الأوروبية».
- ٣٩ - «ذكريات من أركان العالم».
- ٤٠ - «الحل والرحيل» في بلاد البرازيل.
- ٤١ - «داخل أسوار الصين».
- ٤٢ - «في مهد الترك».
- ٤٣ - «رحلات في البيت».
- ٤٤ - «مقال عن بلاد البنغال».
- ٤٥ - «زيارة للمسلمين في الاتحاد السوفيتي».
- ٤٦ - «في شرق البرازيل».
- ٤٧ - «عبير القهوة البرازيلية».
- ٤٨ - «رحلات فنزويلية».
- ٤٩ - «الرحلة اليوغسلافية».
- ٥٠ - «خلف الستار العقيدي».
- ٥١ - «رحلات في شمال الهند».
- ٥٢ - «رحلات في وسط الهند».
- ٥٣ - «رحلات في جنوب الهند».
- ٥٤ - «رحلات في غرب الهند».
- ٥٥ - «أيام في النيجر».
- ٥٦ - «في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر».
- ٥٧ - «مع المسلمين البولونيين».
- ٥٨ - «تائه في تاهيتي».
- ٥٩ - «نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض».
- ٦٠ - «ذكريات المؤتمرات».
- ٦١ - «جولة في جزائر البحر الأبيض المتوسط».
- ٦٢ - «بين الأرغواي والباراغواي».
- ٦٣ - «مؤتمرات إسلامية حضرتها».
- ٦٤ - «بين غينيا بيساو وغينيا كوناكري».
- ٦٥ - «من انقولا إلى جزر الرأس الأخضر».
- ٦٦ - «في غرب البرازيل».
- ٦٧ - «في جنوب البرازيل».
- ٦٨ - «العودة إلى الصين».
- ٦٩ - «سياحة في كشمير».
- ٧٠ - «في جنوب».
- ٧١ - «الرحلة إلى».
- ٧٢ - «إلى أقصى».
- ٧٣ - «يوميات أسبوع».
- ٧٤ - «مرور بأورو».
- ٧٥ - «جمهورية أد».
- ٧٦ - «بلاد الداغ».
- ٧٧ - «كنت في».
- ٧٨ - «كنت في».
- ٧٩ - «في أدغال».

